جوانب في عظمة

نبي الرحمة ﷺ

من وحي سيرته ومسيرته

كتبه الفقير إلى عفو ربه:

المصطفى السالك بن الطالب الشنقيطي غفر الله له ولوالديه ومشائخه.

بسم الله الرحمن الرحيم

تقريظ..

من فضيلة الشيخ العلامة / أُبَّيْن وَلَد بَبَانَ الشَّنْقِيطِي –حفظه الله تعالى–.

المصطفى السالكُ نهجَ المصطفى ... حِلْفُ العُلا أَلَّفَ جُزْءا مُصْطَفَى

جَمَعَ فِيهِ دُرَراً فَرِيدَةْ ... وَنُكَتاً وُطُرَفاً مُفِيدَةْ

حاوٍ مِنَ السِّيَرِ والآدابِ ... مَا يَطَّبِي مَسَامِعَ الأَنْدَابِ

جمعٌ صحيحٌ زيَّن الأَوْرَاقَا ... ولِعُيُونِ النَّاظِرِينَ رَاقَا

فِي حُسْنِهِ ذَهَبَ كُلَّ مُذْهَبِ ... فَحَقُّهُ الكَتْبُ بِمَاءِ الذَّهَبِ

مَوضُوعُ هَذَا الجَوْهَرِ الثَّمِينِ ... عَظَمَةُ المشَفَّعِ الأَمِين

يَا رَبِّ هَبْ جَامِعَهُ السَّعَادَةْ ... وَجَنَّةَ الفِرْدَوْسِ والزِّيَادَةْ

وَهَبْ لَهُ التَّوْفِيقَ والقَبُولاَ ... واجْعَلْ جَمِيعَ سَعْيِهِ مَقْبُولا

وَهَبْ لِمَنْ طَبَعَهُ مُرَادَهْ ... وَيَسِّرَنْ جَمِيعَ مَا أَرَادَهْ

وَصَلِّ يَا رَبِّ مَعَ السَّلاَمِ ... عَلَى الهُدَى ، وَآلِهِ الأَعْلاَمِ

كتبه/ابين ولد ببان

١٤٣٢/١٢/٣هـ

بفندق الشرق منازلي..

جوار المسجد النبوي الشريف

كلمة للصديق العزيز "د. سامر حماد.."

(هذا كتاب يضاف لمئات الكتب والإصدارات التي تناولت بعضا من حياة رسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم، ولا أقول إن هذا الكتاب مميز، وأنه تناول ما غفل عنه الآخرون، -إذ الأحكام لا بد لها من قضاة!!- فإن كان هناك ما يميز هذا الكتاب -في نظري- عما سواه فهو هذا الحب المفعم الذي لف أرجاء الكتاب، وهو الرد الطبيعيُّ على بعض الأقلام الحاقدة التي باتت تقف -هذه الأيام- على أمشاط أقدامها علها تطاول مقام هذا النبي الكريم ولكن هيهات، فإن نبتت شجرة الحقد في بعض القلوب فبمثل هذا الكتاب يتأكد نموُ أزاهير الحب في قلوب خلق كثير، وربما استمد الكاتب هذا الحب من إرث أجداده وعشيرته الذين حملهم الشوق، إلى أرض الرسالة ومهبط الوحي ومرقد الرسول ﷺ، فأجاءهم الشوق من أطراف إفريقيا حيث سواحل المحيط الأطلسي، عبورا بإفريقيا السمراء ومصر يحدوهم الحنين إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة، فقد كان لعلماء شنقيط اليد الطولى في العلوم الشرعية والعربية ونشرها في إفريقيا قبلَ وبعدَ عودَتِهم من الحجاز، وكثيرون منهم صاروا أعلاما وأئمة للهدى في الحرمين الشريفين، ويشكر للكاتب أنه تمثل ببعض أشعار هؤلاء العلماء الذين ربما كانت آثارهم غائبة عن القارئ المسلم، ونحن مطالبون -كل بما فتح الله عليه- بنشرِ رسالة رسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ومطالبون كذلك بحبه ، وأن نغرس هذا الحب في قلوب الناشئة من أبناء المسلمين، فإن لم يكن الحب كله لنبينا ﷺ الذي أخرجنا من الظلمات إلى النور فلمن؟..)

د. سامر سليمان حماد

جامعة الملك فهد للبترول والمعادن.

في ٧/٤/١٤٣٣هـ الخبر - الحزام الذهبي.

بسم الله الرحمن الرحيم

تقريظ الشيخ/ محمد فاضل ولد الطاهر الأنصاري

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين وسلم تسليماً كثيرًا، وبعد

فقد منّ الله تعالى عليّ بأن تشرفت بإلقاء نظرة على كتاب (جوانب في عظمة نبي الرحمن ﷺ) من وحي سيرته ومسيرته فألفيته كتاباً جميلاً مفعماً بالمحبة الصادقة والعاطفة الجياشة والأسلوب الرفيع، والركن المنيع، والاختيار البديع للدرر من المواقف والمشاعر التي ينبغي أن ترتفع إليها أجيال المسلمين في الحاضر والمستقبل لتصل إلى ذلك المستوى السامق الذي وصل إليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان من المحبة الصادقة الدافقة والتي تمثلت في تضحيات عملية ومواقف مرئية في حماية جناب الرسول الكريم ﷺ من كل أفاك متطاول والقيام بحراسته وخلافته في دينه القويم بالحيلولة دون أي إفراط فيه أو تفريط كما قال ﷺ: "يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين[1]." فكانوا بذلك على الصراط المستقيم الموصل إلى جنات النعيم، إن المسلمين بحاجة ماسة في كل جيل وعصر إلى من يذكرهم بفضل الله ومنته عليهم بإرسال هذا الرسول الكريم الخاتم الذي اجتمع فيه من الخلال الكريمة ما تفرق في غيره من الأنبياء والرسل وبحاجة ماسة كذلك إلى معرفة ماله من حقوق عظيمة توجب عليهم تعزيره وتوقيره وتعظيمه ومحبته بكل معاني المحبة ولهذا أحببت أن يكون لي شرف المشاركة في هذا المشروع المبارك حتى ولو كان ذلك عن طريق قراءته وكتابة كلمة تنويهية بمدى أهميته والاعتناء به قراءة وطباعة ونشراً ودعاء لمن أعمل فكره واستنباطه واستنطاقه للنصوص من الكتاب والسنة التي تعلي شأن هذا الرسول الكريم ﷺ كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون. وجزى الله خيراً الشيخ المصطفى السالك على هذا الجهد العظيم وتقبله وجعله في ميزان حسناته يوم القيامة ونفع به كل من قرأه واهتم به. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

كتبه الفقير إلى عفو ربه/ محمد فاضل ولد الطاهر
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين
المدينة المنورة/ ١٤٣٣/٥/٣هـ

(١) شرح مشكل الآثار للطحاوي رقم ٣٨٨٤ واللفظ له وهو عند البزار رقم ١٣٤ والبيهقي رقم ٢٠٧٠٠ وصححه أحمد والذهبي.

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على من أرسل رحمة للعالمين سيدنا وحبيبنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اقتفى أثره إلى يوم الدين وبعد:

فإن كتاب جوانب من عظمة نبي الرحمة قد يسر الله تعالى طبعه عام ١٤٣٣ هـ، في مطابع الابتكار بالدمام، وقد تلقاه الناس بقبولٍ حسن بفضل من الله تعالى، فنفدت الطبعة الأولى من الكتاب.

وبما أن الكتاب يتحدث عن شمائله صلى الله عليه وسلم، من عظمة ورحمة وشفقة وكرم وإحسان ... إلخ، فإن الحاجة ما زالت ماسة إلى طبعه من جديد.

وقد رأينا أن تتولى المكتبة الظاهرية بالكويت طباعة الكتاب الطبعة الثانية.

وأشكر هذه المؤسسة، ممثلة في الأستاذ عبد الله بن عفيف الشمري حفظه الله ووفقه، لحرصها على نشر المعارف الإسلامية والسيرة النبوية الشريفة.

وأشكر كل من ساهم وأعان في هذا العمل كتابةً وتوزيعًا وإبداء ملاحظة.

وأسأل سبحانه وتعالى أن يجعل هذا العمل وسيلة لشفاعته صلى الله عليه وسلم، وأن يبارك فيه ويكتب له القبول.

الفقير إلى عفو ربه/ المصطفى السالك الطالب الشنقيطي

الدمام

السبت / ٧ رجب / ١٤٣٩ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على من أرسل رحمة للعالمين سيدنا وحبيبنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اقتفى أثره إلى يوم الدين وبعد :

فإن الحديث عن عظمة النبيﷺ مما تشرئب له الأعناق وتتوق إليه النفوس وتهفو إليه القلوب وتلتهب له العواطف والمشاعر.

إننا نتحدث عن نبي الرحمة ﷺ باعتباره أسوة لنا ﴿ **لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا** ﴿٢١﴾ ﴾[1] ونتكلم عنه باعتباره –وهذا ما يجب له– أحبَّ إلينا من أنفسنا، (**لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**)[2] .

نتحدث عنه لأنه كما يقول الإمام الشافعي رحمه الله: (فلم تمس بنا نعمة ظهرت ولا بطنت نلنا بها حظا في دين ودنيا أو دفع بها عنا مكروه فيهما أو في واحد منهما إلا ومحمد ﷺ سببها القائد إلى خيرها والهادي إلى رشدها الذائد عن الهلكة وموارد السوء في خلاف الرشد المنبه للأسباب التي تورد الهلكة القائل بالنصيحة في الإرشاد والإنذار فصلى الله عليه كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون) [3].

---

(١) الأحزاب: ٢١

(٢) البخاري : رقم ١٥.

(٣) الرسالة للإمام الشافعي ص١٠٨، تحقيق أحمد شاكر.

نتكلم عنه باعتباره أولى بنا من أنفسنا معاشر المؤمنين ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ ﴾(١)

الحديث عن جوانب فقط من هذه العظمة! وسأترك خيالي يسبح في بحر هذه العظمة مستمتعا بدفء عطفه، ومنتعشا بحنان رحمته ﷺ وسأحاول امتثالا لقوله ﷺ (**لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**(٢)) أن أشرك معي غيري في الاستمتاع بهذه الدرر الروحية ولكني قد أستمتع بها ولا أستطيع استخراجها من البحر الزاخر ﴿**لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا**﴾(٣) والحقيقة أنني عندما أردت الكتابة عن هذه الجوانب لم يكن السبب مجرد رد فعل، لقناعتي أن ردود الأفعال مرتبطة بموسم زمني وتفاعل ظرفي وأصحاب الأهداف النبيلة والمبادئ الأصيلة ينبغي أن يستشعروا أن لهم قضية جُلّى ومسؤولية عظمى من اللازم أن يعيشوا من أجلها وفي مقدمة مشروعهم المبارك تعريف البشرية بنبي الرحمة ﷺ كما أنه من الواجب علينا أن نقدم السيرة النبوية بدروسها ودلالاتها وعمقها لجيلنا المعاصر في جو هادئ بعيدٍ عن ردود الأفعال والمد والجزر وأن نربيَ الأبناء على محبة النبي ﷺ في جو هادئ كذلك لا أن نسكت عن بيان سيرته العطرة –بأبي هو وأمي– حتى يسبه نكرة قَصَدَ من ذلك شهرة افتقدها أو مكانة في السلم الإجرامي عدمها فنساعد من حيث لا نشعر على إعطائه هذه الفرصة التي لم يستطع الحصول عليها من خلال شرب الخمور، والشذوذ الجنسي وجميع الانحرافات ثم

(١) الأحزاب: ٦

(٢) البخاري رقم (١٣) واللفظ له ، ومسلم رقم (٤٥) .

(٣) البقرة: ٢٨٦ .

أطمئن إخوتي الكرام مخبرا إياهم بأنه ليس عندنا ما نخاف عليه لأن قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ ضمانة إلهية قدرية تكفل الله بها ولهذا كما يقول شاعر نبي الرحمة حسان بن ثابت رضي الله عنه:

فمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواءُ[1]

وهذا الإعلان الإلهي ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ ﴾ أمر حكم الله به ولا رادَّ لما قضى فنحن نفدي رسول الله ﷺ بأنفسنا وأهلنا، كما قال شاعر نبي الرحمة ﷺ حسان بن ثابت رضي الله عنه:

فإن أبي ووالده وعرضي لعرض محمد منكم وقاءُ

وإذا كان الرسول ﷺ لم يرض لعليٍّ رضي الله عنه أن يجمع مع فاطمة رضي الله عنها بنتَ أبي جهل وعلّل ذلك بقوله: (**وَاللَّهِ لاَ تَجْتَمِعُ بِنْتُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَبِنْتُ عَدُوِّ اللهِ أَبَدًا**[2]) فنحن كذلك لا نرضى أن يجمع بينه ﷺ وبين هؤلاء النكرات السفلة في حديث!! قياسا على عدم جمع بنت رسول الله مع بنت عدو الله في عصمة، إنني كما أسلفت سأترك لخيالي الحرية ليسبح في بحر هذه العظمة التي حاز صاحبها ذروة الكمال البشري!..

إنها **عظمة** في جميع الميادين وكافة الأصعدة وإن كنا عاجزين عن الإحاطة بها.

إنها **عظمة** في حسم القرار ((**إِنَّهُ لَيْسَ لِنَبِيٍّ إِذَا لَبِسَ لأَمَتَهُ أَنْ يَضَعَهَا حَتَّى يُقَاتِلَ**[3])).

---

(١) ديوان حسان بن ثابت ضبط وشرح عبد الرحمن البرقوقي صـ٤١.(وكل ما ورد لحسان رضي الله عنه في هذا البحث فهو من هذا الديوان وهذا يعفينا من التكرار في كل مناسبة).

(٢) البخاري رقم٣١١٠ واللفظ له ومسلم رقم ٦٤٦٢.

(٣) رواه أحمد رقم ١٤٨٤٧ واللفظ له والنسائي والحاكم بألفاظ متقاربة وابن إسحاق وذكره البخاري في الاعتصام (نقلا عن الرحيق المختوم صـ٢٦٧).

عظمة في الشجاعة عندما يلتهب أُوار الحرب فكأنك تراه رأي العين في موقعه يدعو الفارين إلى الرجوع ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ﴾[1] وفي حنين عندما انهزم الجيش وكان لا يلوي أحد على أحد من شدة القتال عندئذ كما يقول ابن هشام في سيرته: (ثبت النبي ﷺ وهو يقول: (**هَلُمّوا إلَيّ، أَنَا رَسُولُ اللّهِ أَنَا مُحَمّدُ بْنُ عَبْدِ اللّهِ**)[2] ولم يبق معه إلا قليل وظهرت شجاعته التي لا نظير لها فقد طفق يركز بغلته قِبَلَ الكفار وهو يقول: ((**أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب**))[3].

عظمة في القوة: قال ابن إسحاق (أقبل أبيُّ بن خلف يوم أحد وهو يقول أين محمد؟ لا نجوت إن نجا فقال القوم: أيعطف عليه رجل منا؟ فقال رسول الله ﷺ : **دعوه** فلما دنا منه تناول رسول الله ﷺ من الحارث بن الصمة الحربة فلما أخذها منه انتفض انتفاضة تطايروا عنه تطاير الشُّعْرِ[4] -بضم الشين وسكون العين- عن ظهر البعير إذا انتفض فطعنه في ترقوته طعنة تدأدأ (تدحرج من فرسه مرارا) وقد مات من آثار تلك الطعنة في طريق الكفار إلى مكة [5].

(١) آل عمران: ١٥٣.

(٢) سيرة ابن هشام الجزء الثاني – ص٤٤٢.

(٣) السيرة النبوية لابن كثير – الجزء الثالث – ص٦٢٢

(٤) قال في اللسان (هو: ذباب أحمر أو أزرق يلسع الإبل في مراق الضلوع ونحوها كالبطن والإبطين ويؤذيها أذى شديدا) لسان العرب جـ ٤ صـ٤١٠

(٥) سيرة ابن هشام – الجزء الثاني – ص٨٣

عظمة في الرأفة والشفقة: ((**إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلاَ نَقُولُ إِلاَّ ما يَرْضَى رَبُّنَا وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ.**))[١].

قالت عائشة رضي الله عنها: (**قَبَّلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ عُثْمَانَ بْنَ مَظْعُونٍ وَهُوَ مَيِّتٌ، فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى دُمُوعِهِ تَسِيلُ عَلَى خَدَّيْهِ.**)[٢] .

عظمة في الوفاء لأصحاب السبق إلى الإسلام والتضحية في سبيله يقول عن الصديق: ((**هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُو لِي صَاحِبِي هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُو لِي صَاحِبِي إِنِّي قُلْتُ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا فَقُلْتُمْ كَذَبْتَ وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ صَدَقْتَ**))[٣] وعندما خاف الأنصار من بقاء الرسول ﷺ في مكة بعد الفتح قال: ((**هَاجَرْتُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَيْكُمْ وَالْمَحْيَا مَحْيَاكُمْ وَالْمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ** [٤])).

عظمة في الوفاء الاجتماعي يعطي المرأة الهدية ويفرح بها ويقول: ((**إِنَّهَا كَانَتْ تَأْتِينَا زَمَنَ خَدِيجَةَ ، وَإِنَّ حُسْنَ الْعَهْدِ مِنَ الإِيمَانِ**))[٥]، والشيماء تؤخذ ضمن سبايا هوازن ثم تقول: (إنني أخت نبيكم) -تعني من الرضاعة- وعندما عرفها أكرمها غاية الإكرام وخيرها في أن تبقى معه معززة مكرمة أو تذهب إلى أهلها فاختارت الذهاب فأكرم وفادتها وأرسلها إلى ذويها على ما نالت من خير[٦].

---

(١) صحيح البخاري رقم ١٣٠٣.

(٢) رواه ابن ماجة رقم ١٤٥٦.

(٣) صحيح البخاري رقم (٤٦٤٠).

(٤) مسلم رقم (٤٧٢٢).

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك رقم ٤٠.

(٦) سيرة ابن هشام - الجزء الثاني - ص ٤٥٧.

عظمة في صهر الأجناس المختلفة في بوتقة الإسلام ودفاعه عنها في كل مناسبة حتى يعوضها ما فقدته من فراق عشيرة أو بعد وطن (**سَلْمَانُ مِنَّا آلَ البَيْتِ**)[١]، (**مَنْ عَادَى عَمَّارًا ، عَادَاهُ اللَّهُ ، وَمَنْ أَبْغَضَ عَمَّارًا أَبْغَضَهُ اللَّهُ**)[٢]، (**صبرا يا آل ياسر فإن موعدكم الجنة**)[٣] وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال:(فرض عمر لأسامة بن زيد أكثر مما فرض لي فكلمته في ذلك فقال إنه كان أحب إلى رسول الله منك وإن أباه كان أحب إلى رسول الله من أبيك)[٤] ويقول ﷺ لمن عير بلالا مدافعا عنه: (**إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ.**)[٥].

عظمة في فن التعامل مع نفسيات الناس (**مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ**)[٦] .

عظمة في سمو الخطاب وبعده عن التصريح المباشر قالت عائشة رضي الله عنها: (كان النبي ﷺ إذا بلغه عن الرجل شيء يقول ما بال أقوام يقولون كذا)[٧].

عظمة في نفوس الأصحاب حتى إن كل واحد منهم يظن أنه لا يزاحمه أحد في محبته على النبي ﷺ وقد حاول عمرو بن العاص أن يستغل هذه الطبيعة الأخلاقية النبوية في استصدار مرسوم نبوي يحصلُ من خلاله على وسام شرف خاص يبرهن على ما يعتقده

(١) أخرجه الحاكم برقم (٦٥٣٩).

(٢) رواه أحمد برقم (١٦٩٣٨).

(٣) المستدرك ٥٦٦٦ والطبراني في الكبير٢٠٢٢٥ والبيهقي في الشعب١٦١٣.

(٤) رواه أبو يعلى في المسند برقم (١٦٢).

(٥) رواه البخاري رقم ٢٢ واللفظ له ومسلم برقم ٤٤٠٣.

(٦) رواه مسلم من حديث طويل برقم (٣٧٢٢) واللفظ له ، وأبو داوود برقم (٣٠٢١) .

(٧) أبو داوود رقم ٤١٥٦

(فقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْكَ قَالَ عَائِشَةُ قَالَ مِنَ الرِّجَالِ قَالَ أَبُوهَا) ثم سكت[1] ويعللون سكوته بأنه خاف من أن تمتد القائمة المحببة على النبي ﷺ دونه.

هذه العظمة لا يمكن حصرها..

وقد اقتصرت على (جوانب) كما أسلفت لقناعتي أن مظاهر العظمة متعددة ومجالات الرحمة متنوعة ومن المستحيل حصرها ولكنها جوانب مشرقة في فضاء العظمة، من وحي سيرته ومسيرته ولم أتحدث في هذا البحث عن تاريخ ميلاده أو بعثته أو هجرته ... إلخ لأن الساحة مليئة بكتب السيرة النبوية السردية فلا داعي للتكرار.

(١) رواه الترمذي برقم (٣٨٨٦).

(سبب التأليف)

إن كل مشروع ينبع من فكرة، ثم إن كل فكرة لها بداية وأرى من المناسب أن أذكر بداية فكرة هذا البحث فقد كانت بدايته مجموعة خواطر منها:

-خاطرة حول الإنسان بين الأصدقاء والأعداء إذ لاحظت حرص كل طرف على تمسكه بمبدئه ومنهجه الذي يؤمن به ويدعو إليه. ولتوضيح ذلك:

(١): تجد الأخيار من البشرية بقيادة الرسل وأتباعهم وعلى وجه الخصوص إمام البشرية ﷺ يصور القرآن الكريم حرصه العجيب على هداية الإنسانية حرص دافعه الرحمة والشفقة قال تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ٦ ﴾[١]، وقال: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣ ﴾[٢].

(٢): وسيكون ﷺ شفيعا للبشرية الشفاعة الكبرى في الفصل بين الناس يوم القيامة وله شفاعة أخرى خاصة بالمؤمنين قال ﷺ: (**يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنَ النَّارِ بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُسَمَّوْنَ الْجَهَنَّمِيِّينَ**)[٣]. وقال ﷺ: (**أَشْفَعُ لأُمَّتِي حَتَّى يِنَادِيَنِي رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَيَقُولُ: أَرَضِيتَ يَا مُحَمَّدُ، فَأَقُولُ: رَبِّ رَضِيتُ**)[٤] وبعض المؤمنين من

(١) الكهف: ٦

(٢) الشعراء: ٣

(٣) البخاري (رقم ٦٥٦٦) .

(٤) الأوسط للطبراني رقم ٢١٣٩ والبزار رقم ٦٣٨ واللفظ له.

أمته يشفعون لبعض المذنبين من المسلمين وأخبر ﷺ بأن الشهيد (**يشفع في سبعين من أهل بيته**)[1] وأطفال المؤمنين الذين ماتوا وهم صغار يشفعون أيضا[2].

(٣):يقابل هؤلاء الأخيار بعض المتهورين الأشرار أعداء البشرية والدين: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾[3]

(٤):مواقف بعض هؤلاء من بعضهم البعض: ﴿ إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ﴿١٦٦﴾ ﴾[4] والنتيجة النهائية ﴿ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾[5] نسأل الله السلامة والعافية.

﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۡۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ

(١) ابن حبان رقم ٤٦٤٧ .

(٢) رواه مسلم في صحيحه رقم ٦٨٧٠.

(٣) العنكبوت: ١٢ – ١٣

(٤) البقرة : ١٦٦.

(٥) البقرة: ١٦٧.

ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ﴾[1] والمصير النهائي: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ ﴾[2] .

(٥) عدو الإنسان الحقيقي من غير جنسه يحرضه بكل وسيلة على ارتكاب المغامرات ثم يتخلى عنه في أحلك الظروف وأصعب المواقف: ﴿ وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَٰٓءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٤٨ ﴾[3]

هذا موقف إبليس من حلفائه ومؤيديه في الدنيا.

(٦) وهذا العدو يتخلى عن الاتباع يوم القيامة مبينا أسباب التنكر لـ(جميلهم) السابق!!

موضحا لهم أن ربهم الذي خلقهم ورزقهم وعدهم وعد الحق وسيوفي لهم ما وعدهم به وأنه هو وعدهم وعد الباطل وعدم تصريحه لهم بما وعدهم يسميه البلاغيون ((الاحتباك)) ثم بين لهم أن جاذبية استعدادهم وسرعة انقيادهم هي التي جعلتهم يقفون هذا الموقف محملا إياهم المسؤولية: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا

(١) سبأ: ٣١-٣٣.

(٢) سبأ: ٣٣

(٣) الأنفال: ٤٨

تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٢﴾﴾[1]

(٧): صديق الإنسان من غير جنسه يقف معه في الدنيا ويؤازره: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾[2]

(٨): صديق المؤمن من غير جنسه يطمئنه بأمر ربه بعد رحيله عن هذه الدنيا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ﴿٣٢﴾﴾[3]

---

(١) إبراهيم: ٢٢

(٢) غافر: ٧ – ٩.

(٣) فصلت: ٣٠-٣٢

ولا يفوتنا أن عدو الأشرار من غير جنسهم يكون مصاحبا لهم في جهنم كما تقدم في قوله تعالى حكاية عن إبليس: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾..الآية.

ذكر المفسرون أن الشيطان ينصب له منبر في جهنم ليلقي من عليه هذه الخطبة البليغة.

كما أن صديق الأخيار من غير جنسهم يكون مصاحبا لهم في دار الكرامة.. ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ ﴾.

ولاحظ معي –وفقك الله– أن العدوَّ بعد هذا التحقيق المرير كله يختم هذا المشهد ويسدل الستار عليه بهذا الانهيار السريع والتبكيت المقذع: ﴿ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾.

بينما صديق الأخيار من غير جنسهم يثمن لهم تضحياتهم في الدنيا وصبرهم على الطاعة وعن المعصية ويبارك لهم نعيمهم المقيم..﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾.

وهذه الأصناف الثمانية يجمعها قوله تعالى: ﴿ فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ ﴾[1] وقد لاحظتُ تباين مواقف الفريق الثاني ما بين معترف بالمسؤولية ﴿ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ ﴾[2] وما بين متنصل منها ﴿ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي

(١) الشورى : ٧

(٢) الملك : ١١

ضَلَٰلِۢ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾﴾[1] و بين طرف ثالث يحاول التنصل لكن بعض أجزائه الحساسة تعترف اعترافا لاإراديا: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾[2] فجمعت الآيات التي تتعلق بهذا الموضوع وبدأت بدراستها واخترت لها عنوان: (**المواقف الصعبة المصيرية بين الاعتراف والتنصل من المسؤولية**) وكمدخل للموضوع بدأت أتكلم عن هداية النبي ﷺ للناس ورحمته التي جُبِلَ عليها لكنني كلما كتبت جزئية فإذا القلم يجذبني إلى جزئية أخرى تتعلق به ﷺ فعرفت أن الحديث عنه وعن مكانته لا يمكن أن يكون مقدمة لبحث بل لا بد أن يكون الحديث عن عظمته ﷺ بشكل مستفيض يتناسب مع مكانته العالية ورتبته السامية -بأبي هو وأمي ﷺ- فقررت أن أجمع هذه الخواطر التي تتعلق بجوانب من عظمة نبي الرحمة ﷺ.

وأجَّلت كتابة البحث السابق (المواقف الصعبة المصيرية..) حتى أنتهي من كتابة هذه الجوانب وأعود إليه إن كان في العمر بقية وأعرف أن كثيرا من فطاحلة العلماء قد كتبوا عن هذه العظمة كالإمام الترمذي في الشمائل والقاضي عياض في الشفاء وابن كثير في الشمائل...إلخ. وكتب عنها كثير من العلماء والكتاب المعاصرين ولكني كما يقول محمد بن مُحَمْدِ:

أهدى إليه قديما من بدائعه ... كعبٌ وحسانُ والهمزي ما كثرا
أسدوا به وأناروا ثم ما بلغوا ... كلا لعمرك من معشاره العشرا

(١) ق: ٢٧

(٢) فصلت: ٢١

لكـن أتـوا فيـه بالقـدر الـذي اقتـدروا قبلـي فهلهلـت أقفـو مـنهم الأثـرا

وأنا بدوري –وعلى قلة بضاعتي– أقفو أثر هؤلاء الأعلام في الحديث عن نبي الرحمة ﷺ طلبا لرضى الله سبحانه وأملا في شفاعته ﷺ وقد حاولت من خلال عرض هذا الموضوع المحبب على النفوس أن أقدم للقارئ الكريم ما أترك له الحكم عليه لأنه شاهد غير متهم.

أما طريقتي في البحث فإني اخترت بعض الآيات التي تتعلق بمكانة النبي ﷺ ورحمته وهدايته، ناقلا ما وقع عليه اختياري من أقوال المفسرين ولم أر ضرورة للإحالة على الجزء والصفحة عند ذكر أقوال المفسرين في كل آية لأن القارئ يكفيه الرجوع والبحث في نفس الآية لكل مفسر أراد أن يطلع على ما قاله من مصدره الذي أخذت منه تفسير تلك الآية كما أنني نظرت في مراجع السيرة النبوية المعتبرة في المكتبة الإسلامية فأثبت منها ما رأيته مناسبا وقد وقفت عند بعض النصوص لأستنطقها وأبحث في دلالاتها وإيحاءاتها وقد تتوارد بعض الخواطر مجتمعة حول جملة معينة فأطلق العنان للفكر علَّه يقتنص صيدا ثمينا، سائلا المولى سبحانه وتعالى سلامة القصد وسداد الفكر وموافقة الصواب وقد تكون هذه الخواطر هي نكهة البحث الخاصة وميزته البارزة وبصمته المميزة.

ولم أركز –غالباً– أثناء حديثي عن عظمة السراج المنير ﷺ على ما يتعلق بالمعجزات كشق القمر، والإسراء والمعراج، ونبوع الماء من بين أصابعه الشريفة وغيرها وهي كثيرة، إذ الهدف عندي إبراز جوانب العظمة والتي يتسنى للأتباع أن يقتدوا ويتأسوا به فيها كقصة سراقة بن مالك: (**كيف بك يا سراقة**)، وضربه ﷺ الكدية بمعول أثناء معركة الخندق حيث قال: (**الله أكبر فتحت الشام**..إلخ) إذ هما مثالان للتفاؤل وزرع الأمل في نفوس الأفراد أثناء الأزمات والمحن.

وأثناء حديثنا عن هذه العظمة قد تتكرر لفظة (نبي الرحمة) استنادا إلى قوله ﷺ: (**أَنَا مُحَمَّدٌ وَأَحْمَدُ وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ ﷺ**) (١).

وبناءً على ذلك فإن هذه الرحمة لا تصادم حقاً من حقوق الله تعالى، كلاّ! فالله سبحانه وتعالى هو الرحيم الودود، كيف؟ وقد رأى الصحابة امرأة من السبي في إحدى الغزوات وقد ألصقت ابنها بصدرها وهي ترضعه من شدة حبها له وأثناء هذا المشهد قَالَ رَسُول الله ﷺ: ((**أَتَرَوْنَ هذِهِ طَارِحَةً وَلَدَها في النَّارِ؟**)) قال الصحابة: لاَ وَاللهِ فَقَالَ: ((**للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هذِهِ بِوَلَدِهَا**)) (٢).

وإنما نذكر ما جَبَلَهُ الله عليه من هذه الرحمة: ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ** ﴾ (٣) بالإضافة إلى أن البحث يتعلق فقط بنبي الرحمة ولكل مقام مقال..

ثم إني حاولت قدر الاستطاعة أن أعزو كل حديث أو خبر أو مسألة إلى المصدر الذي أخذته منه وغالبا أذكر رقم الحديث أو رقم الجزء والصفحة وبما أن موضوع الكتاب من صميم السيرة النبوية فإنه يسعني ما وسع أهل هذا الفن الذين أخذوا من مراجعه المعتبرة كسيرة ابن هشام وسيرة ابن كثير.. إلخ وقد تختلف بعض الآراء في هذا الخبر أو ذاك لكنني اجتهدت في ما نقلته وإن كنت أعلم أن رضى الناس غاية لا تدرك كما يقول العلامة محمد مولود الشنقيطي:

وأن في رعـــي القلـــوب تعبـــا إن تـرض بعضـا فـرَّ بعـض غضـبا

(١) رواه مسلم رقم (٢٣٥٥)

(٢) رواه البخاري رقم (٥٩٩٩) واللفظ له ، ومسلم رقم (٢٢) .

(٣) آل عمران: ١٥٩

وقد يجد القارئ تركيزا بارزا على نصوص لشعراء مخصوصين وذلك له أسباب منها: أنني قصدت أن يكون البحث محل إجماع عند السواد الأعظم من أمة الإسلام والنصوص التي ذكرتها أظنها محل إجماع عند القراء الكرام، بالإضافة إلى أنها نصوص يندر وجودها وقد أختار من القصيدة الطويلة أبياتاً قليلةً لاعتبارات فنية وعلمية وقد تكون هذه القصيدة أو تلك في مخطوط أو تكون في كتاب نادر يصعب على القارئ الكريم الحصول عليه.

هذا، وقد جعلت البحث مشتملا على مقدمة وخمسة فصول وخاتمة أما المقدمة فقد اشتملت على الأسباب التي دعتني إلى الكتابة عن هذا الموضوع والفصل الأول تحدثت فيه عن مكانته ﷺ من خلال القرآن الكريم ونماذج منها على ألسنة الشعراء والفصل الثاني تحدثت فيه عن رحمته بالمؤمنين والفصل الثالث تحدثت فيه عن رحمته بالإنسانية والفصل الرابع تحدثت فيه عن بعض الدروس والعبر من بعض مواقفه الشريفة والفصل الخامس تحدثت فيه عن قمة التضحية والفداء من الأصحاب كأثر من آثار العظمة والمحبة ، والخاتمة لخصت فيها بعض النتائج التي توصلت إليها.

علما أن أي حديث عن الرحمة أو الشفقة أو الكرم أو العفو –وما أكثر هذه الأخلاق– إنما هي ترجمة لهذه العظمة.

للتواصل أو الحصول على الكتاب . .

بريد المؤلف الإلكتروني

(M٠٥٠٣١٥٩٦٤٢@gmail.com)

أو الجوال: (٠٠٩٦٦٥٠٣١٥٩٦٤٢).

الفصل الأول
نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم..
ومكانته العظمى في القرآن الكريم..

توطئـــــة

لا يمكن لمثلي أن يرقَى إلى المستوى الذي يمكنه من إبراز مكانة أعظم مخلوق ومنزلة أفضل رسول على حقيقتها ولا يمتلك من الوسائل ما يجعله مؤهلا لأن يكتب ما يناسب مكانته العالية ومنزلته السامية، ومع ذلك فقد رأيت أن أسجّل بعض الخواطر عن هذه العظمة المذهلة والمكانة المدهشة بعد أن نأخذ الخطوط العريضة والأسس العامة لهذه العظمة من القرآن الكريم، والطريقة المتبعة أن نأتي بالآية أولا ثم أنقل ما وقع عليه اختياري من أقوال المفسرين ويهمني بالدرجة الأولى ما يخدم الفكرة التي سُقت الآية من أجلها وهذا ما سيجعلني أرجع إلى كثير من التفاسير لأجد ضالتي علَّ هذه الدراسة أن تبرز بعض الجوانب من عظمة نبي الرحمة ﷺ من خلال التحليل الموضوعي والمقارنة الهادفة. وهي قبسات من وحي سيرته ومسيرته تنير الدرب لجيلنا المعاصر الذي يواجه هجمة شرسة على نبيه الكريم وشفيعه العظيم هجمة من الأعداء المغرضين أعداء الإنسانية والدين محاولين قلب الحقائق وتنكيس المفاهيم وإنكار المسلمات ومن الغريب والعجيب في نفس الوقت كدليل على توجه هؤلاء الحاقدين أنني كنت في مكتبة الحرم النبوي الشريف بين المغرب والعشاء أقرأ قصة عفو النبي ﷺ عن صفوان ابن أمية ومحل الشاهد من القصة أن الرسول ﷺ أعطى عمير بن وهب عمامته ﷺ كآية وبرهان على الأمان لصفوان بن أمية وبعد العشاء من نفس الليلة فإذا القنوات الفضائية تظهر صوراً مسيئة لنبي الرحمة ﷺ ومن بين هذه الصور المسيئة تصويرهم حسب زعمهم –قاتلهم الله– أن عمامته بأبي هو وأمي ﷺ محاطةٌ ببعض المتفجرات فتعجبت من جراءة هؤلاء على الكذب وتزوير الحقائق إذ عمامته ﷺ رمز للسلام والرحمة والعفو، العفو الذي شمل

الفارين من العدالة أصحاب الملفات الساخنة والخطيرة كما سيأتي تفصيله في الفصل الرابع وقصة صفوان ستأتي بطولها في نفس الفصل.

وفي بداية هذا الفصل المبارك لا ينبغي أن تكون بداية الحديث عن نبي الرحمة ﷺ كما أسلفنا إلا من خلال القرآن الكريم إذ لا يمكن أن يبرز هذه العظمة على حقيقتها غير كلام الله تعالى ولذا نقول: إن نبينا الكريم ورسولنا العظيم قد أعلى الله منزلته فزكاه خلقا وخلقا ظاهرا وباطنا:

١ــ زكى عقله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾ (١)

٢ــ زكى فؤاده: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ (٢)

٣ــ زكى بصره: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ (٣)

٤ــ زكاه من الضلال والغي: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾﴾ (٤)

٥ــ زكى لسانه ومنهجه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ (٥)

٦ــ زكى هدايته لأمته: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ (٦)

٧ــ زكى خلقه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ (٧)

---

(١) التكوير: ٢٢

(٢) النجم : ١١

(٣) النجم: ١٧

(٤) النجم: ٢

(٥) النجم: ٢-٣

(٦) الشورى: ٥٢

(٧) القلم: ٤

٨ــ شرح صدره: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ (١)

٩ــ أقسم الله بعمره: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٢﴾ (٢)

١٠ــ حقق الله له ما يرضاه ويحبه بمجرد تقلبه لوجهه الشريف: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ (٣)

١١-جعل طاعته ﷺ طاعته جل جلاله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾

١٢ــ زكى أمته: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (٤)

هذا النبي ﷺ القدوة والقائد الأسوة قد خصه الله بخصائص لا تحصى ومزايا لا تستقصى وحديث القرءان الكريم عن النبي ﷺ كثير ومتنوع ولا يمكن حصره فقد خصه الله بعموم الرسالة للناس جميعا قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾(٥) بينما إخوانه من الرسل والأنبياء يرسل كل واحد منهم إلى قومه خاصة قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾(٦)، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾(٧)، ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾(٨) إلخ، بينما رسالته ﷺ قد شملت الإنس والجن أما دليل

(١) الشرح : ١

(٢) الحجر: ٧٢

(٣) البقرة : ١٤٤

(٤) آل عمران: ١١٠

(٥) الأعراف: ١٥٨

(٦) الأعراف: ٦٥

(٧) الأعراف: ٧٣

(٨) الأعراف: ٨٥

رسالته إلى الجن فقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ (١) وبعد سماعهم القرءان الكريم من النبي ﷺ رجعوا إلى قومهم دعاة يحثونهم على إجابة داعي الله ﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ (٢) وأما دليل شمول رسالته للعالمين فقوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ (٣) ومعلوم أن العالمين جمع عالم كعالم الإنس وعالم الجن إلخ. فالله سبحانه وتعالى رب العالمين ورسوله ﷺ جعله للعالمين نذيرا ومما يبرهن على علو مكانته وسمو منزلته أيضا أخذ الميثاق على مَن سبقه من الرسل عليهم السلام بتصديقه: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ (٤) ومما يدل على سمو مكانته وعلو منزلته تقديمه ﷺ على الأنبياء في الذكر قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا

(١) الأحقاف: ٢٩ - ٣٠

(٢) الأحقاف : ٣١

(٣) الفرقان: ١

(٤) آل عمران : ٨١ - ٨٢

غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ﴾[1] فأنت تلاحظ أن الأنبياء ذكروا إجمالا ولما بدأ التفصيل فإذا نبي الرحمة ﷺ يتصدر قائمة أولى العزم من الرسل التي شملت أبا البشرية الثاني وأبا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. إذا كان هذا مقامه بين الأنبياء الذين سبقوه فإنه ستظهر مكانته السامية يوم القيامة فقد خصه الله سبحانه وتعالى بخصائص لا تحصى منها على سبيل المثال الشفاعة الكبرى...ومنها الكوثر قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ ﴾[2] ومنها المقام المحمود قال تعالى: ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾[3] ومنها أنه سيعطيه ربه ويرضيه يوم القيامة ل تعالى: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ ﴾[4].

وقد روي أنه ﷺ قال عندما نزلت هذه الآية: (**إذاً لا أرضى وواحد من أمتي في النار**)[5].

ومنها أنه قد خصه الله سبحانه وتعالى دون سائر الأنبياء والرسل بأنه لا يناديه باسمه مجرداً وإنما يناديه بصفة النبوة والرسالة كقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾[6] وكقوله تعالى: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ

(١) الأحزاب : ٧ – ٨

(٢) الكوثر : ١

(٣) الإسراء: ٧٩

(٤) الضحى: ٥

(٥)شعب الإيمان للبيهقي رقم ١٤٤٥.

(٦) الأحزاب : ٤٥

﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ﴾[1] هذه نماذج عامة تدل على فضله وشرفه ونقف مع نماذج أخرى تتحدث عن هذه العظمة بشكل تفصيلي وسأقتصر على عشر آيات:-

الآية الأولى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾[2]

قال القشيري: أَمرَهم بحفظ حرمته ومراعاةِ الأدب في خدمته وصحبته، وأَلاَّ ينظروا إليه بالعين التي ينظرون بها إلى أمثالهم. وأنه إذا كان بخُلُقِهِ يُلاينُهم فينبغي ألا يتبسَّطوا معه مجاسرين، ولا يكونوا مع ما يعاشرهم به مِنْ تَخَلُّقِه عن حدودِهم زائدين.

وقال الألوسي: إن هذه الآية شروع في النهي عن التجاوز في كيفية القول عند النبي ﷺ بعد النهي عن التجاوز في نفس القول والفعل، وإعادةُ النداء مع قرب العهد به للمبالغة في الايقاظ والتنبيه والإشعار باستقلال كل من الكلامين باستدعاء الاعتناء بشأنه أي لا تبلغوا بأصواتكم وراء حد سيبلغه عليه الصلاة والسلام بصوته.

{ولا تجهروا له بالقول} أي جهراً كائناً كالجهر الجاري فيما بينكم، فالأول نهى عن رفع الصوت فوق صوته ﷺ وهذا نهى عن مساواة جهرهم لجهره عليه الصلاة والسلام فإنه المعتاد في مخاطبة الأقران والنظراء بعضهم لبعض، ويفهم من ذلك وجوب الغض حتى تكون أصواتهم دون صوته ﷺ، وقيل: الأول مخصوص بمكالمته ﷺ لهم وهذا بصمته عليه الصلاة والسلام كأنه قيل: لا ترفعوا أصواتكم فوق صوته إذا نطق ونطقتم ولا تجهروا له بالقول إذا سكت وتكلمتم، ويفهم أيضاً وجوب كون أصواتهم دون صوته عليه الصلاة والسلام، فأياً

(١) المائدة: ٤١

(٢) الحجرات : ٢

ما كان يكون المآل اجعلوا أصواتكم أخفض من صوته ﷺ وتعهدوا في مخاطبته اللين القريب من الهمس كما هو الدأب عند مخاطبة المهيب المعظم وحافظوا على مراعاة أبهة النبوة وجلالة مقدارها، ومن هنا قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه بعد نزول الآية كما أخرج عبد بن حميد والحاكم وصححه: **(والَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ يَا رَسُولَ اللهِ لَا أُكَلِّمُكَ إِلاَّ كَأَخِي السِّرَارِ حَتَّى أَلْقَى اللهَ تَعَالَى)**[1].

وفي رواية أنه قال: يا رسول الله والله لا أكلمك إلا السرار أو أخا السرار حتى ألقى الله تعالى، وكان إذا قدم على رسول الله عليه الصلاة والسلام الوفود أرسل إليهم من يعلمهم كيف يسلمون ويأمرهم بالسكينة والوقار عند رسول الله ﷺ، وكان عمر رضي الله عنه كما في صحيح البخاري وغيره عن ابن الزبير إذا تكلم عند النبي ﷺ لم يسمع كلامه حتى يستفهمه[2]، وقيل: معنى {ولا تجهروا له بالقول} إلخ ولا تخاطبوه باسمه وكنيته كما يخاطب بعضكم بعضاً وخاطبوه بالنبوة والرسالة.

{أَن تَحْبَطَ أعمالكم} تعليل لما قبله من النهيين على طريق التنازع بتقدير مضاف أي كراهة أن تحبط أعمالكم، والمعنى إني أنهاكم عما ذكر لكراهة حبوط أعمالكم بارتكابه أو تعليل للمنهى عنه، وهو الرفع والجهر بتقدير اللام أي لأن تحبط، والمعنى فعلكم ما ذكر لأجل الحبوط منهى عنه، ولام التعليل المقدرة مستعارة للعاقبة التي يؤدي إليها الفعل لأن الرفع والجهر ليس لأجل الحبوط لكنهما يؤديان إليه على ما تعلمه إن شاء الله تعالى، وفَرَّقَ بينهما بما حاصله أن الفعل المنهي معلل في الأول والفعل المعلل منهى في الثاني وأيهما كان فمرجع المعنى إلى أن الرفع والجهر كليهما منصوص الأداء إلى حبوط العمل.

---

(١) المستدرك للحاكم رقم ٣٧٢٠.

(٢) البخاري رقم ٤٨٤٥.

ثم يقول: والمراد في الآية النهي عن رفع الصوت على الإطلاق ، ومعلوم أن حكم النهي الحذر مما يتوقع في ذلك من إيذاء النبي ﷺ، والقاعدة المختارة أن إيذاءه عليه الصلاة والسلام يبلغ مبلغ الكفر المحبط للعمل باتفاق فورد النهي عما هو مظنة لأذى النبي ﷺ سواء وجد هذا المعنى أو لا حماية للذريعة وحسماً للمادة، ثم لما كان هذا المنهي عنه منقسماً إلى ما يبلغ مبلغ الكفر وهو المؤذي له عليه الصلاة والسلام وإلى ما لا يبلغ ذلك المبلغ ولا دليل يميز أحد القسمين عن الآخر لزم المكلف أن يكف عن ذلك مطلقاً خوف أن يقع فيما هو محبط للعمل وهو البالغ حد الأذى إذ لا دليل ظاهراً يميز، وإن كان فلا يتفق تمييزه في كثير من الأحيان ، وإلى التباس أحد القسمين بالآخر وقعت الإشارة بقوله سبحانه: {أَن تَحْبَطَ أعمالكم وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ}.

وقال ابن عاشور: الافتتاح بنداء المؤمنين للتنبيه على أهمية ما يرد بعد ذلك النداء لتترقبه أسماعهم بشوق . ووَصْفُهم بـ{الذين آمنوا} جار مجرى اللقب لهم مع ما يؤذِن به أصله من أهليتهم لتلقي هذا النهي بالامتثال.

وهذه الآية توطئة للنهي عن رفع الأصوات عند رسول الله ﷺ والجهرِ له بالقول وندائه من وراء الحجرات، لأن من خصه الله بهذه الحظوة، أي جعل إبرام العمل بدون أمره كإبرامه بدون أمر الله حقيق بالتهيب والإجلال أن يخفض الصوت لديه .

وإنما قدم هذا ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ ﴾ على توبيخ الذين نادوا النبي لأن هذا أولى بالاعتناء إذ هو تأديب من هو أولى بالتهذيب .

الآية الثانية: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾[1]

قال ابن الجوزي في سبب نزولها ثلاثة أقوال وكلها تذكر أن أناسا نادوه باسمه فقالوا يا محمد فحكم القرآن الكريم بأن أكثرهم لا يعقلون وإنما العقلاء الذين ينادونه بما ناداه به ربه كما أسلفنا.

قلتُ: وبمناسبة حديث هذه الآية عن مكانة النبي ﷺ فهل هناك مانع من أن نسجل هذه الخواطر والتأملات فأنت تلاحظ معي وكأن الآية تشير إلى القيادة النبوية العليا ومقرها المبارك، (ينادونك) (كاف الخطاب) رمز للقائد الأعلى ﷺ (والحجرات) مقره عليه الصلاة والسلام كما قال تعالى: ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ ﴾[2] ونجد آية أخرى تتحدث عن القائد العظيم وجنده الأخيار: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ﴾[3] كما نجد آية كريمة تتحدث عن الجيش الميمون بفئتيه والآية تحمل بشرى سارة وتزكية خالدة قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾[4] كما أننا نجد الفئتين الكريمتين مجتمعتين مع قائدهما الأعلى في سياق واحد قال تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ

(١) الحجرات: ٤

(٢) الأنفال : ٥

(٣) الفتح: ٢٩

(٤) الأنفال: ٧٤

يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾[1] وهذا الجو الإيماني بمجموعه من القائد ومقره وجنده الميمون هو الذي جعل لطيبة الطيبة المكانة الخاصة فنجد القرآن الكريم يتحدث عن الجهات المحيطة بهذا القائد ﷺ ومقره وجنده.

الجهة الشمالية (أحد) ﴿ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَىٰكُمْ ﴾، الجهة الجنوبية (قباء) ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾[2] الجهة الغربية والشرقية في قوله تعالى: ﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾[3] قال المفسرون أي من جهتي الشرق والغرب، الجهة الفوقية: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾[4] والسماء هنا سماء المدينة.

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾[5] قال القشيري في تفسيره: كما عرَّفَه اللَّهُ سبحانه أخبارَ مَنْ قبْلَه من الأنبياء عرَّفه أنه اجتمعت فيه متفرقاتُ أخلاقهم فقال له: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾.

(١) التوبة: ١١٧

(٢) التوبة: ١٠٨

(٣) الأحزاب: ١٠

(٤) البقرة: ١٤٤

(٥) القلم: ٤

ويقال: {على خلق عظيم}: لا بالبلاءِ تنحرف، ولا بالعطاءِ تنصِرف؛ احتمل صلوات الله عليه في الأذى شَجَّ رأسِه وثَغْرِه، وكان يقول: (**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ**)[1] وغداً كلٌّ يقول: نفسي نفسي، وهو صلوات الله عليه يقول: «**أمتي أمتي**»

ويقال: عَلّمه محاسنَ الأخلاق بقوله: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾[2]

سأل صلواتُ الله عليه جبريل: (**بماذا يأمرني ربي؟**) قال: يأمرك بمحاسن الأخلاق؛ يقول لك: صِلْ مَن قَطَعَكَ وأعْطِ مَنْ حَرَمك واعف عَمَّن ظَلَمَك» فتأدَّبَ بهذا؛ فأثنى عليه وقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾[3]

قال أبو حيان: هذا كالتفسير لما تقدم من قوله: {بنعمة ربك}، وتعريف لمن رماه بالجنون أنه كذب وأخطأ، وأن من كان بتلك الأخلاق المرضية لا يضاف الجنون إليه، ولفظه يدل على الاستعلاء والاستيلاء. انتهى

{وإن لك لأجراً}: أي على ما تحملت من أثقال النبوة ومن أذاهم مما ينسبون إليك مما أنت لا تلتبس به من المعائب، {غير ممنون}: أي غير مقطوع، مننت الحبل: قطعته، و{وإنك لعلى خلق عظيم}: قال ابن عطية وسئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: خلقه القرآن أدبه وأوامره، وقال علي رضي الله عنه: الخلق العظيم أدب القرآن، وعبر ابن عباس عن الخلق بالدين والشرع وذلك لا محالة رأس الخلق ووكيده، أما

(١) البخاري رقم ٣٤٧٧.

(٢) الأعراف: ١٩٩

(٣) القلم: ٤

أن الظاهر من الآية أن الخلق هي التي تضاد مقصد الكفار في قولهم مجنون، أي غير محصل لما يقول، وإنما مدحه تعالى بكرم السجية وبراعة القريحة والملكة الجميلة وجودة الضرائب، ومنه قوله عليه السلام: (**إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ**).[1] وقال الجنيد: سمي خلقه عظيماً، إذ لم تكن له همة سوى الله تعالى، عاشر الخلق بخُلُقه وزايلهم بقلبه، فكان ظاهره مع الخلق وباطنه مع الحق، وفي وصية بعض الحكماء عليك بالخلق مع الخلق وبالصدق مع الحق، وحسن الخلق خير كله.

وقال ﷺ: (**إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَاتِ قَائِمِ اللَّيْلِ صَائِمِ النَّهَارِ**)[2]

وقال: (**مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ**) [3] وقال: (**إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ أَحْسَنَكُمْ أَخْلاَقًا**) [4] والعدل والإحسان والعفو والصلة من الخلق.

وقال الألوسي: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ لا يدرك شأوه أحد من الخلق ولذلك تحتمل من جهتهم ما لا يحتمله أمثالك من أولي العزم فعن سعد بن هشام قال قلت لعائشة رضي الله تعالى عنها يا أم المؤمنين (**أَنْبِئِينِى عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَتْ أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ قُلْتُ بَلَى. قَالَتْ فَإِنَّ خُلُقَ نَبِىِّ اللَّهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ**)[5] وأرادت بذلك على ما قيل إن ما فيه من المكارم كله كان فيه ﷺ وما فيه من الزجر عن سفساف الأخلاق كان منزجراً به عليه الصلاة والسلام لأنه المقصود بالخطاب بالقصد

(١) رواه البيهقي رقم ٢١٣٠١.

(٢) مسند أحمد رقم ٢٥١٠١ واللفظ له والمستدرك للحاكم رقم ١٨٦ وصحيح ابن حبان رقم ٤٨٠.

(٣) مسند أحمد رقم ٢٨٠٦٧ واللفظ له والبيهقي في الشعب رقم ٧٧٧٥ وأبو داوود رقم ٤٧٩٩ .

(٤) البخاري رقم ٣٧٥٩.

(٥) مسلم ١٧٧٣.

الأول: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾[1] وربما يرجع إلى هذا قولها كما في رواية ابن المنذر وغيره عن أبي الدرداء أنه سألها عن خلقه عليه الصلاة والسلام فقالت كان خلقه القرآن يرضى لرضاه ويسخط لسخطه.

وزعم بعضهم أن في الآية رمزاً إلى أن الأخلاق الحسنة مما لا تجامع الجنون وإنه كلما كان الإنسان أحسن أخلاقاً كان أبعد عن الجنون ويلزم من ذلك أن سوء الخلق أقرب إلى الجنون.

وقال الرازي: إن الله تعالى وصف ما يرجع إلى قوته النظرية بأنه عظيم، فقال: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾[2] ووصف ما يرجع إلى قوته العملية بأنه عظيم فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ فلم يبق للإنسان بعد هاتين القوتين شيء، فدل مجموع هاتين الآيتين على أن روحه فيما بين الأرواح البشرية كانت عظيمة عالية الدرجة، كأنها لقوتها وشدة كمالها كانت من جنس أرواح الملائكة.

وقال أيضاً: إنما وصف خلقه بأنه عظيم وذلك لأنه تعالى قال له: ﴿أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[3] وهذا الهدى الذي أمر الله تعالى محمداً بالاقتداء به ليس هو معرفة الله لأن ذلك تقليد وهو غير لائق بالرسول، وليس هو الشرائع لأن شريعته مخالفة لشرائعهم فتعين أن يكون المراد منه أمره عليه الصلاة والسلام بأن يقتدي بكل واحد من الأنبياء المتقدمين فيما اختص به من الخلق الكريم، فكأن كل واحد منهم كان مختصاً بنوع

(١) الفرقان: ٣٢.

(٢) النساء: ١١٣

(٣) الأنعام: ٩٠

واحد، فلما أمر محمد عليه الصلاة والسلام بأن يقتدي بالكل فكأنه أمر بمجموع ما كان متفرقاً فيهم، ولما كان ذلك درجة عالية لم تتيسر لأحد من الأنبياء قبله، لا جرم وصف الله خلقه بأنه عظيم، وفيه دقيقة أخرى وهي قوله: {لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ} وكلمة على للاستعلاء، فدل اللفظ على أنه مستعل على هذه الأخلاق ومستول عليها، وأنه بالنسبة إلى هذه الأخلاق الجميلة كالمَوْلى بالنسبة إلى العبد وكالأمير بالنسبة إلى المأمور.

ذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى أن في الآية ثلاثة أقوال .

أحدها: دين الإسلام ، قاله ابن عباس .

والثاني: أدب القرآن ، قاله الحسن .

والثالث: الطبع الكريم.

وحقيقة «الخلق»: ما يأخذ به الإنسان نفسه من الآداب، فسمي خُلُقاً، لأنه يصير كالخلقة في صاحبه، فأما ما طبع عليه فيسمى: «الخيم» فيكون الخيم: الطبع الغريزي، والخلق: الطبع المتكلَّف.. هذا قول الماوردي.

الآية الرابعة : ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾[1]

قال صاحب زاد المسير "فيها خمسة أقوال:

الأول: أنه عليه الصلاة والسلام سأل جبريل عن هذه الآية فقال: قال الله عز وجل إذا ذُكرتُ ذكرتَ معي" قال قتادة :"فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله".

قلتُ: ويشهد لهذا قول حسان رضي الله عنه:

(١) الشرح: ٤

وضـــم الإلـــه اســـم النـــبي إلى اسمـــه إذا قـــال في الخمـــس المـــؤذن أشـــهد

وقول محمد بن محمدِى الشنقيطي:

وإلى اسمـــه ضـــم اسمـــه شـــرفا لـــه مـــن قبـــل حيعلـــة المنـــادي المســـمعِ

القول الثاني: أي رفعنا لك ذكرك بالنبوة.

الثالث: رفعنا لك ذكرك في الآخرة كما رفعناه لك في الدنيا.

الرابع: عند الملائكة في السماء.

الخامس: (رفعنا لك ذكرك) بأخذ الميثاق على الأنبياء وإلزامهم الإيمانَ بك والإقرار بفضلك.

والأقوال الخمسة لا تَعارُضَ بينها وإنما تعطي بمجموعها توسعا في المعنى وثراء في الدلالة.

وقال القشيري: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ بِذِكْرنا؛ فكما لا تَصِحُّ كلمةُ الشهادة إلا بي، فإنها لا تَصِحُّ إلا بك .

ويقال: رفعنا لك ذكرك بقول الناس: محمد رسول الله!

ويقال: أثبتنا لك شرف الرسالة.

وقال الفخر الرازي: واعلم أنه عام في كل ما ذكروه من النبوة، وشهرته في الأرض والسموات، إلى أن يقول: وأنه يُذكر معه في الشهادة والتشهد، وأنه تعالى ذكره في الكتب المتقدمة، وانتشار ذكره في الآفاق، وأنه ختمت به النبوة، وأنه يذكر في الخطب والأذان ومفاتيح الرسائل، وعند الختم وجعل ذكره في القرآن مقروناً بذكره: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾(١)، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾(١)، ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾(٢)

(١) التوبة: ٦٢

ويناديه باسم الرسول والنبي، حين ينادي غيره بالاسم يا موسى يا عيسى، وأيضاً جعله في القلوب بحيث يستطيبون ذكره وهو معنى قوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ۝٩٦﴾[3] كأنه تعالى يقول: أملأ العالم من أتباعك كلهم يثنون عليك ويصلون عليك ويحفظون سنتك، بل ما من فريضة من فرائض الصلاة إلا ومعها سنة فهم يمتثلون في الفريضة أمري، وفي السنة أمرك وجعلت طاعتك طاعتي وبيعتك بيعتي ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[4]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾[5] لا تأنف السلاطين من اتّباعك، بل جراءة لأجهل الملوك أن ينصب خليفة من غير قبيلتك، فالقراء يحفظون ألفاظ منشورك، والمفسرون يفسرون معاني فرقانك، والوعاظ يبلغون وعظك بل العلماء والسلاطين يصلون إلى خدمتك، ويسلمون من وراء الباب عليك، ويرجون شفاعتك، فشرفك باق إلى يوم القيامة، أهـ.

وقال ابن عاشور: ورفع الذكر: جعل ذكره بين الناس بصفات الكمال، وذلك بما نزل من القرآن ثناء عليه وكرامة. وبإلهام الناس التحدث بما جَبَلَهُ الله عليه من المحامد منذ نشأته.

---

(١) النساء: ١٣

(٢) النور: ٤٥

(٣) مريم: ٩٦

(٤) النساء: ٨٠

(٥) الفتح: ١٠

وعطفُ {ووضعنا} و{رفعنا} بصيغة المضي على فعل {نشرح} بصيغة المضارع لأن (لَم) قلبت زمن الحال إلى المضي فعُطف عليه الفعلان بصيغة المضي لأنهما داخلان في حيز التقرير فلما لم يقترن بهما حرف (لم) صيّر بهما إلى ما تفيده (لم) من معنى المضي.

ثم يقول ورفْع الذكر مجاز في إلهام الناس لأن يذكروه بخير ، وذلك بإيجاد أسباب تلك السمعة حتى يتحدث بها الناس، استعير الرفع لحسن الذكر لأن الرفع جعل الشيء عالياً لا تناله جميع الأيدي ولا تدوسه الأرجل . فقد فطر الله رسوله ﷺ على مكارم يعزّ وجود نوعها ولم يبلغ أحد شأوَ ما بلغه منها حتى لُقب في قومه بالأمين . وقد قيل إن قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾[1] مراد به النبي ﷺ

ومن عظيم رفع ذكره أن اسمه مقترن باسم الله تعالى في كلمة الإسلام وهي كلمة الشهادة.

الآية الخامسة قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾[2] قال الألوسي: وذكر الله عز وجل لتعظيمه صلى الله عليه وسلم ببيان قربه وكونه حبيبه المختص به حتى كان ما يؤذيه يؤذيه سبحانه كما أن من يطيعه يطيع الله تعالى.

(١) التكوير : ١٩-٢١

(٢) الأحزاب: ٥٧-٥٨

وقال صاحب التحرير والتنوير: لما أرشد الله المؤمنين إلى تناهي مراتب حُرمة النبي ﷺ وتكريمه وحذّرهم مما قد يخفى على بعضهم من خفيّ الأذى في جانبه بقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ﴾[1] وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾[2] وعلمهم كيف يعاملونه معاملة التوقير والتكريم بقوله: ﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾[3] وقوله: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾[4] وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾[5] الآية، وعلم أنهم قد امتثلوا أو تعلموا أردف ذلك بوعيد قوم اتسموا بسمات المؤمنين وكان من دأبهم السعي فيما يؤذي الرسول عليه الصلاة والسلام فأعلم الله المؤمنين بأن أولئك ملعونون في الدنيا والآخرة ليعلم المؤمنون أن أولئك ليسوا من الإيمان في شيء وأنهم منافقون لأن مثل هذا الوعيد لا يعهد إلا للكافرين.

فالجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً لأنه يخطر في نفوس كثير ممن يسمع الآيات السابقة أن يتساءلوا عن حال قوم قد علم منهم قلة التحرز من أذى الرسول ﷺ بما لا يليق بتوقيره.

وجيء باسم الموصول (الذين) للدلالة على أنهم عرفوا بأن إيذاء النبي ﷺ من أحوالهم المختصة بهم، ولدلالة الصلة على أن أذى النبي ﷺ هو علة لعنهم وعذابهم .

واللعن: الإبعاد عن الرحمة وتحقير الملعون. فهم في الدنيا محقرون عند المسلمين ومحرومون من لطف الله وعنايته، وهم في الآخرة محقرون بالإهانة في الحشر وفي الدخول في النار.

---

(١) الأحزاب: ٥٣

(٢) الأحزاب: ٥٣

(٣) الأحزاب: ٥٣

(٤) الأحزاب: ٥٣

(٥) الأحزاب: ٥٦

والعذاب المهين: هو عذاب جهنم في الآخرة وهو مهين لأنه عذاب مشوب بتحقير وخزي.

والقرن بين أذى الله ورسوله للإشارة إلى أن أذى الرسول ﷺ يُغضب الله تعالى فكأنه أذى لله وفعل {يؤذون} معدى إلى اسم الله على معنى المجاز المرسل في اجتلاب غضب الله وتعديته إلى الرسول حقيقة. فاستعمل {يؤذون} في معنييه المجازي والحقيقي.

ومعنى هذا قول النبي ﷺ: **(وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى اللهَ، وَمَنْ آذَى اللهَ يُوشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ)**[1] وأذى الرسول عليه الصلاة والسلام يحصل بالإنكار عليه فيما يفعله، وبالكيد له، وبأذى أهله مثل المتكلمين في الإفك، والطاعنين أعماله، كالطعن في إمارة زيد وابنه أسامة رضي الله عنهما ، والطعن في أخذه صفية لنفسه. وعن ابن عباس: «أنها نزلت في الذين طعنوا في اتخاذ النبي ﷺ صفية بنت حييّ لنفسه».

قلت: والملاحظ أن الله سبحانه وتعالى جعل عقوبة أذيته جل جلاله وأذية رسوله ﷺ متحدة، وهي اللعنة في الدنيا والآخرة والعذاب المهين وقرنهما في آية واحدة ، بينما سائر المؤمنين والمؤمنات جعل عقوبة أذيتهم متحدة (البهتان والإثم المبين) وجعلهما في آية أخرى، ثم إن التقييد (بغير ما اكتسبوا) يعطيك دلالة قوية على عصمته الثابتة ومكانته العالية بمعنى أن عقوبة أذية النبي ﷺ لم تقيد بالشرط السابق(اكتسبوا) لأنه ﷺ معصوم إذ مجرد أذيته جريمة عقوبتها اللعنة وليس من المنطق أن يصدر منه ﷺ إثم بينما المؤمنون شرطت عقوبة أذيتهم بـ(بغير ما اكتسبوا).

(١) البيهقي في شعب الإيمان رقم ١٤٢٤.

الآية السادسة: قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ﴾[1]

ذكر ابن جرير الطبري بسنده عن السدي قال: كان الناس يصلون قبَلَ بيت المقدس، فلما قَدِم النبي ﷺ المدينةَ على رأس ثمانية عشر شهرًا من مُهاجَره، كان إذا صلى رفع رأسه إلى السماء يَنظُر ما يُؤمر، وكان يصلّي قبَل بيت المقدس، فنسختها الكعبةُ. فكان النبي ﷺ يُحب أن يصلي قبَل الكعبة، فأنزل الله جل ثناؤه: "﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ﴾.. الآية.

وقال ابن الجوزي: وسبب اختياره للكعبة على بيت المقدس إما لأنها كانت قبلة إبراهيم عليه السلام قاله ابن عباس وإما لمخالفة اليهود قاله مجاهد ومعنى تقلب وجهه نظره إليها يمينا وشمالا (وفي) هنا بمعنى (إلى) وترضاها: تحبها والشطر: النحوُ.

وقال القشيري: حَفِظَ -صلوات الله عليه- الآدابَ حيث سكت بلسانه عن سؤال ما تمنَّاه من أمر القبلة بقلبه، فَلاَحَظَ السماءَ لأنها طريق جبريل عليه السلام، فأنزل الله عزَّ وجل: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ﴾ أي علمنا سؤلك عمَّا لم تُفْصِحْ عنه بلسان الدعاء، فلقد غيَّرنا القِبْلَةَ لأجلك، وهذه غاية ما يفعل الحبيب لأجل الحبيب .

(١) البقرة: ١٤٤

كلُّ العبيد يجتهدون في طلب رضائي وأنا أطلب رضاك { فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ } ولكن لا تُعَلِّقْ قلبَكَ بالأحجار والآثار، وأَفْرِد قلبك لي، ولتكن القِبلةُ مقصودَ نَفْسِك، والحقُّ مشهودَ قلبك، وحيثما كنتم أيها المؤمنون فولوا وجوهكم شطره، ولكن أَخْلِصوا قلوبَكم لي وأَفرِدوا شهودكم بي.

وقال ابن عاشور: المعنى أن تولية وجهه للكعبة سيحصل عقب هذا الوعد وهذا وعد اشتمل على أداتي تأكيد وأداةِ تعقيب وذلك غاية اللطف والإحسان.

وعبر بـ (ترضاها) للدلالة على أن ميله إلى الكعبة ميل لقصد الخير بناء على أن الكعبة أجدر بيُوتِ الله بأن يدل على التوحيد كما تقدم فهو أجدر بالاستقبال من بيت المقدس، ولأن في استقبالها إيماءً إلى استقلال هذا الدين عن دين أهل الكتاب. ولما كان الرضى مشعراً بالمحبة الناشئة عن تعقل اختير في هذا المقام دون تُحبها أو تهواها أو نحوهما فإن مقام النبي ﷺ يربو عن أن يتعلق ميله بما ليس بمصلحة راجحة بعد انتهاء المصلحة العارضة لمشروعية استقبال بيت المقدس، ألا ترى أنه لما جاء في جانب قبلتهم بعد أن نسخت جاء بقوله: ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ [1] الآية .

وقال السعدي رحمه الله: يقول الله لنبيه: { قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ } أي: كثرة تردده في جميع جهاته، شوقا وانتظارا لنزول الوحي

(١) البقرة: ١٢٠

باستقبال الكعبة، وقال: {وَجْهكَ} ولم يقل: "بصرك" لزيادة اهتمامه، ولأن تقليب الوجه مستلزم لتقليب البصر.

{فَلَنُوَلِّيَنَّكَ} أي: نوجهك لولايتنا إياك، {قِبْلَةً تَرْضَاهَا} أي: تحبها، وهي الكعبة، وفي هذا بيان لفضله وشرفه ﷺ، حيث إن الله تعالى يسارع في رضاه، ثم صرح له باستقبالها فقال: {فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} والوجه: ما أقبل من بدن الإنسان، {وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ} أي: من بر وبحر، وشرق وغرب، جنوب وشمال {فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ} أي: جهته اهـ.

وقال صاحب الظلال: {قد نرى تقلب وجهك في السماء}: وهو يشي بتلك الرغبة القوية في أن يوجهه ربه إلى قبلة غير القبلة التي كان عليها. بعدما كثر لجاج اليهود وحجاجهم؛ ووجدوا في اتجاه الجماعة المسلمة لقبلتهم وسيلة للتمويه والتضليل والبلبلة والتلبيس فكان ﷺ يقلب وجهه في السماء، ولا يصرح بدعاء، تأدباً مع ربه، وتحرجاً أن يقترح عليه شيئاً أو أن يقدم بين يديه شيئاً.

ولقد أجابه ربه إلى ما يرضيه. والتعبير عن هذه الاستجابة يشي بتلك الصلة الرحيمة الحانية الودود: {فلنولينك قبلة ترضاها}.

ثم يعين له هذه القبلة التي علم -سبحانه- أنه يرضاها: {فول وجهك شطر المسجد الحرام}

قبلة له ولأمته من معه منها ومن يأتي من بعده إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها: {وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره}.

قلتُ: (قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها) فالله سبحانه وتعالى أخبر أنه يرى تقلب وجه النبي ﷺ وكأن مجرد تقلب هذا الوجه الشريف يكفي عند الله

سبحانه وتعالى لتحقيق ما يحبه ويرضاه!! فالتقلب أمر ظاهري والرضا أمر باطنيٌّ فمجرد تقلب الوجه يحقق الله من خلاله ما يرضاه نبي الرحمة ﷺ (فلنولينك قبلة) بمؤكدات متعددة أولها: فاء السببية ثم لام القسم، ثم نون التوكيد، وكاف الخطاب -كذلك- له دلالته الخاصة في الاهتمام والاحتضان (قبلة) ولكنها مقيدة برضاك يا رسول الله!! (ترضاها) فالحدث كله استجابة لمجرد تقلب وجهك فأنت يا رسول الله لم تتكلم، ولكن مجرد حركة وجهك ومكانتك عند ربك تستدعي أن يحقق لك ما تحبه وترضاه (فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام) وكأنه سياج خاص بالنبي ﷺ يبدأ بحرف (قد) وينتهي بـ(المسجد الحرام) ثم يأتي بعد ذلك (وحيث ماكنتم فولوا وجوهكم شطره) للمؤمنين كافة.

الآية السابعة: قال تعالى: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾[1]

قال صاحب زاد المسير فيه ثلاثة أقوال:

أحدها أن معناه: وحياتِك يا محمد رواه بن الجوزاء عن ابن عباس.

الثاني: لَعيشك رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس وبه قال الأخفش وهو يرجع إلى المعنى الأول.

والثالث: أن معناه وحقِّك على أمتك تقول العرب (لعمر الله لا أقوم) يعنون وحق الله ذكره ابن الأنباري وفي (العَمْرِ) ثلاث لغات: (عَمْرٌ) و(عُمْرٌ) و(عُمُرٌ) وهو عند العرب البقاء وحكى الزجاج أن الخليل وسيبويه وجميع أهل اللغة قالوا العَمْرُ والعُمُرُ بمعنىً واحدٍ فإذا استعمل في القسم فتح العين للتخفيف .

(١) الحجر: ٧٢

وقال ابن عاشور رحمه الله معلقا وجملة (لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون)معترضة بين أجزاء القصة للعبرة في عدم جدوى الموعظة في من يكون في سكرة هواه).

وقال ابن القيم رحمه الله: أكثر المفسرين من السلف والخلف بل لا يعرف عن السلف فيه نزاع أن هذا قسم من الله بحياة رسول الله ﷺ وهذا من أعظم فضائله أن يقسم الرب عز وجل بحياته وهذه مزية لا تعرف لغيره[1].

وقال العز ابن عبد السلام والإقسام بحياة المقسم بحياته يدل على شرف حياته وعزتها عند المقسِم بها وأن حياته ﷺ لجديرة أن يقسم بها لما فيها من البركة العامة والخاصة ولم يثبت هذا لغيره[2] .

ومن أنواع القسم المقترن بذكره –عليه الصلاة والسلام– ما يلي:

أولا: نجد سورة القلم تبدأ بالقسم قال تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾[3] ويكون جواب القسم مشتملا على ثلاث خصائص تدل على شرف النبي ﷺ وعلو مكانته .

الأولى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾[4] الثانية: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣﴾[5] الثالثة: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾[6]

---

(١) التبيان في أقسام القرآن لابن القيم الجوزية ص٢٦٩.

(٢) بداية السول في تفضيل الرسول للعز بن عبد السلام ص ٣٧ تحقيق الشيخ ناصر الدين الألباني.

(٣) القلم: ١

(٤) القلم: ٢

(٥) القلم: ٣

(٦) القلم: ٤

ثانيا أقسم الله سبحانه وتعالى بالضحى ويكون جواب القسم تفنيداً لشائعة روجها الأعداء: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ ﴾[1] ويعطف عليه: ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ ﴾[2]

ثالثا وأقسم الله سبحانه وتعالى بالنجم ويكون الجواب من الله سبحانه وتعالى سلسلة تزكيات للنبي الكريم ﷺ الأولى: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ ﴾[3] الثانية: ﴿ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ ﴾[4] الثالثة: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ ﴾[5] الرابعة: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾[6]

رابعا: أقسم الله سبحانه وتعالى بـ(يس) قال تعالى: ﴿ يس ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ ﴾[7] ويكون جواب القسم مشتملاً على إثبات نبوته ﷺ وأنه على الصراط المستقيم الذي رضيه له ربه جل وعلا: ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾[8] يقول القرطبي رحمه الله: أقسم الله باسمه وكتابه إنه لمن المرسلين بوحيه إلى عباده وعلى صراط مستقيم ويقول النقاش: لم يقسم الله لأحد من أنبيائه بالرسالة في كتابه إلا له لأن مجيء الرسول ﷺ اشتمل على مجيء الهدى والقرآن.

---

(١) الضحى: ٣

(٢) الضحى: ٤ – ٥

(٣) النجم: ٢

(٤) النجم: ٢

(٥) النجم: ٣

(٦) النجم: ٤

(٧) يس: ١ – ٢

(٨) يس: ٣–٤

الآية الثامنة: قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ ﴾[1]

قال القشيري: يأيها المُشَرَّفُ مِنْ قِبَلِنا إنّا أرسلناكَ شاهداً بوحدانيتنا، وشاهداً تُبَشِّر بمتابعتنا، وتحذِّرُ من مخالفة أَمْرِنَا، وتُعْلِمُ الناسَ مواضعَ الخوف مِنَّا، وداعياً إلينا بنا، وسراجاً يستضيئون به، وشمساً ينبسط شعاعُها على جميع مَنْ صَدَّقَكَ، وآمَنَ بك، فلا يصل إلينا إلاَّ مَنْ اتبَّعَكَ وصَدَّقَك وقَدَّمَك.

وقال ابن عاشور: والمبَشِّرُ: المخبر بالبُشرى والبِشارة هي الحادث المسرّ لمن يخبر به والوعد بالعطية، والنبي ﷺ مبشر لأَهل الإيمان والمطيعين بمراتب فوزهم. وقد تضمن هذا الوصف ما اشتملت عليه الشريعة من الدعاء إلى الخير من الأوامر وهو قسم الامتثال من قسمي التقوى، فإن التقوى امتثال المأمورات واجتناب المنهيات، والمأمورات متضمنة المصالح فهي مقتضية بشارة فاعليها بحسن الحال في العاجل والآجل .

وقُدِّمَت البِشارة على النِذارة لأن النبي ﷺ غلب عليه التبشير لأنه رحمة للعالمين، ولكثرة عدد المؤمنين في أمته.

والنذير: مشتق من الإنذار وهو الإخبار بحلول حادث مسيء أو قُرْب حلوله، والنبي عليه الصلاة والسلام منذر للذين يخالفون عن دينه من كافرين به ومن أهل العصيان بمتفاوت مؤاخذتهم على عملهم. اهـ

وأنت تلاحظ معي أن الآية تبدأ بنداء النبي ﷺ بهذا الاسم الجميل الذي هو مشتق من النبأ، والنبأ هو الخبر العظيم قال تعالى: ﴿ قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمۡ عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ ﴾[1]

(١) الأحزاب: ٤٥ – ٤٦

وقال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢﴾[٢] أو هو مشتق من النَّبْوة وهي الارتفاع فهو ﷺ إمام أئمة البشرية وهم الرسل، إمامهم في الفضل وإمامهم في الصلاة، إذ أمهم ليلة الإسراء والمعراج يقول مولود بن أحمد الجواد الشنقيطي متحدثا عن فضله ومكانته

خير النبيين أذكى العالمين حجا ... أعلاهمُ دَرجاً أذكاهمُ أرجا
سبحان ربٍ بجثمان النبي سرى ... من حيث لم يدلج الساري ولا ادَّرجا
مَن للنبيين مَن للرسل أين لهمْ ... مِن (قابَ قوسينِ) معراجٌ كما عرجا
أراه صلى عليه الله شمسَ هدىً ... والأنبياءُ حواليه بدور دجا
والأنبياءُ جميعا في اسمه اندرجوا ... عدّاً كما آيُهُمْ في آيهِ اندرجا
قد انقضت بانقضاء الرُّسْلِ حجتُهُم ... وللهدى حُجَجٌ ما تنقضي الحِجَجا[٣]

(إنا أرسلناك) والرسالة أشرف وظيفة وهذه الأشياء التي وصف الله بها رسوله وحبيبه هي بعض خصائص رسالته التي اختصه الله بها وهي خمسة أولها كونه(شاهدا) أي على أمته بما عملوه من خير أو شر كما قال تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدًا﴾[٤] وقال تعالى: ﴿وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ۝٤١﴾[٥].

هذا الشاهد الذي زكاه أحكم الحاكمين ظاهرا وباطنا خلقا وخلقا كما أسلفنا فإن شهادته سترفع أقواما وتضع آخرين –نسأل الله السلامة–.

---

(١) ص: ٦٧ –٦٨

(٢) النبأ: ١ – ٢

(٣) الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ص٢٠٩.

(٤) البقرة: ١٤٣

(٥) النساء: ٤١

الثاني والثالث كونه (مبشرا ونذيرا) فهو يبشر أهل الخير والإيمان وينذر أهل الشر والعصيان والبَشَر لابد لهم من هذين الركنين حتى لا يقنط بعض من رحمة الله أو ييأس من عفوه –عز وجل– وحتى لا يأمن بعضٌ آخر مكره وعقابه، وبالبشارة والنذارة والترغيب والترهيب والخوف والرجاء يتميز المنهج الإسلامي الأصيل عن ثقافة صكوك الغفران أو ثقافة القنوط من رحمة المنان!!

الرابع كونه (داعيا إلى الله) أي أرسله الله يدعو الخلق إلى ربهم ويشوقهم إلى كرامته ويأمرهم بعبادته –جل جلاله– .

الخامس كونه(سراجا منيرا) وذلك كما يقول السعدي "يقتضي أن الخلق في ظلمة عظيمة لا نور يهتدى به في ظلماتها ولا علم يستدل به في جهاتها حتى جاء الله بهذا النبي ﷺ الكريم فأضاء الله به تلك الظلمات وعلَّم به من الجهالات وهدى به ضُلاَّلا إلى الصراط المستقيم فأصبح أهل الاستقامة قد وضح لهم الطريق فمشَوا خلف هذا الإمام وعرفوا به الخير من الشر وأهل السعادة من أهل الشقاوة واستناروا به لمعرفة معبودهم وعرفوه بأوصافه الحميدة وأفعاله السديدة وأحكامه الرشيدة اهـ."

فهذا الشاهد المزكى من العليم الخبير (السراج المنير) قد أضاء الكون بنور الهداية واستطاع من خلال وظيفته الشريفة (الدعوة إلى الله) أن يغير مجرى التاريخ بشهادة الجميع (مبشرا ونذيرا) يعامل كل إنسان بما يناسبه كما يقول الشاعر محمد بن محمدِي:

بـهدى الكتـاب دعـا فمـن لم يرتـدع بهـدى الكتـاب فبالكتائـب يـردعِ[1]!

إنه ﷺ سراجٌ منيرٌ حسا ومعنى، يقول الشاعر مولود أحمد الجواد الشنقيطي:

(١) الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ص٥٧.

ضياءُ وجه يريك الشمس حالكةً ودر لفظ يريك الؤلؤَ السَّبِجَا[1]

الآية التاسعة: قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ٨٠﴾[2] يقول الإمام القرطبي أعلم الله أن طاعة رسوله ﷺ طاعة له وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: (**مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ يُطِعِ الأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي ، وَمَنْ يَعْصِ الأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي**)[3].

ويقول ابن جُزَيْ رحمه الله : هذه الآية من فضائل رسول الله ﷺ وإنما كانت طاعته كطاعة الله لأنه يأمر وينهى عن الله: (ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا) أي من أعرض عن طاعتك فما أنت عليه بحفيظ تحفظ أعماله بل حسابه وجزاؤه على الله.

ويقول الرازي :إن هذه الآية من أقوى الدلائل على أنه معصوم في جميع الأوامر والنواهي وفي كل ما يبلغه عن الله لأنه لو أخطأ في شيء منها لم تكن طاعته طاعة لله وأيضا وجب أن يكون معصوما في جميع أفعاله لأنه تعالى أمر بمتابعته في قوله: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾[4] والمتابعة عبارة عن الإتيان بمثل فعل الغير لأجل أنه فعل ذلك الغير فكان الآتي بمثل ذلك الفعل مطيعا لله في قوله: (فاتبعوه) فثبت أن الانقياد له في جميع أقواله وفي جميع أفعاله إلا ما خصه الدليل طاعة لله وانقيادا لحكم الله قال الشافعي رحمه

(١) الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ص٢٠٨.

(٢) النساء: ٨٠

(٣) البخاري رقم ٢٩٥٧.

(٤) الأنعام: ١٥٣

الله في الرسالة يدل على أن كل تكليف كلف الله به عباده في باب الوضوء والصلاة والزكاة والصوم والحج وسائر الأبواب في القرآن ولم يكن ذلك تكليفا مبينا في القرآن فحينئذ لا سبيل لنا إلى القيام بتلك التكاليف إلا ببيان الرسول ﷺ وإذا كان الأمر كذلك لزم القول بأن طاعة الرسول ﷺ عين طاعة الله ثم يقول الرازي هذا معنى كلام الشافعي(١)

ويقول السعدي رحمه الله: أي كل من أطاع رسول الله في أوامره ونواهيه فقد (أطاع الله) تعالى لكونه لا يأمر ولا ينهى إلا بأمر الله تعالى وشرعه ووحيه وتنزيله وفي هذا عصمة الرسول ﷺ لأن الله تعالى أمر بطاعته مطلقا فلولا أنه معصوم في كل ما يبلغ عن الله ما أمر بطاعته مطلقا..!

ثم يأمر بطاعته مطلقا ويمدح على ذلك وهذا من الحقوق المشتركة فإن الحقوق ثلاثة حق لله تعالى لا يكون لأحد من الخلق وهو عبادة الله والرغبة إليه وتوابع ذلك وقسم مختص بالرسول ﷺ وهو التعزير والتوقير والنصرة وقسم مشترك وهو الإيمان بالله ورسوله ومحبتهما وطاعتهما كما جمع الله بين هذه الحقوق في قوله: ﴿ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾(٢) فمن أطاع الرسول ﷺ فقد أطاع الله وله من الثواب والخير ما رتب على طاعة الله (ومن تولى)عن طاعة الله ورسوله فإنه لا يضر إلا نفسه ولا يضر الله شيئا(فما أرسلناك عليهم حفيظا) أي تحفظ أعمالهم وأحوالهم بل أرسلناك مبلغا ومبينا وناصحا وقد أديت وظيفتك ووجب أجرك على الله سواء اهتدوا أم لم يهتدوا كما قال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾(٣) انتهى.

(١) التفسير الكبير جـ١٠ص ١٥٤

(٢) الفتح: ٩

(٣) الغاشية: ٢١- ٢٢

(من يطع الرسول فقد أطاع الله) يقول ابن عاشور رحمه الله تعالى: (عن توهم السامعين التفرقة بين الله ورسوله في أمور التشريع فأثبت أن الرسول ﷺ في تبليغه إنما يبلغ عن الله سبحانه فأمره أمر الله ونهيه نهي الله وطاعته طاعة الله وقد دل على ذلك كله قوله تعالى: (من يطع الرسول فقد أطاع الله) لاشتمالها على إثبات كونه رسولا واستلزامها أنه يأمر وينهى وأن ذلك تبليغ لمراد الله فمن كان على بينة من ذلك أو كان في غفلة فقد بين الله له اختلاف مقامات الرسول ﷺ (ومن تولى) أو أعرض واستمر على المكابرة (فما أرسلناك عليهم حفيظا) أي حارسا ومسؤولا عن إعراضهم وهذا تعريض بهم وتهديد لهم بأن صرفه عن الاشتغال بهم فيعلم الله أنه سيتولى عقابهم.

الآية العاشرة: قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ ﴾[1]

يقول القشيري: لا يجوز لهم أن يؤثِروا على النبي ﷺ شيئاً من نَفْسٍ وروح، ومالٍ ووَلَدٍ وأهلٍ، وليسوا يخسرون على الله وأنَّى ذلك!! وإنهم لا يرفعون لأجْلِه خطوةً إلاَّ قابَلَهم بأَلفِ خطوة، ولا ينقلون إليه قَدَماً إلا لقَّاهم لطفاً وكرماً، ولا يُقاسُون فيه عَطَشاً إلا سقاهم من شراب محابِّه كاسا، ولا يتحملون لأجله مشقةً إلا لقَّاهم لطفاً وإيناساً، ولا ينالون من الأعداء أَذَىً إلا شَكَرَ اللهُ سَعْيَهم بما يوجب لهم سعادة الدارين! .

ويقول ابن عاشور رحمه الله: {ما كان لأهل المدينة...إلخ} استئناف ابتدائي لإيجاب الغزو على أهل المدينة ومن حولهم من أهل باديتها الحافّين بالمدينة إذا خرج النبي ﷺ للغزو. فهذا وجوب عيني على هؤلاء شرفهم الله بأن جعلهم جند النبي ﷺ وحَرَس ذاته.

(١) التوبة: ١٢٠

وصيغة {ما كان لأهل المدينة} خبر مستعمل في إنشاء الأمر على طريق المبالغة، إذ جعل التخلف ليس مما ثبت لهم ، فهم برآء منه فيثبت لهم ضده وهو الخروج مع النبي ﷺ إذا غزا.

وفيه ثناء على أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب لما قاموا به من غزو تبوك، فهو يقتضي تحريضهم على ذلك كما دل عليه قوله: {ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ} إلخ.

وفيه تعريض بالذين تخلفوا من أهل المدينة ومن الأعراب . وذلك يدل على إيجاب النفير عليهم إذا خرج النبي ﷺ للغزو.

والرغبة تُعدّى بحرف (في) فتفيد معنى مودة تحصيل الشيء والحرص فيه، وتُعدى بحرف (عن) فتفيد معنى المجافاة للشيء، وهي هنا معداة بـ (عن). أريد برغبتهم عن نفسه محبتهم أنفسهم وحرصهم على سلامتها دون الحرص على سلامة نفس الرسول، فكأنهم رغبوا عن نفسه إذ لم يخرجوا معه مُلابَسين لأنفسهم، أي محتفظين بها لأنهم بمقدار من يتخلف منهم يزداد تعرض نفس الرسول من التلف قرباً، فتخلف واحد منهم عن الخروج معه عون على تقريب نفس الرسول عليه الصلاة والسلام من التلف فلذلك استعير لهذا التخلف لفظ الرغبة عنه.

والباء في قوله: {بأنفسهم} للملابسة وهي في موضع الحال. نزل الضن بالأنفس والحذر من هلاكها بالتلبس بها في شدة التمكن فاستعمل له حرف باء الملابسة . وهذه ملابسة خاصة وإن كانت النفوس في كل حال متلبساً بها. وهذا تركيب بديع الإيجاز بالغ الإعجاز اهـ .

قال في «الكشاف»: «أمروا أن يُلَقُّوا أنفسَهم من الشدائد ما تلقاه نفسه علماً بأنها أعَز نفس عند الله وأكرمها عليه فإذا تعرضت مع كرامتها وعزتها للخوض في شدة وهول وجب على سائر الأنفس أن تتهافت فيما تعرضت له» اهـ .

وقال السعدي رحمه الله: قال تعالى -حاثاً لأهل المدينة المنورة من المهاجرين، والأنصار، ومن حولهم من الأعراب، الذين أسلموا فحسن إسلامهم-: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ ﴾ أي: ما ينبغي لهم ذلك، ولا يليق بأحوالهم.

﴿ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ ﴾ في بقائها وراحتها، وسكونها ﴿ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ الكريمة الزكية، بل النبي ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فعلى كل مسلم أن يفدي النبي ﷺ، بنفسه ويقدمه عليها، فعلامة تعظيم الرسول ﷺ ومحبته والإيمان التام به، أن لا يتخلفوا عنه، ثم ذكر الثواب الحامل على الخروج فقال: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ﴾أي: المجاهدين في سبيل اللّه ﴿ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ ﴾ أي: تعب ومشقة ﴿ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي: مجاعة. ﴿ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ من الخوض لديارهم، والاستيلاء على أوطانهم، ﴿ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا ﴾ كالظفر بجيش أو سرية أو الغنيمة لمال ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ ﴾ لأن هذه آثار ناشئة عن أعمالهم. اهـ

سراجٌ في الهداية، وقمرٌ في الجمال!!

تقدم معنا الحديث في هذا الفصل عن مكانة السراج المنير ﷺ حيث زكى بصره ولسانه وخلقه وفؤاده وهدايته لأمته، ثم ذكرنا أهم خصائص رسالته من كونه ﴿شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾[1] وهذا السراج المنير الذي أضاء الكون بنور الهداية ينبغي أن نقف معه وقفة -ولو يسيرة- لنتعرف من خلالها على بديع خلقته وجميل صورته، وإذا كانت الرسالة الخاتمة من خصائص دستورها الخالد ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾[2]، ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾[3]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَ�ٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾[4] فإن صفات صاحب الرسالة الجسمية الجميلة متناسبة مع عظم الرسالة وجمالها فنحمد الله سبحانه وتعالى على هذه النعم حيث أرسل إلينا أفضل رسله وأنزل عليه خير كتبه!!.

ذكر أصحاب السير -وهم مجمعون على ذلك- أن أول ما يقع بصر الإنسان على رسول الله ﷺ يشعر أنه أمام جمال مدهش لا مثيل له ومظهر متفرد يوحي بثقة مطلقة لا حدّ لها وهذه نماذج تبرهن على ذلك.

---

(١) الأحزاب: ٤٥ -٤٦

(٢) فصلت: ٤١-٤٢

(٣) هود: ١

(٤) النساء: ٨٢

أخرج الدارمي والبيهقيُّ عن جابر بن سمُرة قال: (**رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِى لَيْلَة إِضْحِيَانٍ فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَإِلَى الْقَمَرِ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ حَمْرَاءُ فَإِذَا هُوَ عِنْدِى أَحْسَنُ مِنَ الْقَمَرِ.**)(١)

وأخرج الترمذي والبيهقي عن أبي هريرة قال: (**مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَحْسَنَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، كَأَنَّ الشَّمْسَ تَجْرِي فِي وَجْهِهِ**)(٢)

وأخرج الدارمي والبيهقي في الشعب والطبراني عن أبي عبيدة قال: (**قُلْتُ لِلرَّبِيعِ بنتِ مُعَوِّذِ بن عَفْرَاءَ صِفِي لِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَتْ: لَوْ رَأَيْتُهُ رَأَيْتُ الشَّمْسَ طَالِعَةً**)(٣).

وأخرج أحمد والبيهقي عن محرش الكعبي قال: (**خَرَجَ مِنَ الْجِعْرَانَةِ لَيْلاً فَاعْتَمَرَ ثُمَّ رَجَعَ ، فَأَصْبَحَ بِهَا كَبَائِتٍ، فَنَظَرْتُ إِلَى ظَهْرِهِ كَأَنَّهُ سَبِيكَةُ فِضَّةٍ.**)(٤)

وأخرج عبد الله بن الإمام أحمد عن علي ﷺ قال: (**كَانَ لَيْسَ بِالذَّاهِبِ طُولاً ، وَفَوْقَ الرَّبْعَةِ**[٥]) إلى أن يقول: (**كَأَنَّ الْعَرَقَ فِي وَجْهِهِ اللُّؤْلُؤُ، لَمْ أَرَ قَبْلَهُ وَلا بَعْدَهُ مِثْلَهُ بِأَبِي وَأُمِّي ﷺ**)(٦)

وأخرج الإمام أحمد عن سعد بن أبي وقاص قال: (**اشْتَكَيْتُ شَكْوًى لِي بِمَكَّةَ ، فَدَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعُودُنِي**) إلى أن يقولَ (**فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى جَبْهَتِهِ فَمَسَحَ وَجْهِي**

(١) الترمذي رقم ٣٠٤١ واللفظ له والدارمي رقم ٥٨ والبيهقي رقم ١١١.

(٢) مسند أحمد رقم ٨٩٣٠ واللفظ له والبيهقي١٣٠الترمذي ٤٠٠٩.

(٣) الطبراني رقم ٢٠١٥٩ واللفظ له والدارمي رقم ٦٠ والبيهقي في الشعب رقم١٤٢٠.

(٤) البيهقي رقم ١٢٨ ومسند أحمد رقم ١٥٩١١ واللفظ له والنسائي رقم ٢٨٦٤ .

(٥) مسند أحمد رقم ١٣٠٠.

(٦) مسند أحمد رقم ١٣٠٠ واللفظ له والبيهقي رقم ٢٠٧.

وَصَدْرِي وَبَطْنِي، وَقَالَ: اللَّهُمَّ اشْفِ سَعْدًا، وَأَتِمَّ لَهُ هِجْرَتَهُ، فَمَا زِلْتُ يُخَيَّلُ إِلَيَّ بِأَنِّي أَجِدُ بَرْدَ يَدِهِ عَلَى كَبِدِي حَتَّى السَّاعَةِ) [1]

وأخرج مسلم عن جابر بن سمرة قال: **(صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– صَلاَةَ الأُولَى ثُمَّ خَرَجَ إِلَى أَهْلِهِ وَخَرَجْتُ مَعَهُ فَاسْتَقْبَلَهُ وِلْدَانٌ فَجَعَلَ يَمْسَحُ خَدَّىْ أَحَدِهِمْ وَاحِدًا وَاحِدًا – قَالَ – وَأَمَّا أَنَا فَمَسَحَ خَدِّى –قَالَ– فَوَجَدْتُ لِيَدِهِ بَرْدًا أَوْ رِيحًا كَأَنَّمَا أَخْرَجَهَا مِنْ جُؤْنَةِ عَطَّارٍ)** [2].

وأخرج البخاري عن أنس رضي الله عنه قال **(مَا شَمِمْتُ عَنْبَرًا قَطُّ وَلاَ مِسْكًا وَلاَ شَيْئًا أَطْيَبَ مِنْ رِيحِ رَسُولِ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– وَلاَ مَسِسْتُ شَيْئًا قَطُّ دِيبَاجًا وَلاَ حَرِيرًا أَلْيَنَ مَسًّا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلمﷺ)** [3].

(١) مسند أحمد رقم ١٧٤٧ واللفظ له والبزار ١٢٠٤ .

(٢) مسلم رقم ٦١٩٧ .

(٣) البخاري ٣٥٦١.

نماذج من عظمته ﷺ ..على ألسنة الشعراء

هذه العظمة التي صورها القرآن الكريم وأعلنها الصحابة الكرام ﷺ هي التي جعلت المحبين من العلماء والفقهاء والشعراء والأفراد العاديين من هذه الأمة يعبرون عن محبتهم العميقة بوسائل مختلفة، كل طرف يعبر عن هذا الشعور المفعم بالإيمان بطريقته، وثقافته، ولغته وسأبدأ بنماذج لشاعر نبي الرحمة ﷺ حسان بن ثابت رضي الله عنه تتحدث عن جوانب من هذه العظمة ثم أختم بنماذج أخرى..

إن حسان ﷺ كان شبه مُفَرَّغٍ للدفاع عن الدعوة الإسلامية، قائما بوظيفة الجهاد الإعلامي الإسلامي الذي يكون في كثير من الأحيان أشد على الأعداء من وقع الأسلحة إذ يقول ﷺ: ((**إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ لاَ يَزَالُ يُؤَيِّدُكَ مَا نَافَحْتَ عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ**))[1] ويقول ﷺ مخاطبا الصحابة الكرام ﷺ: ((**اهْجُوا قُرَيْشًا فَإِنَّهُ أَشَدُّ عَلَيْهَا مِنْ رَشْقٍ بِالنَّبْلِ**))[2] وأدَّى ﷺ رسالته الإبداعية في أجمل صورة مع إخوانه من شعراء الدعوة الإسلامية ومع ذلك فقد أبت عاطفته الجياشة ومشاعره المتدفقة بدافع المحبة، إلاَّ أن تتحدث عن جوانب من هذه العظمة، فهو يتحدث عن واقع شاهده، ومظهر أخّاذ رآه، فهو ﷺ يخبرنا بأن عينه لم تر قط أحسن من نبي الرحمة ﷺ وأن النساء لم تلد أجمل منه وأنه مبرأٌ من كل عيب:- حيث يقول:

وأحسنَ منك لم تر قط عيني ... وأجملَ منك لم تلد النساء
خلقت مبرأً من كل عيبٍ ... كأنك قد خلقت كما تشاءُ

(١) مسلم رقم ٦٥٥٠.

(٢) مسلم رقم ٦٥٥٠.

ثم ينتقل إلى بعض الصفات الجمالية الخلقيَّةِ والخلقيَّةِ فيصفه ﷺ بأنه (أغرٌّ) والأغر كريم الأفعالِ، والأغر أيضا من الغرة وهي بياض الوجه مع الجمال واصفا إياه بأن عليه خاتم النبوة حيث يقول:

أغـــــرُّ عليـــــه للنبـــــوة خــــاتم　　　مـــن الله مشـــهود يلـــوح ويشـــهدُ

ثم يقسم رضي الله عنه بالله جل جلاله أنه لا يفارق هذا (الماجد) (عف الخليقة) (المتكرم) (الداعي إلى الله) (باذل النصيحة) (رافع الأعماد) ﷺ واصفا إياه بأنه (مثل الهلالِ) (مباركاً) (ذا رحمةٍ) (سمح الخليقة):

والله ربي لا نفـــــارق ماجـــــدا　　　عـــف الخليقـــة ماجـــد الأمجـــاد

متكرمـــا يـــدعو إلى رب العلـــى　　　بـــذل النصـــيحة رافـــع الأعمـــاد

مثـــل الهـــلال مباركـــا ذا رحمـــة　　　سمـــح الخليقـــة طيـــب الأعـــواد

ثم يقسم بالله تعالى على فضل نبي الرحمة ﷺ مبرهنا على ذلك بأنه ما حملت أنثى ولا وضعت مثل الرسول ﷺ (الهادي) إلى الصراط المستقيم وأنه تعالى ما برأ ولا خلق خلقا من بريته أوفَى بذمة من نبي العدل والرحمة حيث يقول:

تـــالله مـــا حملـــت أنثـــى ولا وضـــعت　　　مثـــل الرســـول نـــبي الأمـــة الهـــادي

ولا بـــرى الله خلقـــا مـــن بريتـــه　　　أوفى بذمـــة جـــار أو بميعـــاد

يعني:- من نبي الرحمة ﷺ.

ثم ينتقل رضي الله عنه بحزنٍ وأسىً إلى أعظم مصيبة وأشد مأساة عاشها الصحابة الكرام وسائر المسلمين من بعدهم، مبينا أن نبي الرحمة ﷺ كان النور الذي يتبعونه، ثم يتمنى يوم واروا رسول الله ﷺ في ملحده وغيبوه ، يتمنى أن الله سبحانه و تعالى لم يترك بعد النبي ﷺ أحدا منهم ، ولم يعش بعده أنثى ولا ذكر حيث يقول:

كـان الضـياء وكـان النـور نتبعـه ... بعـد الإلـه وكـان السـمع والبصـرا

فليتنـــا يـــوم واروه بملحـــده ... وغيبـــوه وألقـــوا فوقـــه المـــدرا

لم يـــترك الله منـــا بعـــده أحـــدا ... ولم يعـــش بعـــده أنثـــى ولا ذكـــرا

إنها المحبة الصادقة، التي خالطت شغاف القلب وسويداءه فهو ﵁ يتمنى أن لا يبقى بعد النبي ﷺ في هذه الحياة، ثم يبين حقيقة أخرى مفادها أن نبي الرحمة ﷺ ما فقد الماضون مثله ولا يمكن أن يفقد مثله، إلى يوم القيامة حيث يقول:

ومـــا فقـــد الماضـــون مثـــل محمـــد ... ولا مثلـــه حـــتى القيامـــة يُفقـــدُ

ثم نختم بهذا الموقف العجيب والمؤثر لشاعر نبي الرحمة ﷺ حيث يبيِّن أن صدمة مأساة وفاة النبي ﷺ، باقية معه ومتجددة بموت الأفراد، والدليل على ذلك أنه كلما سمع بموت أحد بكى على النبي ﷺ حيث يقول:

واللهِ أسمـــع مـــا بقيـــت بهالـــك ... إلا بكيـــت علـــى النـــبي محمـــد

إنها المحبة الخالصة والمشاعر الصادقة التي عبر عنها شاعر نبي الرحمة ﷺ حسان ﵁.

هذه العظمة كما أسلفت تحدث عنها كثيرٌ من الشعراء المحبين ، وعندما حاول بعضهم أن يغوص في بحر هذه العظمة رسم خطوطا حمراء معلنا عدم تجاوزها وهي حق الله سبحانه وتعالى فنجد –على سبيل المثال- محمد بن محمدِي يقول:

لا تــألُ مــدحا للنــبي وبلــهَ مــا ... تـدري النصـارى في المسيح وتـدعِ(١)

ويقول مولود بن أحمد الجواد:

دع مـا بـه كفـرت قـوم المسيح وعـن ... محامد المصطفى حدث ولا حرجا(١)

---

(١) الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ص٥٧.

إذ لابد للمسلم من أن يعطي كل ذي حق حقه فيعطي للخالق الرازق المصور الهادي هداية توفيق –حقه سبحانه وتعالى– ويعطي لنبي الرحمة ﷺ الهادي هداية إرشاد وبيان المنقذ من الضلالة حقه أيضا حتى يكون على نور وهداية من الله جل جلاله.

ويتحدثُ الشاعر مولود أحمد الجواد عن هذه العظمة التي دعته إلى امتداحه ﷺ ، معلنا أن حبه امتزج مع دمه و لحمه حيث يقول:–

لي لهجة بامتداح المصطفى لهجت ... ولي فؤادٌ بحب المصطفى لهجا

ألا طربتُ ألا إني طربت إلى ... مَنْ حُبَّه مع لحمي والدم امتزجا[٢]

ويقول أيضا الشاعر الأحول الشنقيطي متحدثا عن جوانب من هذه العظمة:

مدحٌ يقصر دون مبلغ كنهه ... وصف البليغ ونهية المتفكر

بحر يفيض ولا يغيض سماحة ... جود يجود بلا وجود مكدرِ

سمحٌ تبين يمناه غرائبه ... من يمن أيمنه ويمن الأيسرِ

كفٌّ تكفُّ أخا العناد وراحة ... مرتاحة لغنى الفقير المقترِ

ما قاد عسكره ميمم أمة ... إلا وجبريلٌ أمام العسكر[٣]

ويقول محمد بن مُحَمْدِ متحدثاً عن جوانب من عظمته ﷺ كما أسلفنا في المقدمة:

أثنىَ عليه بما قد كان ناسبه ... ربُّ العباد فماذا يبلغ الشعرا؟

أهدَى إليه قديما من بدائعه ... كعب وحسان والهمزي ما كثرا

(١) الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ص ٢٠٩.

(٢) الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ص٢٠٨.

(٣)المديح النبوي عند شعراء الصحراء٣٣٥.

أسدوا به وأناروا ثم ما بلغوا … كلا لعمرُك من معشاره العُشُرا
لكن أتوا فيه بالقدر الذي اقتدروا … قبلي فهلهلت أقفو منهم الأثرا
لا يوجد الدهر إلا راكبا خطرا … أو قائدا شقرا أو طاردا اخسرا
أو قائدا عسكرا أو مغنيا زمرا … أو قارئا سورا أو قائما سحرا
مازال يغزو وجند الله يؤزره … والنصر يصحبه في كل ما شجرا
قد أنكروا ما أتى البرُّ الصدوق به … والبر أنزل تصديقا له السورا[1]

ويقول مولود بن عبد الجواد متحدثا عن كفه ﷺ :

وكفّه إذ سقت ألفا وإذ هزمت … ألفا وإذ وهبت ألفا ورعيانه
كف تمر على ضرع فيحسب من … تبغيهمُ حلبا من غير حلبانه[2]

المحبون تفننوا في مدح نبي الرحمة ﷺ بدافع المحبة حتى إن الشاعر عبد الله بن محمد الشنقيطي المعروف بـ(ابن رازكة) مدَحَ نعل النبي ﷺ بقصيدة تقع في واحد وستين بيتا!!! يقول في مطلعها:

غرامٌ سقى قلبي مدامته صِرْفا … ولما يُقِمْ للعذل عدلا ولا صَرفا
قضى فيه قاضي الحب بالهجر منذ غدا … مريضا بداءٍ لا يطبُّ ولا يشفا
نهاريَ نهر بين جفني والكرى … وليليَ بحرٌ مرسلٌ دونه سجفا

إلى أن يقول :

فها أنا في تمثال نعلك –سيدي– … مضيت على التحقيق في الوصف كالأشفا

(١) الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ص٥٩.

(٢) الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ٢٠٠.

وإني وتَوصافي بديعَ حلاهما كمن همَّ بالبحرينِ يفنيهما غرفا
موازِي تراب النعل بالتبر سائمٌ جبالَ شَروْرىَ الشُّم أن تزن الزفَّا[1]

ويقول الشيخ محمد المامي الشنقيطي في قصيدته الميمية التي يمدح بها النبي ﷺ يقول في مطلعها:

جرى الحب في الأعضاء حيث جرى الدَّمُ فيا زُحَلِيَّ اللونِ والدمعُ عندمُ
كلفت بما لا تستطيع دنوه فلو كنت جالينوس ما كنت تسلمُ
تسل بقناط المحبين لم تكن بأول محروم سباه متيمُ
وأول من رام السلاطين ظلمه أتحسب سلطان الهوى ليس يظلمُ
له سطوة الحجاج في الأرض كلها تدين له أهل العراق وتسلمُ

ثم بين أنه سباه جميل ليس يحسن وصفه وهذا الجميل أصفى من اللؤلؤ المكنون ثم يجيب الشاعر على أسئلة كثيرة منها الجواب عن داره ﷺ ، وهي طيبة ومائه ولونه وقدره وخده وصَدّه ووجهه وخلقه وهو التبسم ثم يبين أن البعد منه ﷺ خيبة وأن القرب منه مغنم حيث يقول:

سباني جميل لست أحسن وصفه من اللؤلؤ المكنون أصفى وأوسم
يزين بديع الشعر أروع حسنه كما زان دملوج الفريدة معصم
وإن تسألوا عن داره فهي طيبة وإن تسألوا عن مائه فهو زمزم
وإن تسألوا عن لونه فهو مُشْرَب وإن تسألوا عن قدره فَمعظَّم
وإن تسألوا عن خده فهْو ناعم وإن تسألوا عن صده فهْو علقم

(١) الوسيط ص٥

وإن تسألوا عن وجهه فهو روضة وإن تسألوا عن خلْقه فالتبسم
وإن تسألوا عن بعده فهو خيبة وإن تسألوا عن قربه فهو مغنم

ثم يبين أنه لم يصل إلى درجة الحب الذي تذيبه نار المحبة حيث يقول:

حبيبي قد أحببته دون حبه وفي ذاك تأديب عليَّ مسلَّم
فلو أنني أحببته قدر حبه لما غاب عني منه جيد ومبسم
ولو أنني أحببته قدر حبه لطال من الدنيا عليَّ تلوُّم
ولو أنني أحببته قدر حبه لذبت على نار من الحب تضرم
فإن كنت عن نار المحبة قاصرا فإني لآذان المديح مخضرم[1]

وهذا ابن جزي المالكي رحمه الله تعالى يعلن أنه يرده عن مدح النبي ﷺ قصوره عن إدراك مناقبه مبينا أنه لا يستطيع عد الحصى والكواكب ولا يستطيع كذلك خوض البحر الزاخر وهو اعتذار متضمن -كما سترى- لأرقى وأجمل أنواع المدح حيث يقول رحمه الله:

أروم امتداح المصطفى ويردني قصوري عن إدراك تلك المناقب
ومن لي بخوض البحر والبحر زاخر ومن لي بإحصاء الحصى والكواكب
ولو أن أعضائي غدت لي ألسنا لما بلغت في المدح بعض مئارب
ولو أن كل العالمين تسابقوا إلى مدحه لم يبلغوا بعض واجب
فأمسكت عنه هيبة وتأدبا وعجزا وإعظاما لأرفع جانب
وَرُبَّ سُكُوتٍ كان فيه بلاغة ورب كلام فيه عتب لعاتب[2]

(١) الشعر والشعراء للدكتور محمد المختار ولد اباه ص ٢٠٢.

(٢) الديباج المذهب في أعيان المذهب ١/١٥٥.

الفصل الثاني:
نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم
ورحمته بالمؤمنين

رحمته صلى الله عليه وسلم بالمؤمنين

سيكون الحديث عن هذه الرحمة من خلال القرآن الكريم كما أسلفت والأحاديث النبوية حرصا على الجمع بين الوحيين، وسأذكر كل آية بالطريقة السالفة ثم أسوق في خاتمة الفصل طائفة من الأحاديث النبوية تدل على رحمته بالمؤمنين كمظهر من مظاهر العظمة ثم أعلق على كل حديث أو عنوان بما يسر الله سبحانه وتعالى وإليك الآيات:

الآية الأولى : قوله تعالى: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ ﴾[1] قال ابن جزي رحمه الله في تفسير هذه الآية يقتضي أن يحبوه ﷺ أكثر مما يحبون أنفسهم وأن ينصروا دينهُ أكثر مما ينصرون أنفسهم وأخرج الطبري بسنده عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ ﴾ قال: هو أب لهم[2].

وقال ابن عطية: وقال بعض العلماء العارفين هو أولى بهم من أنفسهم، لأن أنفسهم تدعوهم إلى الهلاك، وهو يدعوهم إلى النجاة.

وقال القرطبي في تفسيره وهذا مثل لاجتهاد نبينا عليه الصلاة والسلام في نجاتنا، وحرصه على تخلصنا من الهلكات التي بين أيدينا، فهو أولى بنا من أنفسنا، ولجهلنا بقدر ذلك وغلبة شهواتنا علينا وظفر عدونا اللعين بنا، صرْنا أحقر من الفراش وأذل من الفراش، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ! وقيل: أولى بهم أي أنه إذا أمر بشيء ودعت النفس إلى غيره كان أمر النبي ﷺ أولى.

(١) الأحزاب: ٦

٢ الطبري جـ٢٠صـ١٠٩.

وقيل أولى بهم أي هو أولى بأن يحكم على المؤمنين فينفذ حكمه في أنفسهم، أي فيما يحكمون به لأنفسهم مما يخالف حكمه.

وقال الألوسي: {النبي أولى بالمؤمنين} أي أحق وأقرب إليهم من أَنفُسِهِمْ أو أشد ولاية ونصرة لهم منها فإنه عليه الصلاة والسلام لا يأمرهم ولا يرضى منهم إلا بما فيه صلاحهم ونجاحهم بخلاف النفس فإنها أَمَّارة بالسوء وحالها ظاهرٌةٌ فقد تجهل بعض المصالح وتخفى عليها بعض المنافع وأطلقت الأولوية ليفيد الكلام أولويته ﷺ في جميع الأمور ويعلم من كونه ﷺ أولى بهم من أنفسهم كونه عليه الصلاة والسلام أولى بهم من كل الناس.

ثم يقول: ولا يلزم عليه كون الأنفس هنا مثلها في قوله تعالى(ولا تقتلوا أنفسكم) [1] لأن إفادة الآية المدعى على الظاهر ظاهرة أيضاً، وإذا كان ﷺ بهذه المثابة في حق المؤمنين يجب عليهم أن يكون أحب إليهم من أنفسهم وحكمه عليه الصلاة والسلام عليهم أنفذ من حكمها وحقه آثر لديهم من حقوقها وشفقتهم عليه أقدم من شفقتهم عليها.

وقال أبو حيان رحمه الله: وكونه عليه السلام {أولى بالمؤمنين من أنفسهم}: أي أرأف بهم وأعطف عليهم، إذ هو يدعوهم إلى النجاة، وأنفسهم تدعوهم إلى الهلاك .

وقال ابن عاشور رحمه الله تعالى: الظاهر أن الأنفس مراد بها جمع وهي اللطيفة الإنسانية كقوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾[2] وأن الجمع للتوزيع على كل مؤمن آيل على كل فرد من الأنفُس أي أن النبي ﷺ أولى بكل مؤمن من نفس ذلك المؤمن أي هو أشد ولاية أي قربا لكل مؤمن من قرب نفسه إليه وهو قرب معنوي يراد به آثار القرب من محبة ونصرة ثم يقول (فأولى) اسم تفضيل من الولي وهو القرب أي أشد قربا وهذا الاسم يتضمن معنى

(١) النساء: ٢٩

(٢) المائدة: ١١٦

الأحقية بالشيء فيتعلق به متعلقة بباء المصاحبة والملابسة والكلام على تقدير مضاف أي أولى بمنافع المؤمنين أو بمصالح المؤمنين فهذا المضاف حذف لقصد تعميم كل شأن من شؤون المؤمنين الصالحة والأنفس الذوات أي هو أحق بالتصرف في شؤونهم من أنفسهم ومن هذا المعنى ما ورد من قول عمر ﷺ للنبي ﷺ: (لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي التي بين جنبي فقال له النبي ﷺ **(لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)**[1] فقال له عمر ﷺ والذي أنزل عليك الكتاب لأنت أحبُّ إلي من نفسي[2]. وفي الحديث الصحيح: **(مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلاَّ وَأَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ} فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ مَاتَ وَتَرَكَ مَالاً فَلْيَرِثْهُ عَصَبَتُهُ مَنْ كَانُوا، وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا، أَوْ ضَيَاعًا فَلْيَأْتِنِي فَأَنَا مَوْلاَهُ)**[3]اهـ.

و قال السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية: (أقرب ما للإنسان وأولى ما له نفسه فالرسول ﷺ أولى به من نفسه لأنه عليه الصلاة والسلام بذل لهم من النصح والشفقة والرأفة ما كان به أرحم الخلق وأرأفهم فرسول الله ﷺ أفضل الخلق منة عليهم من كل أحد فإنه لم يصل إليهم مثقال ذرة من الخير ولا اندفع عنهم مثقال ذرة من الشر إلا على يديه وبسببه فلذلك وجب عليهم إذا تعارض مراد النفس أو مراد أحد من الناس مع مراد الرسول ﷺ أن يُقَدَّمَ مراد الرسول ﷺ وألاّ يعارض قول الرسول ﷺ بقول أحد كائنا ما كان

(١) البخاري : رقم ١٥.

(٢) البخاري رقم ١٥.

(٣) البخاري رقم ٢٣٩٩.

وأن يفدوه بأنفسهم وأموالهم ويقدموا محبته على محبة الخلق كلهم وألاَّ يقولوا حتى يقول ولا يتقدموا بين يديه).

أخي الكريم عندما تقرأ قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾ والقراءة الأخرى (وهو أب لهم) وقوله تعالى (وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ) فإن هذا السياق يشعرك بطرفيه وكأن الواحد منا بمنزلة الطفل الذي لا يدري مصلحته فقد يحرق نفسه بالنار دون أن يشعر بخطرها! ولكنه عندما يكون أمام والديه فإن شفقتهما به تجعلهما يمنعانه من كل مكروه.

الآية الثانية: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾[1] قال صاحب زاد المسير (قرأ الجمهور بضم الفاء (أنفُسِكم):وقرأ ابن عباس وأبو العالية والضحاك وابن محيصن ومحبوب عن أبي عمرو بفتحها (أنفَسكم) وفي المضمومة أربعة أقوال أولها:من جميع العرب قاله عن ابن عباس وقال ليس في العرب قبيلة إلا وقد ولدت رسول الله ﷺ الثاني: ممن تعرفون قاله قتادة. الثالث: من نكاح لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية قاله جعفر الصادق. الرابع: بشر مثلكم فهو آكد في الحجة لأنكم تفقهون عمن هو مثلكم قاله الزجاج.

وفي المفتوحة ثلاثةُ أقوال الأول: أفضلكم خلقا، الثاني أشرفكم نسبا، الثالث أكثركم طاعة لله عز وجل.

(عزيز عليه ما عنتم) فيه قولان الأول: شديد عليه ما شق عليكم رواه الضحاك عن ابن عباس قال الزجاج شديد عليه عنتكم والعنت :لقاء الشدة الثاني :شديد عليه ما آثمكم

(١) التوبة: ١٢٨

رواه أبو صالح عن ابن عباس (بالمؤمنين رؤوف رحيم) قال ابن عباس سماه باسمين من أسمائه وقال أبو عبيدة رؤوف فعول من الرأفة وهي أرق من الرحمة وقيل رؤوف بالمطيعين رحيم بالمذنبين .

وقال القشيري في تفسيره: جاءكم رسولٌ يشاكِلُكم في البشرية، فَلِمَا أفردناه به من الخصوصية ألبسناه لباسَ الرحمة عليكم، وأقمناه بشواهد العطف والشفقة على جملتكم، قد وَكَلَ هِمَمَه بشأنكم، وأكبرُ هَمِّه إيمانُكم .

وقال صاحب التحرير والتنوير إن خاتمة سورة التوبة جاءت مذكرة بالمنة ببعثة محمد ﷺ ومنوهة بصفاته الجامعة للكمال ومن أخصها حرصه على هداهم ورغبته في إيمانهم ودخولهم في جامعة الإسلام ليكون رحيما بهم ليعلموا أن ما لقيه المعرضون عن الإسلام من الإغلاظ عليهم بالقول والفعل ما هو إلا لاستصلاح حالهم وهذا من مظاهر الرحمة التي جعلها الله تعالى مقارنة لبعثة رسول الله ﷺ لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾[1] بحيث جاء في هاتين الآيتين الخاتمتين لسورة التوبة بما شأنه أن يزيل الحرج من قلوب الفرق التي نزلت فيهم آيات الشدة وعوملوا بالغلظة تعقيبا للشدة بالرفق والغلظة بالرحمة وكذلك (جاءكم) وما تبعه من الخطاب موجه إلى جميع الأمة المدعوة الى الإسلام والمقصود بالخطاب بادئ ذي بدء هم المعرضون من المشركين والمنافقين من العرب بقرينة قوله عقب الخطاب (بالمؤمنين رؤوف رحيم) وافتتاح الآية بحرفي التوكيد وهما (اللام) و(قد) مع كون مضمونها مما لا يتطرق إليه الإنكار لقصد الاهتمام بهذه الجملة لأهمية الغرض الذي سيقت لأجله لأن في ما تضمنته ما ينكره المنافقون وهو كونه رسولا من الله ولأن في

(١) الأنبياء: ١٠٧

هذا التأكيد ما يجعل المخاطبين به منزلين منزلة المنكرين من حيث إنهم لم ينتفعوا أنفُسُهم بهذا المجيء ولأن في هذا التأكيد (لقد) تسجيلا عليهم مرادا به الإيماء إلى اقتراب الرحيل لأنه لما أعيد الإخبار بمجيئه وهو حاصل منذ أعوام طويلة كان ذلك كناية عن اقتراب أجله فهو تسجيل منه على المؤمنين وإيداع للمنافقين ومن بقيَ من المشركين ثم يقول ابن عاشور والمجيء مستعملٌ مجازا في الخطاب بالدعوة إلى شبه توجهه إليهم بالخطاب الذي لم يكونوا يترقبونه بمجيء الوافد إلى الناس من مكان آخر وهو استعمال شائع في القرآن الكريم قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾[1] ثم يقول والأنفس جمع نفس وهي الذات ويضاف النفس إلى الضمير فيدل على قبيلة معاد الضمير أي معدود من ذوي نسبهم وليس عداده فيهم بحلف أو ولاء أو إلصاق يقال هو: قريشي من أنفسهم ويقال القريشي مولاهم أو حليفهم فمعنى من أنفسهم من صميم نسبهم فتعين أن الخطاب للعرب لأن النازل بينهم القرآن يومئذ لا يَعْدُونَ العرب ومن حالفهم وتولاهم مثل سلمان الفارسي وبلال الحبشي..إلخ وفيه امتنان على العرب وتنبيه على فضيلتهم وفيه أيضا تعريض بتحريضهم على اتباعه وترك مناوأته وأن الأجدر بهم الافتخار به والالتفاف حوله كما قال تعالى في ذكر القرآن الكريم:﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[2] أي يبقى لكم منه ذكر حسنٌ. ثم يقول رحمه الله والعزيز الغالب والعزة الغلبة يقال عزه إذا غلبه ومنه قوله: ﴿ وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٣﴾ ﴾[3] فإذا عُدِّيَ بحرف (على) دل على معنى الثقل

(١) المائدة: ١٥

(٢) الزخرف: ٤٤

(٣) ص: ٢٣

والشدة ثم يقول (وما)مصدرية و(عنتم) تعبتم والعنت التعب أي شاق عليه حزنكم وشقاؤكم وهذا كقوله: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣ ﴾[1] وذِكْرُ هذا في صفة الرسول ﷺ يفيد أن هذا خلق له فيكون أثر ظهوره الرفق بالأمة والحذر مما يلقي بهم إلى العذاب في الدنيا والآخرة ومن آثار ذلك شفاعته ﷺ للناس كلهم في الموقف لتعجيل الحساب ثم إن ذلك يومئ إلى أن شرعه جاء مناسبا لخُلُقِه فانتفى عنه الحرج والعسر قال تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ ﴾[2]، ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ ﴾[3] ثم يقول رحمه الله: والعدول عن الإتيان بلفظ العنت الذي هو المصدر الصريح إلى الإتيان بالفعل مع (ما) المصدرية السابكة للمصدر فيه نكتة وهي إفادة أنه قد عز عليه عنتكم الحاصل في الزمن الذي مضى وذلك بما لقوا من قتل قومهم ومن الأسر في الغزوات ولو أتى بالمصدر لم يكن مشيرا إلى عنت معين ولا إلى عنت قد وقع لأن المصدر لا زمان له ولكن مجيء المصدر منسبكا مع الفعل الماضي يجعله مصدرا مقيدا بالحصول في الماضي ومعناه عزيز عليه عنتكم الحاصل في ما مضى لتكون هذه الآية تنبيها على أن ما لاقوه من الشدة إنما هو لاستصلاح حالهم لعلهم يخفضون بعدها من غلوائهم ويرعون عن غيهم ويشعرون بصلاح أمرهم ثم يقول (والرؤوف) الشديد الرأفة و(الرحيم) الشديد الرحمة لأنهما صيغتا مبالغة وهما يتنازعان المجرور المتعلق بهما (بالمؤمنين) والرأفة رقة تنشأ عن حدوث ضر بالمرؤوف به والرحمة تقتضي الإحسان إلى

(١) الشعراء: ٣

(٢) البقرة: ١٨٥

(٣) الحج: ٧٨

المرحوم وبينهما عموم وخصوص مطلق ولذلك جمع بينهما هنا ولوازمهما مختلفة وتقديم المتعلق على عامليه المتنازعين في قوله بالمؤمنين رؤوف رحيم للاهتمام بالمؤمنين في توجه صفتي رأفته ورحمته بهم وأما رحمته العامة فنحو قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾(١)

الآية الثالثة : قوله تعالى: ﴿ لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ١٦٤ ﴾(٢)

قال القرطبي: بين الله تعالى عظيم منته عليهم ببعثه محمدا ﷺ.

والمعنى في المنة فيه أقوال: منها أن يكون معنى (من أنفسهم) أي بشر مثلهم، فلما أظهر البراهين وهو بشر مثلهم علم أن ذلك من عند الله.

وقيل: "من أنفسهم" منهم، فشرفوا به ﷺ، فكانت تلك المنة.

وقيل: "من أنفسهم" ليعرفوا حاله ولا تخفى عليهم طريقته، وإذا كان محله فيهم هذا كانوا أحق بأن يقاتلوا عنه ولا ينهزموا دونه.

ثم يقول القرطبي: ومعنى "من أنفسهم" أنه واحد منهم وبشر ومثلهم، وإنما امتاز عنهم بالوحي، وهو معنى قوله: ﴿ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ ﴾ وخص المؤمنين بالذكر لأنهم المنتفعون به، فالمنة عليهم أعظم.

(١) الأنبياء: ١٠٧

(٢) آل عمران: ١٦٤

وقوله تعالى: (يتلو عليهم) "يتلو" في موضع نصب نعت لرسول، ومعناه يقرأ، والتلاوة القراءة.

ومعنى (وإن كانوا من قبل) أي ولقد كانوا من قبل، أي من قبل محمد، وقيل: "إن" بمعنى ما، واللام في الخبر بمعنى إلا، أي وما كانوا من قبل إلا في ضلال مبين.

ومثله: ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾﴾[1] أي وما كنتم من قبله إلا من الضالين.

وقال الرازي: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2] أي أنعم عليهم وأحسن إليهم ببعثه هذا الرسول . وأن بعثته ﷺ إحسان إلى كل العالمين، وذلك لأن وجه الإحسان في بعثته كونه داعيا لهم إلى ما يخلصهم من عقاب الله ويوصلهم إلى ثواب الله، وهذا عام في حق العالمين، لأنه مبعوث إلى كل العالمين، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾[3] إلا أنه لما لم ينتفع بهذا الانعام الا أهل الاسلام، فلهذا التأويل خص تعالى هذه المنة بالمؤمنين، ونظيره قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾[4]مع أنه هدى للكل، كما قال: (هدى للناس) [5]وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾[6].

---

(١) البقرة: ١٩٨

(٢) آل عمران: ١٦٤

(٣) سبأ: ٢٨

(٤) البقرة: ٢

(٥) البقرة: ١٨٥

(٦) النازعات: ٤٥

ثم يقول: اعلم أن بعثة الرسول إحسان من الله إلى الخلق ثم إنه لما كان الانتفاع بالرسول أكثر كان وجه الإنعام في بعثة الرسل أكثر، وبعثة محمد ﷺ كانت مشتملة على الأمرين:

أحدهما: المنافع الحاصلة من أصل البعثة، والثاني: المنافع الحاصلة بسبب ما فيه من الخصال التي ما كانت موجودة في غيره .

وقال الألوسي:{لَقَدْ مَنَّ الله} أي أنعم وتفضل، وأصل المنّ القطع وسميت النعمة منة لأنه يقطع بها عن البلية وكذا الاعتداد بالصنيعة مناً لأنه قطع لها عن وجوب الشكر عليها، والجملة جواب قسم محذوف أي والله لقد منّ الله {عَلَى المؤمنين} أي من قومه أو من العرب مطلقاً أو من الإنس وخير الثلاثة الوسط وإليه ذهبت عائشة رضي الله تعالى عنها ، أنها قالت هذه للعرب خاصة والأول خير من الثالث وأياً مّا كان فالمراد بهم على ما قال الأجهوري: المؤمنون من هؤلاء في علم الله تعالى أو الذين آل أمرهم إلى الإيمان .

{إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ} أي بينهم {رَسُولاً} عظيم القدر جليل الشأن {مّنْ أَنفُسِهِمْ} أي من نسبهم، أو من جنسهم عربياً مثلهم أو من بني آدم لا ملكاً ولا جنياً و{إِذْ} ظرف لمنّ وهو وإن كان بمعنى الوقت لكن وقع في معرض التعليل كما نص عليه معظم المحققين، والجار إما متعلق ببعث أو بمحذوف وقع صفة لرسولاً والامتنان بذلك إما لحصول الأنس بكونه من الإنس فيسهل التلقي منه وتزول الوحشة والنفرة الطبيعية التي بين الجنسين المختلفين، وإما ليفهموا كلامه بسهولة ويفتخروا على سائر أصناف نوع بني آدم، وإما ليفهموا ويفتخروا ويكونوا واقفين على أحواله في الصدق والأمانة فيكون ذلك أقرب إلى تصديقه والوثوق به ﷺ، وتخصيص المؤمنين بالامتنان مع عموم نعمة البعثة كما يدل عليه

قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾[1] لمزيد انتفاعهم على اختلاف الأقوال فيهم بها، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢ ﴾[2]

وقال ابن عاشور: إن الآية استئناف لتذكير رجال يوم أحد وغيرهم من المؤمنين بنعمة الله عليهم، ومنة ذكره هنا أن فيه من التسلية على مصيبة الهزيمة حظا عظيما إذ قد شاع تصبير المحزون وتعزيته بتذكيره ما هو فيه من النعم وله مزيد ارتباط بقوله: ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡ ﴾[3] وكذلك جاءت آي هذا الغرض في قصة أحد ناشئا بعضها عن بعض متفننة في مواقعها بحسب ما سمحت به فرص الفراغ من غرض والشروع في غيره فما تجد اطراد الكلام يغدو طلقا في حلبة الاستطراد إلا وتجد له رواحا إلى من بعثه.

والمن هنا: إسداء المنة أي النعمة وليس هو تعداد النعمة على المنعم عليه مثل الذي في قوله: ﴿لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ ﴾[4] في سورة البقرة وإن كان ذكر هذا المن منا بالمعنى الآخر والكل محمود من الله تعالى لأن المن إنما كان مذموما لما فيه من إبداء التطاول على المنعم عليه وطول الله ليس بمجحود.

والمراد بالمؤمنين هنا المؤمنون يومئذ وهم الذين كانوا مع النبي ﷺ بقرينة السياق وهو قوله: ﴿إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ ﴾ أي أمتهم العربية .

ومعنى (من أنفسهم) المماثلة لهم في الأشياء التي تكون المماثلة فيها سببا لقوة التواصل وهي هنا النسب واللغة والوطن. والعرب تقول: فلان من بني فلان من أنفسهم أي من

(١) الأنبياء: ١٠٧

(٢) البقرة: ٢

(٣) آل عمران: ١٥٩

(٤) البقرة: ٢٦٤

صميمهم ليس انتسابه إليهم بولاء أو لصق وكأن هذا وجه إطلاق النفس عليه التي هي في معنى المماثلة فكونه من أهل نسبهم أي كونه عربيا يوجب أُنْسَهم به والركون إليه وعدم الاستيحاش منه وكونه يتكلم بلسانهم يجعلهم سريعين إلى فهم ما يجيء به وكونه جارا لهم وربيا فيهم يجعل لهم التصديق برسالته إذ يكونون قد خبروا أمره وعلموا فضله وشاهدوا استقامته ومعجزاته.

الآية الرابعة : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾[1]

يقول الألوسي رحمه الله: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ خطاب للنبي ﷺ والفاء لترتيب مضمون الكلام على ما ينبئ عنه السياق من استحقاق الفارّين الملامة والتعنيف منه ﷺ بمقتضى الجِبِلَّةِ البشرية حيث صدروا عنه وحياض الأهوال مترعة وشمروا للهزيمة والحرب قائمة على ساق، أو من سعة فضاء مغفرته ورحمته والباء متعلقة بـ(لنت) والتقديم للقصر، وما مزيدة للتأكيد وعليه أجلة المفسرين وهو المأثور عن قتادة، وحكى الزجاج الإجماع عليه وفيه نظر، فقد قال الأخفش وغيره يجوز أن تكون نكرة بمعنى شيء، ورحمة بدل منها، وجوز أن تكون صفة لها، وقيل: إنها استفهامية للتعجب والتقدير فبأي رحمة لنت لهم، والتنوين في رحمة على كل تقدير للتفخيم، و{مِنْ} متعلقة بمحذوف وقع صفة لها أي: فبما رحمة عظيمة كائنة من الله تعالى كنت لين الجانب لهم ولم تعنفهم، ولعل المراد بهذه الرحمة ربطه سبحانه وتعالى على جأشه ﷺ وتخصيصه له بمكارم الأخلاق ، وجعل الرفق ولين الجانب مسبباً عن ربط الجأش لأن من ملك نفسه عند الغضب كان

(١) آل عمران: ١٥٩

كامل الشجاعة. قيل: وأفاد الكلام في هذا المقام فائدتين: إحداهما: ما يدل على شجاعته ﷺ، والثانية: ما يدل على رفقه فهو من باب التكميل، وقد اجتمعت فيه ﷺ هاتان الصفتان يوم أحد حيث ثبت حتى كر عليه أصحابه مع أنه عراه ما عراه ثم ما زجرهم ولا عنفهم على الفرار بل آساهم في الغم .

ويقول القشيري رحمه الله: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾: لو سَقْيتَهم صِرْفَ شراب التوحيدِ غيرَ ممزوجٍ بما فيه لهم حظٌّ لتفرقوا عنك، هائمين على وجوههم، غير مطيقين للوقوف لحظةً، {فَاعْفُ عَنْهُمْ} فيما يكون تقصيراً منهم في حقك وتوقيرك، وما عثَرْت عليه مِنْ تفريطهم في خدمتنا وطاعتنا – فانتصِبْ لهم شفيعاً إلينا.

ويقال: {فَاعْفُ عَنْهُمْ} فاعف –أنت– عنهم فإن حكمك حكمُنا، فأنت لا تعفو إلا وقد عَفَوْنا، ثم ردَّه عن هذه الصفة بما أثبته في مقام العبودية، قال: ثم قِفْ في محل التذلل مبتهلاً إلينا في استغفارهم .

ويقال: {فَاعْفُ عَنْهُمْ} وتجاوز عنهم في حقوقك، ولا تكتفِ بذلك ما لم تستغفِرْ لهم إكمالاً للكرم؛ ولهذا كان يقول: (**اللهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**)(١).

ويقال ما يُقصِّرون في حقِّك تعلَّق به حقَّان: حقك وحقي، فإذا عفوتَ أنت فلا يكفي هذا القَدْرُ بل إنْ لَمْ أتجاوز عنهم في حقي كانوا مستوجبين للعقوبة؛ فمن أرضى خصمَه لا يَنْجَبِر حالُه ما لم يغفر الله له فيما ترك من أمره .

(١) البيهقي رقم ١٤٢٨.

وقوله: ﴿ **وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ** ﴾ أي أثْبِتْ لهم محلاً؛ فإنَّ المعفوَ عنه في صدار الخجلة لا يرى لنفسه مقام الكَرامة، فإذا شاورتَهم أزَلْت عنهم انكسارهم، وطيَّبْتَ لهم قلوبهم .

ويقال تجَنَّسوا في أحوالهم: فَمِنْ مُقَصِّر في حقه أُمِرَ بالعفو عنه، ومن مرتكب لذنوبه أُمِرَ بالاستغفار له، ومن مطيعٍ غير مقصرٍ أُمِرَ بمشاورته .

وقال ابن عجيبة رحمه الله في تفسيره: يقول الحقّ جلّ جلاله: فبرحمة من الله ونعمة كنت سهلاً ليناً رفيقاً، فحين عصوا أمرك، وفروا عنك، ألنت لهم جانبك، ورفقت بهم، بل اغتممت من أجلهم مما أصابهم، {ولو كنت فظّاً} جافياً سيىء الخلق {غليظ القلب} قاسيَهُ فأغلظت لهم القول، {لانفضوا من حولك} أي: لتفرقوا عنك، ولم يسكنوا إليك، {فاعف عنهم} فيما يختص بك {واستغفر لهم} في حق ربك حتى يشفعك فيهم {وشاورهم في الأمر} الذي يصح أن يشاور فيه؛ تطييباً لخاطرهم، ورفعاً لأقدارهم، واستخراجاً وتمهيداً لسنة المشاورة لغيرهم، وخصوصاً الأمراء .

قال عليه الصلاة والسلام:(**مَا خَابَ مَنِ اسْتَخَارَ، وَلاَ نَدِمَ مَنِ اسْتَشَارَ**)[1] وقال أيضاً –عليه الصلاة والسلام–: (**إِذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ خِيَارَكُمْ، وَأَغْنِيَاؤُكُمْ أَسخيَاءَكُمْ، وأَمرُكُم شُورَى بَيْنَكُم، فَظَهْرُ الأَرْض خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ بَطْنِهَا، وإذا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ شِرَارَكُمْ وأَغْنِيَاؤُكُمْ بُخَلاءَكُمْ ، وَأُمُورُكُمْ إِلَى نِسَائِكُمْ فَبَطْنُ الأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ ظَهْرِهَا**)[2].

(١) المعجم الصغير للطبراني رقم ٩٨٠ والأوسط له ٦٦٢٧.

(٢) الترمذي رقم ٢٢٦٦ واللفظ له وتهذيب الآثار للطبري رقم ١٥٣.

{فإذا عزمت} على شيء بعد الشورى، {فتوكل على الله} أي: ثق به وكيلاً، {إن الله يحب المتوكلين} فينصرهم ويهديهم إلى ما فيه صلاحهم .

ويقول القرطبي رحمه الله تعالى: والمعنى: يا محمد لولا رفقك لمنعهم الاحتشام والهيبة من القرب منك بعد ما كان من توليهم.

قوله تعالى: ﴿ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ ﴾ قال العلماء: أمر الله تعالى نبيه ﷺ بهذه الاوامر التي هي بتدريج بليغ، وذلك أنه أمره بأن يعفو عنهم ما له في خاصته عليهم من تبعة، فلما صاروا في هذه الدرجة أمره أن يستغفر فيما لله عليهم من تبعة أيضا، فإذا صاروا في هذه الدرجة صاروا أهلا للاستشارة في الامور.

ويقول أبو حيان رحمه الله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡ ﴾ متعلق الرحمة المؤمنون. فالمعنى: فبرحمة من الله عليهم لِنْت لهم، فتكون الرحمة امتن بها عليهم. أي: دمثت أخلاقك ولان جانبك لهم بعدما خالفوا أمرك وعصوك في هذه القراءة ، وذلك برحمة الله إياهم .

وقيل: متعلق الرحمة المخاطب ﷺ، أي برحمة الله إياك جعلك لين الجانب موطأ الأكناف، فرحمتهم ولنت لهم، ولم تؤاخذهم بالعصيان والفرار وإفرادك للأعداء، ويكون ذلك امتناناً على رسول الله ﷺ. ويحتمل أن يكون متعلق الرحمة النبي ﷺ بأن جعله على خلق عظيم، وبعثه بتتميم محاسن الأخلاق والمؤمنين، بأن لينه لهم .

﴿ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ ﴾ بين تعالى أن ثمرة اللين هي المحبة، والاجتماع عليه وأن خلافها من الجفوة والخشونة مؤد إلى التفرق، والمعنى: لو شافههم بالملامة على ما صدر منهم من المخالفة والفرار لتفرّقوا من حولك هيبة منك وحياءً، فكان ذلك سبباً لتفرّق كلمة الإسلام وضعف مادته، وإطماعاً للعدو واللين والرفق

فيكون فيما لم يفض إلى إهمال حق من حقوق الله تعالى. وقال تعالى في حق الكفار: {واغلظ عليهم} وفي وصفه ﷺ في الكتب المنزلة أنه ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب في الأسواق. والوصفان قيل بمعنى واحد، فجمعا للتأكيد.

ويقول ابن عاشور: الفاء للتفريع على ما اشتمل عليه الكلام السابق الَّذي حُكي فيه مخالفة طوائف لأمر الرسول ﷺ من مؤمنين ومنافقين، وما حكي من عفو الله عنهم فيما صنعوا. ولأنّ في تلك الواقعة المحكية بالآيات السابقة مظاهر كثيرة من لين النبي ﷺ للمسلمين، حيث استشارهم في الخروج، وحيث لم يثرِّبهم على ما صنعوا من مغادرة مراكزهم، ولما كان عفو الله عنهم يعرف في معاملة الرّسول إيّاهم، ألاَن الله لهم الرسول ﷺ تحقيقاً لرحمته وعفوه، فكان المعنى: ولقد عفا الله عنهم برحمته فَلاَن لهم الرسول بإذن الله وتكوينه إيّاه راحماً، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾[1].

والباء للمصاحبة، أي لنتَ مع رحمة الله: إذ كان لينه في ذلك كلّه ليناً لا تفريط معه لشيء من مصالحهم، ولا مجاراةً لهم في التساهل في أمر الدّين، فلذلك كان حقيقاً باسم الرحمة .

وتقديم المجرور مفيد للحصر الإضافي، أي: برحمة من الله لا بغير ذلك من أحوالهم، وهذا القصر مفيد التعريض بأنّ أحوالهم كانت مستوجبة الغلظ عليهم، ولكن الله ألاَن خلق رسوله رحمة بهم، لحكمة علمها الله في سياسة هذه الأمَّة .

وزيدت (ما) بعد باء الجرّ لتأكيد الجملة بما فيه من القصر، فتعيّنَ بزيادتها كون التَّقديم للحصر، لا لمجرد الاهتمام .

(١) الأنبياء: ١٠٧

واللِينُ هنا مجاز في سعة الخلق مع أمّة الدعوة والمسلمين، وفي الصفح عن جَفاء المشركين، وإقالة العثرات. ودلّ فعل المضيّ في قوله: {لنت} على أنّ ذلك وصف تقرّر وعرف من خُلقه ، وأنّ فطرته على ذلك برحمة من الله إذ خلقَه كذلك ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[1] ، فخلق الرسول ﷺمُناسب لتحقيق حصول مراد الله تعالى من إرساله، لأنّ الرسول يجيء بشريعة يبلّغها عن الله تعالى، فالتبليغ متعيّن لا مصانعة فيه، ولا يتأثّر بخلق الرسول، وهو أيضاً مأمور بسياسة أمَّته بتلك الشريعة، وتنفيذها فيهم، وهذا عمل له ارتباط قوي بمناسبة خُلق الرسول لطباع أمّته حتَّى يلائم خلقه الوسائل المتوسَّل بها لحمل أمَّته على الشَّريعة الناجحة في البلوغ بهم إلى مراد الله تعالى منهم .

أُرسِلَ محمَّد ﷺ مفطوراً على الرحمة، فكان لِينه رحمة من الله بالأمَّة في تنفيذ شريعته بدون تساهل وبرفق وإعانة على تحصيلها، فلذلك جعل لينه مصاحباً لرحمةٍ من الله أودعها الله فِيه، إذ هو قد بعث للنَّاس كافّة، ولكن اختار الله أن تكون دعوته بين العرب أولَ شيء لحكمةٍ أرادها الله تعالى في أن يكون العرب هم مبلغي الشَّريعة للعالم

والعرب أمَّة عُرفت بالأنفة، وإباء الضيم، وسلامةِ الفطرة، وسرعةِ الفهم، وهم المتلقُّون الأوّلون للدين فلم تكن تليق بهم الشّدة والغلظة، ولكنّهم محتاجون إلى استنزال طائرهم في تبليغ الشريعة لهم، ليتجنّبوا بذلك المكابرةَ الَّتي هي الحائل الوحيد بينهم وبين الإذعان إلى الحقّ .

وورد أن صفح النبي ﷺ وعفوه ورحمته كان سبباً في دخول كثير في الإسلام.

(١) الأنعام: ١٢٤

فضمير {لهم} عائد على جميع الأمَّة كما هو مقتضى مقام التَّشريع وسياسة الأمَّة، وليس عائداً على المسلمين الَّذين عصوا أمر الرسول يوم أُحُد، لأنَّه لا يناسب قوله بعده: {لانفضوا من حولك} إذ لا يُظنّ ذلك بالمسلمين، ولأنَّه لا يناسب قوله بعده: {وشاورهم في الأمر} إذا كان المراد المشاورة للاستعانة بآرائهم، بل المعنى: لو كنت فظّاً لنفر عنك كثير ممّن استجاب لك فهلكوا، أو يكون الضّمير عائداً على المنافقين المعبّر عنهم بقوله: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾[1] فالمعنى : ولو كنت فظّاً لأعلنوا الكفر وتفرّقوا عنك، وليس المراد أنَّك لنت لهم في وقعة أُحُد خاصّة، لأنّ قوله بعده: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ إلخ ينافي ذلك المحمل .

والفَظّ: السيء الخلق، الجافي الطبع، والغليظ القلب: القاسِيه، إذ الغلظة مجاز عن القسوة وقلّة التسامح، كما كان اللين مجازاً في عكس ذلك، وقالت جواري الأنصار لعمر حين انتهرهنّ «أنت أفظّ وأغلظ من رسول الله» يردن أنت فظّ وغليظ دون رسول الله .

والانفضاض: التفرق و{من حولك} أي من جهتك وإزائك، يقال: حَوْله وحَوْلَيه وحَوَالَيْه وحَوَالَه وحِيَالَه وبِحِيَالِه. والضّمير للذين حَوْل رسول الله، أي الَّذين دخلوا في الدّين لأنَّهم لا يطيقون الشدّة، والكلام تمثيل: شبّهت هيئة النفور منه وكراهية الدخول في دينه بالانفضاض من حوله أي الفرار عنه متفرّقين، وهو يؤذِن بأنَّهم حوله متّبعون له .

والتَّفريع في قوله: {فاعف عنهم} على قوله: {لنت لهم} الآية، لأنّ جميع الأفعال المأمور بها مناسب للين، فأمَّا العفو والاستغفار فأمرهما ظاهر، وأمَّا عطف {وشاورهم}

(١) آل عمران: ١٥٤

فلأنّ الخروج إلى أُحُد كان عن تشاور معهم وإشارتهم ، ويشمل هذا الضّميرُ جميع الَّذين لاَن لهم ﷺ وهم أصحابه الَّذين حوله سواء من صدر منهم أمر يوم أحُد وغيرهم.

ويعلق السعدي رحمه الله قائلا: فالأخلاق الحسنة من الرئيس في الدين، تجذب الناس إلى دين الله، وترغبهم فيه، مع ما لصاحبه من المدح والثواب الخاص، والأخلاق السيئة من الرئيس في الدين تنفر الناس عن الدين، وتبغضهم إليه، مع ما لصاحبها من الذم والعقاب الخاص، فهذا الرسول المعصوم يقول الله له ما يقول، فكيف بغيره؟!

أليس من أوجب الواجبات، وأهم المهمات، الاقتداء بأخلاقه الكريمة، ومعاملة الناس بما يعاملهم به ﷺ، من اللين وحسن الخلق والتأليف، امتثالا لأمر الله، وجذبا لعباد الله لدين الله.

ثم أمره الله تعالى بأن يعفو عنهم ما صدر منهم من التقصير في حقه ﷺ، ويستغفر لهم في التقصير في حق الله، فيجمع بين العفو والإحسان.

وقال صاحب الظلال: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

إن السياق يتجه هنا إلى رسول الله ﷺ وفي نفسه شيء من القوم؛ تحمسوا للخروج ثم اضطربت صفوفهم فرجع ثلث الجيش قبل المعركة ؛ وخالفوا –بعد ذلك– عن أمره وضعفوا أمام إغراء الغنيمة ووهنوا أمام إشاعة مقتله وانقلبوا على أعقابهم مهزومين وأفردوه في النفر القليل وتركوه يئخن بالجراح وهو صامد يدعوهم في أخراهم وهم لا يلوون على أحد، يتوجه إليه ﷺ يطيب قلبه وإلى المسلمين يشعرهم نعمة الله عليهم به. ويذكره ويذكرهم رحمة الله الممثلة في خلقه الكريم الرحيم الذي تتجمع حوله القلوب... ذلك ليستجيش كوامن الرحمة

في قلبه ﷺ فتغلب على ما آثاره تصرفهم فيه ؛ وليحسوا هم حقيقة النعمة الإلهية بهذا النبي ﷺ الرحيم، ثم يدعوه أن يعفو عنهم ويستغفر الله لهم... وأن يشاورهم في الأمر كما كان يشاورهم؛ غير متأثر بنتائج الموقف لإبطال هذا المبدإ الأساسي في الحياة الإسلامية .

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ فهي رحمة الله التي نالته ونالتهم؛ فجعلته ﷺ رحيماً بهم ليناً معهم. ولو كان فظاً غليظ القلب ما تألفت حوله القلوب ولا تجمعت حوله المشاعر، فالناس في حاجة إلى كنف رحيم وإلى رعاية فائقة وإلى بشاشة سمحة وإلى ود يسعهم وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم... في حاجة إلى قلب كبير يعطيهم ولا يحتاج منهم إلى عطاء؛ ويحمل همومهم ولا يعنيهم بهمه؛ ويجدون عنده دائماً الاهتمام والرعاية والعطف والسماحة والود والرضاء... وهكذا كان قلب رسول الله ﷺ وهكذا كانت حياته مع الناس. ما غضب لنفسه قط ولا ضاق صدره بضعفهم البشري. ولا احتجز لنفسه شيئاً من أعراض هذه الحياة بل أعطاهم كل ما ملكت يداه في سماحة ندية. ووسعهم حلمه وبره وعطفه ووده الكريم. وما من واحد منهم عاشره أو رآه إلا امتلأ قلبه بحبه؛ نتيجة لما أفاض عليه ﷺ من نفسه الكبيرة الرحيبة.

وكان هذا كله رحمة من الله به وبأمته... يذكرهم بها في هذا الموقف ليرتب عليها ما يريده –سبحانه– لحياة هذه الأمة من تنظيم، (فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر)...اهـ

وأما الأحاديث التي تبرز رحمته ﷺ بالمؤمنين فكثيرة جدا وشاملة لكل فئة من فئات المؤمنين رجالا ونساء كبارا وصغارا أحرارا وعبيدا وسأذكر جملة من هذه الأحاديث منها ما يتعلق بالمؤمنين في أخراهم ومنها ما يتعلق بدنياهم أو بهما معا.

رحمته ﷺ وشفقته على مصير المؤمنين الأخروي:

إن شفقته ﷺ جعلته يدعو ربه قائلا: (**أَيُّمَا مُؤْمِنٍ آذَيْتُهُ أَوْ سَبَبْتُهُ أَوْ جَلَدْتُهُ فَاجْعَلْهَا لَهُ كَفَّارَةً وَقُرْبَةً تُقَرِّبُهُ بِهَا إِلَيْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**)[1]

كما أنه ﷺ يخبر أمته قائلا: (**لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ يَدْعُوهَا فَأُرِيدُ أَنْ أَخْتَبِئَ دَعْوَتِى شَفَاعَةً لأُمَّتِى يَوْمَ الْقِيَامَة**) [2]

أخرج مسلم أنَّ رسول الله ﷺ قرأ قوله تعالى: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾[3] فرفع يديه إلى السماء (**اللهم أمتي أمتي**) ثم بكى فقال الله (**يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلاَ نَسُوءُكَ**)[4]

وذكر صاحب الشفا أن أعرابيا جاء إلى النبي ﷺ يطلب منه شيئا فأعطاه ثم قال (**أحسنت إليك؟**)قال الأعرابي لا، ولا أجملت! فغضب المسلمون وقاموا إليه فأشار إليهم أن كُفُّوا ثم قام ودخل منزله وأرسل إليه وزاده شيئا ثم قال:(**أحسنت إليك؟**) قال نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا. فقال له النبي ﷺ: (**إنك قلت ما قلت وفي أنفس أصحابي من ذلك شيء فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يديَّ حتى يذهب ما في صدورهم عليك**) قال نعم فلما كان الغد أو العشي جاء فقال ﷺ: (**إن هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه فزعم أنه رضي، أكذلك؟**) قال نعم فجزاك الله من أهل

---

(١)مسلم رقم ٦٧٨٧.

(٢)مسلم رقم٥٠٨.

(٣) المائدة: ١١٨

(٤)مسلم٥٢٠

وعشيرة خيرا فقال ﷺ: (**مثلي ومثل هذا مثل رجل له ناقة شردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفورا فناداهم صاحبها خلوا بيني وبين ناقتي فإني أرفق بها منكم وأعلم فتوجه لها بين يديها فأخذ لها من قمام الأرض فردها حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحلها واستوى عليها وإني لو تركتكم حين قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار**)[1] .

تحليل وتعليق: لما قرأ الآية رفع يديه إلى السماء (**اللهم أمتي أمتي**) ثم بكى.. إنها الشفقة الجِبِلِّيَّة التي تجعله ينادي أرحم الراحمين ويدعو أكرم الأكرمين (أمتي أمتي) إنها- وينبغي أن يقبل النحاة ذلك- إضافة رأفة وشفقة يدان مرفوعتان وعينان تذرفان ولسان يلهج بالدعاء (أمتي أمتي) فقال الله يا جبريل..إلخ يجيبه الكريم الوهاب (إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك). هذا الحديث يدل بشكل واضح على مكانة نبي الرحمة ﷺ عند ربه، ويبرز ما اختص به من الرأفة والرحمة بأمته، البكاء والدعاء من أجل شيء واحد (أمتي أمتي) وينبغي أن يتأمل كل واحد منا هذه العبارة (أمتي أمتي) إذ كل واحد منا فرد من هذه الأمة التي يبكي نبي الرحمة ﷺ رحمة بها وشفقة على مصيرها وهذا ما يجعلنا نجتهد في تذوق محبته ﷺ وفي اتِّباعه والدفاع عنه وعن سنته وإذا رأينا من يحاول صدنا عن سنةِ ودعوةِ نبي الرحمة ﷺ فلنتذكر (أمتي أمتي) ولنتذكر في المقابل قول من يحرص على إضلالنا وإغوائنا ﴿**إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ**﴾[2] وإذا قرأنا: ﴿**يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾**﴾[3] فلنتذكر (أمتي أمتي) والنتيجة التي ترضي نبي

(١) الشفاء جزء ١ صـ١٢٤

(٢) ابراهيم: ٢٢

(٣) عبس: ٣٤-٣٦

الرحمة ﷺ (سنرضيك في أمتك) اللهم صل عليه كل ما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

(مثلي ومثل هذا كمثل رجل له ناقة) إن نبي الرحمة ﷺ بعد كلام هذا الأعرابي وردّه السيئ على معروف نبي الرحمة يضرب للصحابة رضي الله عنهم مثلا بسيطا يستوعبه كل أهل الجزيرة وغيرهم (مثل رجل له ناقة شردت عليه واتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفورا) لأنهم لا يعرفون طبيعتها ولا يدرون شيئا عن وسائل جذبها (فناداهم صاحبها خلوا بيني وبين ناقتي) لأنه أرفق بها وأدرى بأحسن وسيلة وأنجع طريقة تردها عن الشرود وتمنعها من الهروب صاحب الناقة أعلم بالشيء المناسب الذي يردها به هل من عادته أن يردها بالبرسيم أم يردها بالماء أم يردها بالملح..إلخ (فتوجه لها بين يديها فأخذ لها من قمام الأرض) لأنه يعرف ما يغريها ويردها أما الآخرون فاتَّبعوها فلم يزيدوها إلا نفورا!(فتوجه لها بين يديها) لأنه يعرف أن ناقته لا يؤتى إليها إلا من الأمام أما الآخرون ولعدم معرفتهم بطبيعتها (فاتبعوها) من الخلف وهو ما يزيدها نفورا وصاحبها يأخذ لها من قمام الأرض لأنه يعرف ما يناسبها أما الآخرون فقد يقدمون لها ماء أو غيره مما لا يجذبها ولا يردها بالإضافة إلى أنهم يتبعونها من الخلف وهذا يخالف طبيعتها.

المهم أن صاحب الناقة أدرى بخصائص ناقته (فردها حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحلها واستوى عليها) ردها بوسائله الخاصة (حتى جاءت واستناخت) وهذا بعيد عن ما كانت عليه من النفور والشرود (وشد عليها رحلها واستوى عليها) وتحقق الهدف ثم يأتي نبي الرحمة ﷺ بالمقصد الأساسي من القصة المعبر عن شفقته الجِبِلِّيَّة ورحمته الفطرية (وإني لو تركتكم حين قال ما قال فقتلتموه دخل النار) القصة كلها تتمركز حول قضية واحدة وغاية محددة (وإني لو تركتكم..إلخ) فنبي الرحمة ﷺ بدافع الرحمة وعظيم

الشفقة يتحمل الإساءة ويرد الصحابة عن هذا الأعرابي ويعامله برفق ويعطيه مرة أخرى -يعاملُه على قدر عقله!!- ثم يسأله هل رضي وعندما تأكد من تغيير موقفه السلبي السابق يقول له: (إنك قلت ما قلت وفي أنفس أصحابي من ذلك شيء) إنها الرحمة بمفهومها الشامل وكأن نبي الرحمة ﷺ لم يتأثر بما قاله الرجل وانشغل بالوسيلة المناسبة التي يأمن بها هذا الأعرابي حتى يعود إلى جادة الطريق من خلال الأساليب التي ترد الشارد وتعيد الهارب (إنك قلت ما قلت وفي نفوس أصحابي من ذلك شيء) أما على مستواه الشخصي فإنه ﷺ أسمى من أن ينتصر لنفسه العظيمة وأعلى من أن يثأرَ لشخصه الشريف (فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يديَّ حتى يذهب ما في صدورهم عليك) وكأن نبي الرحمة ﷺ يلقنه وسيلة تؤمنه ، فمكانة نبي الرحمة ﷺ عند الصحابة رضي الله عنهم عظيمة ورتبته رفيعة وهذا الأعرابي قد نال منه ﷺ وقاموا إليه مغضبين فردهم عنه ﷺ في هذه المناسبة وأراد ﷺ تحديث موقف هذا الأعرابي حتى لا يبقى الصحابة رضي الله عنهم متمسكين بالموقف السابق مما يعرضه في أي وقت للخطر ويريد كذلك الراحة النفسية للصحابة الكرام (حتى يذهب ما في صدورهم عليك) فما سمعه الصحابة الكرام من هذا الأعرابي تجاه نبيهم ﷺ يغضبهم ويزعجهم فنبي الرحمة ﷺ يعطي هذا الرجل العطاء ثم يقابله بسوء مقابل كرمه ﷺ وبرده هذا يكون قد تجاوز الخطوط الحمراء وينبغي أن يوقف عند حده ولكن نبي الرحمة ﷺ يلقن هذا الرجل وسيلة ويعطيه آلية يستطيع من خلالها أن يصلح ما أفسده بموقفه السابق قال ﷺ: (أحسنتُ إليك؟ قال نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا) وبهذا الاعتذار يذهب ما في صدور الصحابة ونفوسهم جراء موقفه منه ﷺ وبه يأمن الأعرابي على نفسه أيضا

وإن في هذا الحديث لدروسا للدعاة والمصلحين الذين نذروا أنفسهم لهداية البشرية ، دروسا في التعالي على ردود الأفعال والتسامي عن عقلية الانتقام وأن نتيجة الصبر وثمرة الصفح تفوق بكثير أسلوب التحقيق وثقافة المحاكمة وتفعل هذه الأخلاق فعلها في نفوس الشاردين وقلوب المناوئين للمنهج بشكل تدريجي بمعنى أن كل خلق حميد مع أحد هؤلاء يزرع بذرة خير في قلبه وفكره ويستأصل بذرة شر من نفسه وعقله وعلى كل قائد أن يأخذ الدروس كذلك من هذا الموقف وغيره من مواقف نبي الرحمة ﷺ: (**وَإِنَّمَا الْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ**)[1] على القائد أن يختار الدفاع عن نفسه في كل موقف والانتقام في كل مناسبة وستترك الجماهير و الجنود له القيام بهذه المهمة أو يختار خيار الصبر والصفح والأنفة عن ردود الأفعال وسيتولى الجنود القيام بمهمة الدفاع عنه.

هذه الصورة المذهلة (وفي أنفس أصحابي من ذلك شيء)، (فإن شئت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب ما في صدورهم عليك) تحير الألباب كيف يتوسط القائد بين من اعتدى عليه شخصيا وبين الجنود وكأن الاعتداء كان خاصا بالجنود دون القائد بدليل (حتى يذهب ما في صدورهم عليك) فكأن المشكلة خاصة ومحصورة بين جهتين لا ثالث لهما وهما الصحابة من جهة وهذا الأعرابي من جهة ونبي الرحمة ﷺ وسيط لإعادة السلم ونزع فتيل الفتنة بين الطرفين !!

...جمعنا الله بك يا عظيم القدر في در الكرامة.

(١) المعجم الأوسط للطبراني٢٦٦٣.

رحمته بالصبية والأمهات والأبناء

يقولﷺ: **(إِنِّي لأَقُومُ فِى الصَّلاَةِ أُرِيدُ أَنْ أُطَوِّلَ فِيهَا، فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِىِّ، فَأَتَجَوَّزُ فِى صَلاَتِى كَرَاهِيَةَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ)**(١)

عن عائشة رضي الله عنها قالت جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال تقبلون الصبيان؟! فما نقبلهم فقال ﷺ: **(أَوَ أَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللَّهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ)**(٢) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: **(قَبَّلَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ وَعِنْدَهُ الأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ جَالِسًا فَقَالَ الأَقْرَعُ إِنَّ لِي عَشَرَةً مِنَ الْوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ مَنْ لاَ يَرْحَمُ لاَ يُرْحَمُ)** (٣)

تحليل وتعليق: انظروا إلى هذه الرحمة التي تمنعه من إطالة شعيرة جعلت قرة عينه فيها وراحته النفسية في أدائها ومن المعروف أن شعاره ﷺ دائما: **(أرحنا بها يا بلال**[٤]) ولكن هذه الراحة إذا زاحمتها مشقة صبي أو أمه فإنه ﷺ يقدم راحة الأم بسكوت صبيها على راحته ﷺ في إطالة الصلاة .

(أتقبلون الصبيان؟! فما نقبلهم) هذا الرجل يتحدث عن ظاهرة سائدة وطريقة متبعة عند الأعراب ونبي الرحمة ﷺ ربط منهج هذا الأعرابي بمرض خطير وداء عضال وهو نزع الرحمة من القلب هذه العبارات النبوية تصحح كثيرا من المفاهيم الخاطئة والتصورات

(١) البخاري رقم ٧٠٧.

(٢) البخاري ٥٩٩٨ مسلم ٢٣١٧

(٣) رواه البخاري ٥٩٩٧ مسلم ٢٣١٨

(٤) أبو داوود رقم ٤٩٨٧.

المغلوطة لهذا الرجل وغيره ويدل فحواها على أن عدم تقبيل الصبيان ولو برّره صاحبه بالأنفة وعدم الاستكانة والضعف فإنه يدل على جفاف في العاطفة وتحجر في المشاعر وعندما تنزع الرحمة من القلب مع الضعفاء فإن ذلك نذير شؤم ومؤشر هلاك.

(قبل رسول الله ﷺ الحسن..إلخ) قبله في هذا الوقت وأمام الأقرع حتى يعطي نبي الرحمة ﷺ الأقرع وغيره درسا عن الرحمة ومفهومها مبينا أنها أمر فطري و شعور جِبِلِّيٌّ يأتي في عفوية وعدم تكلف بمعنى أن العاطفة إذا تحركت ينبغي أن يبرزها الإنسان بالوسائل المعبرة رحمةً بالصغير ورأفةً به (فقال الأقرع إن لي عشرة ..إلخ) نظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: (**من لا يرْحَمْ لا يُرْحَمْ**) بعد أن علَّق الأقرع بن حابس أجابه ﷺ وجمع له بين النظر بالعين والقول باللسان واستخدم (مَنْ) التي تدل على العموم وأعطى للقضية بعدا جديدا محفزا لكل إنسان عاقل أن يرحم الصغار والضعفاء كي يرحمه الله ومن لا يرحم فإنه بفعله هذا سبب لنفسه كارثة عظمى وهي عدم الرحمة ، والجزاء من جنس العمل (**من لا يَرْحَم لا يُرْحم**).

رحمته بالصغار، وتفهمه لميلهم الفطري وحرصهم على اللَّعب..

تقول عائشة رضي الله عنها والله (لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُومُ عَلَى بَابِ حُجْرَتِي وَالْحَبَشَةُ يَلْعَبُونَ بِحِرَابِهِمْ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَسْتُرُنِي بِرِدَائِهِ لِكَيْ أَنْظُرَ إِلَى لَعِبِهِمْ ثُمَّ يَقُومُ مِنْ أَجْلِي حَتَّى أَكُونَ أَنَا الَّتِي أَنْصَرِفُ فَاقْدُرُوا قَدْرَ الْجَارِيَةِ الْحَدِيثَةِ السِّنِّ حَرِيصَةً عَلَى اللَّهْوِ)(١) .

تحليل وتعليق: إنها التربية الايجابية من خلال الرأفة والرحمة، إن عائشة رضي الله عنها تروي هذه القصة بتفاصيلها وكأنها تقول للمربين هذا رسول الله ﷺ الأسوة والقدوة وهذا أسلوبه في التربية (يسترني بردائه) وهذا دليل على أن الحفاظ على الستر والبقاء على الحشمة ينبغي أن يكونا مصاحبين لكل نشاط ترفيهي،(وإني لأنظر إلى لعبهم) إن قصة عائشة رضي الله عنها يمكن أن تصنف في باب التعامل مع الصغار ، ويمكن أن تصنف في باب التعامل مع الزوجة، (ثم يقوم من أجلي) وكأنها تقول هذا أفضل البشرية، وأكرم الإنسانية، نبي الرحمة ﷺ، وأنا طفلة صغيرة، أحب اللعب كعادة الأطفال، وأنظر إلى لعب هؤلاء الحبشة، ولا يكتفي ﷺ بالسماح لي بالنظر إلى لعبهم بل يقوم من أجلي حتى أكون أنا التي أنصرف وكأنه موقف عجيب احتفظت به ذاكرتها حتى حدثت به الأجيال اللاحقة فنبي الرحمة ﷺ يقوم من أجلها ويَدَعُها تشاهد لعبهم كطفلة تميل إلى اللعب حفاظا على نفسيتها وإشباعا لميلها ولهذا ختمت رضي الله عنها القصة بقولها: (فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو). وكأنها بهذه الخاتمة تبين السبب

(١) رواه البخاري ٥١٩٠ ومسلم ٢١٠١

وتوضح الحكمة التي جعلته يسمح لها بمشاهدة لعب هؤلاء بل يقوم من أجلها (فاقدروا قدر الجارية..إلخ)

أيها المربون الكرام.. إن من طبيعة الأطفال الفطرية أنهم يميلون إلى اللعب وهذه الطبيعة ينبغي للآباء والمربين أن يستوعبوها ولهذا عللت عائشة رضي الله عنها بإقرار من النبي ﷺ نظرها إلى لعب الحبشة بقولها (فاقدروا قدر الجارية...إلخ) هذا ما ذكرته عائشة رضي الله عنها عن نبي الرحمة ﷺ حين كانت في هذه السن ثم إن مستقبل عائشة رضي الله عنها كان مستقبلا زاهرا بكل المعايير شهد به التاريخ (أحفظ نساء الأمة).

(فاقدروا قدر الجارية..إلخ) واقدروا قدر الطفل الحديث السن!،،

قلت: وبهذه المناسبة فإنه ينبغي للأب أو المربي أن يَعُود بالذاكرة إلى أيام طفولته ويعرض شريط تحركاته ويفتح دفتر طموحاته و سجل ذكرياته في تلك المدة وعليه أن يستحضر ثقافة الترفيه واللعب في ذلك الزمان وليكن صريحا وجريئا في الحديث عن موقفه من تلك الثقافة وهل كان يحب من يضيق عليه ويمنعه من اللعب ؟ عليه أن يحدثنا بعقلية الطفل وثقافة الصغير ونفسيته وإذا حدثنا بعقلية الرجل الرشيد والداعية المصلح فعليه أن يتذكر على الأقل في هذا السياق قوله تعالى (كذلك كنتم من قبل) هذه الآية وإن كانت في سياق الحديث عن الجهاد ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾[1] إلا أنها تدل على المراحل التي يمر بها الإنسان، وأهمية مراعاتها (كذلك

(١) النساء: ٩٤

كنتم من قبل) على كفر و شرك (فمنَّ الله عليكم) بالهداية والإسلام، وبناء على هذه المآلات (فتبينوا) أي تثبتوا قبل أيِّ تَصَرُّفٍ وكأن لسان الحال ومنطق الواقع يقول: عندما كنتم كفارا لاشك أنكم لا ترضون ولا تحبون أن يفعل بكم ما فعل بهذا الرجل الذي أعلن إسلامه وقتل بناء على أنه يظهر شيئا ويبطن عكسه ﴿فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ فإعلان الشهادتين –في قاموس هذا الدين– درع واق، وسياج حديدي يقي من ضربات الجنود البواسل، وأنتم أيها الآباء والمربون قبل أن تحاولوا قسرا تجريد الطفل من طفولته والجارية من صغرها عليكم أن تتدبروا أثناء ذلك (كذلك كنتم من قبل) تميلون إلى اللعب واللهو (فمن الله عليكم) بالعقل والرشد ورصيد التجربة وما عليكم إلا أن تتمسكوا بالقانون التربوي الذي قدمته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها للمربين:(فاقدروا قدر الجارية!) واقدروا قدر الطفل! هذه صفات الجارية الصغيرة وتلك صفات الطفل الصغير وأنتم أيها الآباء والمربون... (كذلك كنتم من قبل)!!.

قلتُ: وبعد أن سجلت هذه الخاطرة وجدت ابن عاشور رحمه الله تكلم عنها بكلام جميل فنقلته استئناسا وتكميلا للفائدة حيث يقول:

(وهذه تربية عظيمة، وهي أن يستشعر الإنسان عند مؤاخذته غيره أحْوالاً كان هو عليها تساوي أحوال مَن يؤاخذه، كمؤاخذة المعلّم التلميذ بسوء إذا لم يقصّر في إعمال جهده. وكذلك هي عظة لمن يمتحنون طلبة العلم فيعتادون التشديد عليهم وتطلّب عثراتهم ، وكذلك ولاة الأمور وكبار الموظّفين في معاملة من لنظرهم من صغار الموظّفين، وكذلك الآباء مع أبنائهم إذا بلغت بهم الحماقة أن ينتهروهم عن اللعب المعتاد أو على الضجر من الآلام .

وقد دلّت الآية على حكمة عظيمة في حفظ الجامعة الدينية ، وهي بثّ الثقة والأمان بين أفراد الأمّة، وطرح ما من شأنه إدخال الشكّ لأنّه إذا فتح هذا الباب عسر سَدّه، وكما يتّهم المتّهمُ غيرَه فللغير أن يتّهم مَن اتّهمه، وبذلك ترتفع الثقة، ويسهل على ضعفاء الإيمان المروق، إذ قد أصبحت التهمة تُظلّ الصادق والمنافق، وانظر معاملة النبي ﷺ المنافقين معاملة المسلمين. على أنّ هذا الدين سريع السريان في القلوب فيكتفي أهله بدخول الداخلين فيه من غير مناقشة، إذ لا يلبثون أن يألفوه، وتخالط بشاشتُه قلوبَهم، فهم يقتحمونه على شكّ وتردّد فيصير إيماناً راسخاً، وممّا يعين على ذلك ثقة السابقين فيه باللاحقين بهم.

ومن أجل ذلك أعاد الله الأمرَ فقال : { فتبَيّنوا } تأكيداً ل (تبينّوا) المذكورِ قبْله ، وذيَّله بقوله : { إنّ الله كان بما تعملون خبيراً } وهو يجمع وعيداً ووعداً،أهـ.)

رحمته صلى الله عليه وسلم بالنساء

يقول ﷺ: (**اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلاَهُ فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاء**)[١] ويقول ﷺ: (**أَلاَ وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا فَإِنَّمَا هُنَّ عَوَانٌ عِنْدَكُم**)[٢]

تحليل وتعليق: في هذين الحديثين الشريفين تبرز رحمة النبي ﷺ ورأفته بالنساء (استوصوا بالنساء خيرا) إنه أمر للرجال ، ولا شك أن المسلم السوي يمتثل أمر نبيه ﷺ واستوصوا بالنساء (خيرا) لأنه لفظ شامل لأنواع الخير القولية والفعلية المادية والمعنوية... إلخ.

ولأهمية الأمر بدأ نبي الرحمة ﷺ بالوصية وختم بها وأعطى صورة عجيبة لطبيعة المرأة وتكوينها النفسي الهدف من ذلك أن يتحمل الرجل ويصبر باعتباره صاحب القوامة ويتميز بخصوصية الرجولة التي تدل على الصلابة والقوة ثم ذكَّر الرجل بشيء هام وكأنه من المبررات والدواعي لهذه الوصية (فإنهن عوان عندكم) بمعنى أنكم أيها الرجال لكم اليد العليا في سير الأحداث و مختلف المواقف فالإسلام قد جعل عقدة النكاح بأيديكم قال تعالى: ﴿أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ﴾[٣] هذا المغنم لا بد أن يقابله مغرم والخراج بالضمان كما يقول العلماء (فإنهن عوان عندكم) وأنتم تتمسكون ببند وتتمتعون بصلاحية لا توجد عند غيركم قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾[٤]

---

(١) البخاري رقم ٥١٨٦ ومسلم رقم ٦٠.

(٢) رواه الترمذي رقم ١١٩٦.

(٣) البقرة: ٢٣٧

(٤) النساء: ٣٤

والحذرَ الحذرَ أن تستغلوا هذه الصلاحيات استغلالا سيئا إنها قوامة ولكن ينبغي أن يتحلى صاحبها بخصائص الرجولة من شهامة وعزة و مروءة وكرم وأن يحمل الرجل شعار ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾[1] (فإنهن عوان عندكم) إنَّ وقْع هذه الجملة شديد على نفوس أصحاب القلوب الحية إذ لا حول لهن ولا قوة لأنهن بمنزلة الأسير عندكم والأسير قد رغب الشارع في الإحسان إليه وهو في كثير من الأحيان يكون غير مسلم قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾[2] والنتيجة النهائية ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾[3] إذا كان هذا جزاء إكرام الأسير فكيف بمن جعل الله الرحمة والمودة بينهما آية من آياته قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾[4] إن نبي الرحمة ﷺ يرفع هذا الشعار الفريد من نوعه الذي لم تعرفه البشرية ولن تعرفه إلا في ظل هذا الإسلام العظيم وهدي نبيه الكريم (ألا واستوصوا بالنساء خيرا).

(١)البقرة: ٢٣٧

(٢) الإنسان: ٨

(٣) الإنسان: ١١- ١٢

(٤) الروم: ٢١

رحمته صلى الله عليه وسلم بمن يحاول ممارسة الغلو في العبادة

يقول ﷺ لعبد الله بن عمرو: (**أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ النَّهَارَ وَتَقُومُ اللَّيْلَ فَقُلْتُ بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ فَلاَ تَفْعَلْ صُمْ وَأَفْطِرْ وَقُمْ وَنَمْ فَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَإِنَّ لِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا**)[1].

تحليل وتعليق: إنها الرحمة الجِبِلِّيَّة في أبهى صورها والوسطية الفطرية في أشمل جوانبها وقد عبر ﷺ عن هذا المنهج في مناسبة أخرى مصوراً لمآلات الغلو تصويراً جميلاً حيث يقول: (**إِنَّ الْمُنْبَتَّ لاَ أَرْضًا قَطَعَ ، وَلاَ ظَهْرًا أَبْقَى**)[2] إن نبي الرحمة ﷺ بدافع الشفقة وعامل الرأفة لا يريد أن يستنفد جانبٌ واحد طاقةَ المسلم وجهدَه على حساب جوانب أخرى من أساسيات المنهج ومن رحمته ﷺ وهو الذي تفطرت قدماه من شدة العبادة– أن يقدم للنفس البشرية ما يناسب فطرتها التي فطرها الله عليها فكان توجيهه ﷺ لهذا الشاب العابد الورع (إن لزوجك عليك حقاً) علاجا شافياً من مرَضَي الغلو والترخص فنبي الرحمة ﷺ يريد الشخصية المتوازنة والخيرية المتكاملة لأن التوازن سبيلٌ إلى الاستمرارية والتكامل سبيلٌ إلى شمولية الخير في جوانب الحياة المختلفة إن توجيهه ﷺ لهذا الشاب رحمة به ورحمة بالمرأة أيضا وشفقة ورغبة منه صلى الله عليه وسلم في حصولها على حقوقها الفطرية والغريزية والاجتماعية وقوله ﷺ: (وإن لزورك عليك حقاً) فيه إشارة إلى أن الإنسان مدني بطبعه وأنه جزء من كل وفرد من جماعة وأنه لا ينبغي أن يعيش معزولاً عن إخوته في الله بل المطلوب أن يشاركهم أفراحهم وأتراحهم آمالهم وآلامهم وأن يكون ضمن قائمة

(١) رواه البخاري رقم ١٩٧٥.

(٢) السنن الكبرى للبيهقي رقم ٤٩٣١.

﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾[1] مستشعرا قول نبي الرحمة ﷺ: (**الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ، وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ، أَعْظَمُ أَجْرًا مِنَ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لاَ يُخَالِطُ النَّاسَ، وَلاَ يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ**)[2] إن نبي الرحمة ﷺ من خلال هذا التوجيه يرسم منهجا متوازنا يستطيع المسلم من خلاله أن يضرب في كل غنيمة بسهم، أرشدَهم رحمة بهم وحرصا منه ﷺ على ما ينفعهم في دنياهم وأخراهم (فلا تفعل) وكأن نبي الرحمة ﷺ يقول له إن فعلك هذا يصادم منهج الوسطية الذي يضمن لك لزوم السنة والاستمرار في فعل الطاعة (صم وأفطر ونم وقم)، واعلم أن جسدك الذي تفعل به هذه الطاعات فإن (له عليك حقا) فلا بد أن تعطيه حقه من الراحة حتى تشملك الخيرية التي ذكرها النبيﷺ في قوله: (**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيف**)[3] وينبغي أن تكون نيتك مصاحبة لكل نشاط و موازية لكل حركة وأن توظف نومتك كما توظف قومتك ، كما قال الصحابي الجليل معاذ بن جبل ﷺ مخاطبا أبا موسى الأشعري ﷺ: (**أَمَّا أَنَا فَأَحْتَسِبُ نَوْمَتِي كَمَا أَحْتَسِبُ قَوْمَتِي**)[4] إن نبي الرحمة ﷺ يريد أن يكون شعارك دائما ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢﴾[5] والخلاصة أن النبي ﷺ تظهر بصمات رحمته في جميع جوانب حياتك أيها المؤمن وتتجلى في دنياك وفي أخراك أو فيهما معا.

---

(١) المائدة: ٢

(٢)الأدب المفرد للبخاري رقم ٣٨٨.

(٣) مسلم٣٤

(٤) البخاري رقم ٤٣٤٢.

(٥) الأنعام: ١٦٢

رحمته صلى الله عليه وسلم بمن ابتلي من أمته بمكروه

يقول ﷺ: (**لاَ تُظْهِرِ الشَّمَاتَةَ لأَخِيكَ فَيَرْحَمُهُ اللَّهُ وَيَبْتَلِيكَ**) (١)

تحليل وتعليق: إن نبي الرحمة ﷺ بدافع الشفقة والرأفة لا يحب للمؤمن المبتلى بأمر قدره الله عليه أن ينتهز غيرُه فرصة هذا الضعف شماتةً به بل الواجب أن يحزن كلٌ منا إذا أصيب أخوه المؤمن بمكروه لأننا جسد واحد وهذا المؤمن المبتلى جزء من هذا الجسد يقول نبي الرحمة ﷺ: (**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِى تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**)(٢).

وإذا فقدت أخي القارئ الإحساسَ والشعورَ بألم أخيكَ المؤمن وكنت لا قدر الله ممن وصفه المتنبي... ما لجرح بميت إيلام ، فاعلم أنك حينئذ قد عرضت نفسك لكارثة لا تعرف مدى خطورتها (فيرحمه الله ويبتليك) والجزاء من جنس العمل فالنبي ﷺ من شدة رحمته وكامل رأفته لا يحب الشماتة بأخيك.

ومن رأفته ورحمته بك أيضاً يأتي تحذيره لك من هذا المصير (فيرحمه الله ويبتليك) والعاقل من اتعظ بغيره.

---

(١) الترمذي رقم ٢٥٠٦.

(٢) مسلم٦٧٥١

رحمته بمن لم يولد من أبناء المسلمين وحرصه على رفاهيتهم و كرامتهم

يقول ﷺ مخاطبا أحد الصحابة: (**إِنَّكَ إِنْ تَرَكْتَ وَلَدَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَتْرُكَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ**) (١)

تحليل وتعليق: إنها رحمة منه ﷺ بولدك و رأفة بذريتك (إن تركت ولدك أغنياء) وهذا يقتضي التخطيط الدقيق لمستقبل الأبناء حتى يحصل الوالد على هذه الخيرية ويتمتع الأبناء بالرفاهية (خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس) فنبي الرحمة ﷺ له شفقة بأبنائك ورحمة بأولادك وهذه الرأفة هي التي جعلته لا يرضى (أن تتركهم عالة يتكففون الناس) ولكنه ﷺ بدافع الرحمة يحب لأبنائك أن يعيشوا في قمة العز وذروة الكرامة ولو بعد موتك مصداقا لقوله تعالى: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ ﴾(٢) وفي هذا الحديث لفتة قوية ودعوة ضمنية إلى الاهتمام بالمجال الاقتصادي إذ لو عمل كل مسلم بهذا التوجيه النبوي الشريف راجيا من ورائه الخير الكثير لما كان المسلمون يتكففون الناس ومن رحمته ﷺ (وإنك لن تنفق نفقة إلا أجرت عليها) تبرز من هذا التوجيه جوانب من رحمته ﷺ منها حرصه على أن تنال الأجر من خلال النفقة على المحاويج حيث دعى في كثير من المناسبات إلى سد حاجتهم وإزالة كربتهم: (**وَاللَّهُ فِى عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِى عَوْنِ أَخِيه**)(٣) ثم نبه النبي ﷺ بدافع الرأفة والرحمة بالمؤمنين إلى شيء قد يغفل عنه كثير من الناس (حتى اللقمة

(١) رواه البخاري رقم ٦٧٣٣.

(٢) الأحزاب: ٦

(٣) مسلم رقم ٧٠٢٨.

ترفعها إلى في امرأتك) إن النفقة على الزوجة والأولاد من الواجبات بمعنى أن من تركها وهو قادر عليها فإنه يأثم وإذا أدى المسلم النفقة فإنه يسلم من الإثم ولكن نبي الرحمة ﷺ يوجهك هذا التوجيه الفريد (حتى اللقمة...إلخ) حرصا منه ﷺ وشفقة ورحمة بالمرأة لتعيش في رغد من العيش وأمن من المجاعة وهو في نفس الوقت رحمة منه ﷺ بك لتؤدي الواجب لا لمجرد السلامة من الإثم بل لحصول الأجر من خلال عمل قليل وقد تفعله عادة لا عبادة.

رحمته صلى الله عليه وسلم باليتيم

يقول ﷺ: (**أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا شَيْئًا**)(١).

تحليل وتعليق: إنها الشفقة والرحمة والعاطفة والرأفة بهذه الفئة (اليتامى) ويأتي نبي الرحمة ﷺ بهذا التوجيه المتضمن الدعوة إلى المسابقة إلى هذا الهدف النبيل وهو تصوير عجيب يجعل الأغنياء والموسرين وذوي الطوْل والقادرين يتسابقون إلى كفالة اليتيم ويكفي تشجيعاً للمؤمن القادر على ما يقدمه لليتيم أن يكون بهذه المنزلة ولاشك أنه سيبحث عنها وهذا ما يضمن لليتيم عيشا كريما بين المؤمنين الموسرين والمسلمين القادرين.

إنها صورة عجيبة (أنا وكافل اليتيم...إلخ) تعمل عملها في قلوب المؤمنين والخير باق في هذه الأمة إنها رأفة ورحمة بالطرفين، اليتيم سيعيش في رغد من العيش، والكافل سيدخل الجنة مع النبي ﷺ قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾(٢)

(١) البخاري رقم ٥٣٠٤.

(٢) آل عمران: ١٨٥

رحمته صلى الله عليه وسلم بالكبير

يقول ﷺ: **(إِنَّ مِنْ إِجْلاَلِ اللَّهِ إِكْرَامَ ذِى الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِى فِيهِ وَالْجَافِى عَنْهُ وَإِكْرَامَ ذِى السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ)**(١)، ويقول ﷺ: **(لَيْسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَمْ يُجِلَّ كَبِيرَنَا)** (٢)، ويقول ﷺ: **(مَا أَكْرَمَ شَابٌّ شَيْخًا لِسِنِّهِ إِلاَّ قَيَّضَ اللَّهُ لَهُ مَنْ يُكْرِمُهُ عِنْدَ سِنِّهِ)** (٣).

تحليل وتعليق: إنها رحمة عظيمة وشفقة فريدة بفئة تحتاج إلى من يهتم بها، ولهذا أخبر نبي الرحمة ﷺ بأن إكرام أحد هذه الفئة من المجتمع هو من إجلال الله وتعظيمه ويكفي هذا تحفيزاً لأصحاب القلوب الحية التي تبحث عن رِضَى الله..

إن تخصيص ذي الشيبة والحث على إكرامه ليبرهن على مراعاة الإسلام –ومن خلال بيان نبي الرحمة ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى– بالحالة الإنسانية فذو الشيبة شخص إن كان في السابق صاحب عطاء فقد جفت منابع هذا العطاء وإن كان صاحب جمالٍ فقد ولى ذلك الجمال وإن كان صاحب علاقات لها وزنها فقد يكون حبلها انقطع وعقدها انفرط لأن العلاقات عند كثير من الناس مبنية على قانون المعاوضة ونظام المقايضة وكل ما اقترب الإنسان من الطفولة الثانية التي أشار إليها القرآن الكريم، ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ ﴾(٤) فإنه

(١) الأدب المفرد للبخاري رقم ٣٥٧ وأبو داوود رقم ٤٨٤٥ والبيهقي رقم ١٧١٠١.

(٢) رواه أحمد رقم ٢٣٤٢٥ واللفظ له والهيثمي رقم ١٢٦١٠.

(٣) رواه الترمذي رقم ٢٠٢٢ واللفظ له والطبراني في الأوسط رقم ٦٠٥٦ والبيهقي رقم ١٠٥٥٥.

(٤) الروم: ٥٤

يحتاج ما يحتاجه الطفل في مرحلة الضعف الأولى لأنه في هذه الحالة يأخذ ولا يعطي يوصي عليه رحمة به ورحمة بمن أكرمه ولهذا يشير نبي الرحمة ﷺ إلى أن إكرام هذا النموذج من المسلمين هو من إجلال الله وتعظيمه إنها الرأفة التي ينبغي أن يتعلم منها دعاة حقوق الإنسان في هذا العصر كثيرا من الدروس، ثم يقول ﷺ: (**ليس من أمتي من لم يجل كبيرنا**) إن إجلال ذي الشيبة من إجلال الله تعالى كما أن عدم إجلال الكبير يعد نشازاً في قاموس هذه الأمة المرحومة ولهذا عبر نبي الرحمة ﷺ بأسلوب النفي (ليس من أمتي) من تمرد على هذه الأخلاق النبيلة والمبادئ الأصيلة وعبر ﷺ بهذا اللفظ (كبيرنا) حتى يبين لنا أن هذا الكبر نسبي فكل جماعة ينبغي أن تجل كبيرها وترحم صغيرها وبهذا التوجيه النبوي يعيش المجتمع في جو من الاحترام المتبادل والسلم الاجتماعي المقنن الذي ينال أصحابه رضى الله، إن نبي الرحمة ﷺ يرسم هذه المبادئ النبيلة (**ليس من أمتي من لم يجل كبيرنا**) رحمة منه بنا وحرصا منه ﷺ على أن يتربى أفراد أمته على الذوق الراقي والتصرف السليم تجاه الكبير وعندما يكرم أفراد الأمة ذا الشيبة ويجلون الكبير فلن يحتاج الشيخ الهرم والمرأة العجوز إلى أن يرمى كل منهما في دور العجزة، إننا نحن المسلمين نحتاج إلى دراسة ديننا الحنيف حتى نبرز من خلاله معالم سموه وتفوقه على سائر الأنظمة والقوانين التي يتشدق أصحابها بالإنسانية ثم يأتي نبي الرحمة ﷺ بتوجيه هو بمنزلة التأصيل لقاعدة الجزاء من جنس العمل (**ما أكرم شاب شيخاً**) لأن الشاب يتمتع بطاقات وإمكانات لا تتوفر لدى الشيخ لأن الشيخ الذي بلغ من الكبر عتياً، كثيرٌ من قدراته قد نهبتها الأيام والليالي ولم يبق معه إلا عقل التجربة ورصيد الذكريات وشوق الحنين إلى ظرف زمني جمعه بأقران قد ذهبوا عن هذه الحياة وذهبت معهم تقاليد كان يألفها ومصطلحات كان يتقنها هذه المعطيات والعوامل كلها تجعل

الشيخ الكبير يحتاج إلى من يكرمه ويساعده ولكن نبي الرحمة ﷺ يبشر هذا الشاب أو ذاك بأن عمله هذا لن يضيع سدى بدليل (**إلا قيض الله له من يكرمه لسنه**) هكذا الحياة يمشي جيل ويأتي آخر فشباب اليوم شيوخ الغد ونبي الرحمة ﷺ يرغب شباب اليوم بإكرام الشيوخ الكبار والنتيجة الثواب الجزيل والجزاء الحسن مخبراً ﷺ أن الله سيقيض لهم من يكرمهم عندما يكرمون شيخاً، وسيقيض لهم من يكرمهم عندما يكونون في حالة ضعف ووقت حاجة ويحتاجون إلى من يكرمهم وهذا يجعل كل شاب يسعى منتهزاً فرصة النشاط والحيوية لخدمة الكبير حتى يقيض الله له من يكرمه في الدنيا وينال الأجر في الآخرة ولا مفهوم هنا للشاب بل الحكم شامل للذكر والأنثى لأن هدف نبي الرحمة ﷺ أن تعيش الأمة على نهج فريد من التعاون والتكافل وكلما تقدمت السن بجيل أكرمه الجيل الذي بعده والأرض تلبس كل مائة سنة تقريباً لباسا بشرياً ولا ينقشع هذا اللباس حتى تلبس لباسا بشرياً آخر وهكذا تتعاقب الأجيال جيل بعد جيل واللاحق يكرم السابق اختياراً لم يلزمه بهذا الإكرام قانون وضعي أو نظام أرضي وإنما تقوده جاذبية الطاعة ويسوقه رضى الله عز وجل وتعمل فيه سياط: ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ** ۝٧ ﴾

رحمته المجسدة في حرصه على بر وصلة الوالدين ولو كانوا كفاراً أو أمواتاً

روى البخاري ومسلم (عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ –رضى الله عنهما– قَالَتْ قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهْيَ مُشْرِكَةٌ، فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قُلْتُ: {إِنَّ أُمِّي قَدِمَتْ} وَهْيَ رَاغِبَةٌ، أَفَأَصِلُ أُمِّي قَالَ: «**نَعَمْ صِلِي أُمَّكِ**»)(١).

وسأل رجل النبي ﷺ فقال يا رسول الله ﷺ هل بقي من بر أبوي شيء بعد موتهما أبَرُّهما؟ قال (**نَعَمْ، خِصَالٌ أَرْبَعٌ: الدُّعَاءُ لَهُمَا، وَالِاسْتِغْفَارُ لَهُمَا، وَإِنْفَاذُ عَهْدِهِمَا، وَإِكْرَامُ صَدِيقِهِمَا، وَصِلَةُ الرَّحِمِ الَّتِي لاَ رَحِمَ لَكَ إِلاَّ مِنْ قِبَلِهِمَا**) (٢)

ويقول ﷺ في: (**إِنَّ مِنْ أَبَرِّ الْبِرِّ صِلَةَ الرَّجُلِ أَهْلَ وُدِّ أَبِيهِ بَعْدَ أَنْ يُوَلِّيَ**) (٣).

تحليل وتعليق: قدمت علي أمي...

إن أسماء رضي الله عنها امرأة مؤمنة صادقة مجاهدة مهاجرة وهي ذات النطاقين– وكفى!!– وبناءً على هذه المكانة لا يمكن أن تقدم على أمرٍ له علاقة بالولاء والبراء إلا بعد أن تسأل عنه نبي الرحمة ﷺ امتثالاً لقوله تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١**﴾(٤)

والجميل أنها تعطي الصورة الكاملة لنبي الرحمة ﷺ في قصة مجيء أمها:

---

(١) البخاري رقم ٢٦٢٠ومسلم رقم ٢٣٧٢

(٢)البخاري رقم ٣٥ والحاكم رقم ٧٢٦٠وأبو داوود رقم ٥١٤٢.

(٣) مسلم رقم ٦٦٧٩.

(٤) الحجرات: ١

أولاً تبين له صلة القرابة لما يترتب على هذه الصلة (قدمت علي أمي) ثانياً تذكر له جانب القضية الأدبي والأخلاقي (وهي راغبة) ثالثاً تسأله بأسلوب استفهامي جميل (أفأصل أمي؟) ثم يأتي نبي الرحمة ﷺ بجوابٍ شافٍ وشامل (نعم صلي أمك) فكلمة (نعم) جوابٌ إجمالي على سؤالها ولكنه أعقبه بتصريح وتفصيل بكلمات مختصرة وقليلة ولكنها تحمل الكثير من الرأفة والرحمة بذات النطاقين وتحمل كذلك الكثير من أسس الأخلاق وجماليات الذوق بمعنى أن هذه المرأة وإن كانت كافرة لكنها ما دامت جاءت راغبة في ما عند ابنتها وتحتاج إلى من يسد حاجتها فإن نبي الرحمة ﷺ يأمر أسماء بصلتها ولم يقل النبي ﷺ أعطي أمك شيئاً من المال أو نحو ذلك وإنما عبر بالصلة حتى يعطي للقضية بعداً دينياً ومظهراً إنسانياً ودرساً أخلاقياً .

سأل رجلٌ النبي ﷺ فقال يا رسول الله ﷺ: (**هل بقي من بر أبوي شيء بعد موتهما أبَرُهما به**) يبدو أن الرجل حمله على هذا السؤال حرصه على أن يتدارك ما يمكن أن يكون قد فاته وكأنه يقول هل بإمكاني يا رسول الله ﷺ أن أعوض ما أرى أنني قد قصرت فيه تجاه أبوي عندما كانا على قيد الحياة وهل بقيت آلية أستطيع من خلالها أن أعوض ما فاتني أو على الأقل هل بقيت وسيلة أستطيع من خلالها أن أضاعف رصيد البِر لأبوي ثم يأتي جواب نبي الرحمة ﷺ مشتملاً على ما يطمئن السائل (نعم خصالٌ أربع...) إنها خصالٌ أربع يستطيع المسلم تنفيذها وفعل هذه الخصال يُعَدُّ رحمةً بالأب والولد معاً (الدعاء لهما) وهو لا يكلف الولد كثيراً ويعود نفعه على الطرفين إذ قد يستجاب دعاء الولد لأبويه أو أحدهما فيكون دعاؤه سبباً لنجاته من العذاب أو سبباً لتخفيفه عنه ومن المعروف أن نبي الرحمة ﷺ حريص على نجاة أفراد أمته ومن خلال هذا الدعاء يستطيع الابن أن يعوض ما كان ينبغي أن يقوم به عندما كان الأب أو الأم على قيد الحياة فنبي

الرحمة ﷺ وانطلاقاً من قوله تعالى: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾[1] فإنه يسعى رأفةً وشفقة لرحمة الجميع وكذلك (الاستغفار لهما) فإنه يعود نفعه إلى الأبوين ويعود نفعه أيضاً إلى الابن باعتبار الاستغفار براً لهما وبر الوالدين والإحسان إليهما قرنا بعبادة الله سبحانه وتعالى قال تعالى: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾[2] (وإنفاذ عهدهما) قد يكون الأبوان أو أحدهما ترك وصية أو بذر معروفاً وكان يحرص على تنفيذ تلك الوصية أو سقي ذلك البذر ورعيه باستمرار قد يكون الأب أخذ عهداً على نفسه بإطعام بعض الأيتام أو طلبة العلم أو الأرامل وبموته سينقطع هذا الجزء الهام من التنمية الاجتماعية ولكن الولد إذا استمر على تنفيذ ما كان الأب يفعله في حياته أو تعهد به فإن فعل الابن واستمراره على ما كان يفعله أبواه يُعد براً لهما أو لأحدهما (وإكرام صديقهما) إن القلوب جنودٌ مجندة فما تنافر منها اختلف وما تعارف منها ائتلف فإذا مات أحد الأبوين وكان له صديق حميم شاركه مدة حياته أفراحه وأتراحه وعاش معه آماله وآلامه فإن نبي الرحمة ﷺ حرصاً منه على استمرار هذه العلاقة الودية قد جعل إكرام صديق كل منهما من أنواع البر ، كما جعل (صلة الرحم التي لا رحم للابن إلا من قبلهما من أنواع البر) وعندما تتأمل ما ذكره النبي ﷺ جواباً للسائل فإنك تجد نفعه يعود إلى كل من الأبوين والأولاد معاً .

(١) التوبة: ١٢٨

(٢) النساء: ٣٦

رحمته صلى الله عليه وسلم بمن يريد الإقدام على سنة الحياة (الزواج)

عن المغيرة بن شعبة ﷺ قال: (خَطَبْتُ امْرَأَةً عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **أَنَظَرْتَ إِلَيْهَا؟** قُلْتُ: لاَ، قَالَ: **فَانْظُرْ إِلَيْهَا فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ يُؤْدَمَ بَيْنَكُمَا**)[1]

تحليل وتعليق: إنه سؤال له بعده الاستراتيجي وعمقه الفريد (هل نظرت إليها؟) ويكون جوابه رضي الله عنه صريحاً (قلت: لا) ولكن نبي الرحمة ﷺ يأمره (فانظر إليها) ثم يعلل هذا الأمر تعليلاً منطقيا وعمليا (فإنه أجدر أن يؤدم بينكما)، وكأنه يقول له إن العلاقة الزوجية مبنية على الديمومة والاستمرارية ولا بد أن يحسب لها حسابها وكأن الرؤية هي الحد الأدنى الذي لا بد منه وبعدها يستطيع الرجل أن يتحمل المسئولية الأخلاقية والتبعية الاجتماعية ولا يلقي باللائمة على غيره .

إنه تعبير لطيف وأسلوبٌ رقيق (فإنه أجدر أن يؤدم بينكما)، فهو ﷺ شديد الحرص بدافع الرحمة والرأفة على الألفة والانسجام بين الطرفين ويريد من كل طرف أن يكون على بصيرة قبل اتخاذ القرار النهائي فالزواج ميثاقٌ غليظ ورباطٌ مقدس وله ما بعده ولا بد أن يبنى على أسس متينة وأعمدة قوية من بين هذه الأعمدة (**فانظر إليها**) ومنها كذلك (**فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ**)[2] ومن خلالهما يتعانق جمال الظاهر وجمال الباطن ويلتقي الحسن المادي والحسن المعنوي.

---

(١) النسائي ٥٣٤٤ والحديث في مسلم بزيادة (فإن في أعين الأنصار شيئا مسلم رقم ٣٥٥١).

(٢) البخاري رقم ٥٠٩١.

رحمته بالمسلم نفسياً وشعورياً

يقول ﷺ: **(إِذَا كُنْتُمْ ثَلاَثَةً فَلاَ يَتَنَاجَى رَجُلاَنِ دُونَ الآخَرِ حَتَّى تَخْتَلِطُوا بِالنَّاسِ أَجْلَ أَنْ يُحْزِنَه)** (١)

تحليل وتعليق: (فلا يتناجى اثنان...) ما أجمل هذا المنهج وما أروع هذا المبدأ الذي يحافظ على شعور الإنسان ومشاعره حماية لتسلل الشيطان إلى قلبه (حتى تختلطوا بالناس) وعندما تختلطون بالناس يزول الحرج لأن كل واحد منكم بإمكانه أن يتناول أطراف الحديث مع الذي يألفه وينسجم معه أما أن يتحدث اثنان حديثاً خفياً والثالث بجوارهما في عزلة شعورية ومقاطعة إجبارية فإن الذوق السليم والمنطق القويم يأبى ذلك ولهذا علل نبي الرحمة ﷺ بقوله (من أجل أن ذلك يحزنه) ونبي الرحمة ﷺ باعتباره (أولى بالمؤمنين من أنفسهم) (بالمؤمنين رؤوف رحيم)، لا يرضى الحزن للمؤمن بل يسعى ويحرص على أن يكون المسلم في سعادة وسرور.

(١)البخاري رقم ٦٢٩٠ومسلم رقم ٥٨٢٥.

رحمته ﷺ بأصحاب الفاقة والمحاويج

روى مسلم عن جرير بن عبد الله البجلي ﷺ قال (كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي صَدْرِ النَّهَارِ قَالَ فَجَاءَهُ قَوْمٌ حُفَاةٌ عُرَاةٌ مُجْتَابِي النِّمَارِ أَوِ الْعَبَاءِ مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضَرَ بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ فَأَمَرَ بِلاَلاً فَأَذَّنَ وَأَقَامَ فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ فَقَالَ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾[1] وَالآيَةَ الَّتِي فِي الْحَشْرِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٨﴾[2] **(تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ مِنْ دِرْهَمِهِ مِنْ ثَوْبِهِ مِنْ صَاعِ بُرِّهِ مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ – حَتَّى قَالَ – وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ)** ، قَالَ فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا بَلْ قَدْ عَجَزَتْ – قَالَ – ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ **(مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَىْءٌ وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَىْءٌ)**[3].

---

(١) النساء: ١

(٢) الحشر: ١٨

(٣) رواه مسلم ١٠١٧

تحليل وتعليق: لقد صور الصحابي الجليل جرير بن عبد الله المشهد كله (جاء قوم حفاة عراة...إلخ) إنه تصوير دقيق لحال هؤلاء القوم ثم يرسم الصحابي بعضا من ملامح شفقة نبي الرحمة ﷺ ويبرز لنا جزءاً من رأفته (فتمعر وجه رسول الله ﷺ) ثم يذكر السبب (لما رأى بهم من شدة الفاقة) ثم يذكر الصحابي الخطوات العملية التي قام بها نبي الرحمة ﷺ لتفريج كرباتهم (فدخل ثم خرج فأمر بلالا فأذَّن وأقام فصلى وخطب) إنها حركة سريعة وتفاعل حثيث دخول فخروجٌ أذان فإقامةٌ صلاة فخطبةٌ والخطبة هنا ليست خطبة جمعة وليست خطبة عيد وإنما هي خطبة من أجل تفريج كربات المحاويج بدأ الخطبة بآيتين كريمتين الأولى فيها نداء للبشرية جمعاء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾[1] ولعل اختيار هذه الآية له دلالات منها التذكير بتقوى الله عز وجل والقلوب عندما تلين بتقوى الله فإنها تكون مستعدة للبذل والتضحية ومنها التذكير بالأخوة الإنسانية (خلقكم من نفس واحدة) ومنها التذكير بالرقابة الإلهية وعندما يستشعرها المرء فإنه سيخلص عمله لمن لا تخفى عليه خافية-سبحانه وتعالى- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾ والآية الثانية تبدأ بنداء المؤمنين خاصة (يا أيها الذين آمنوا) ثم تأمرهم بتقوى الله عز وجل وفي الآية حث -كذلك- لكل نفس أن تقدم شيئاً لآخرتها وكأنها براعة استهلال تعطي إشارة إلى مضمون الخطبة وهدفها العام وخطوطها العريضة .. (تصدق رجل من دينار من درهمه من ثوبه من صاع بره من صاع تمره حتى قال ولو بشق تمرة) إن نبي الرحمة ﷺ يحث على التصدق على هؤلاء المنكوبين ويتدرج ﷺ لذلك مقدما الأهم فالمهم يبدأ ﷺ بالدينار لأن الذهب أهم ما يملك ثم الفضة فالثياب

(١) النساء: ١

فالطعام ويختم نبي الرحمة ﷺ بالحد الأدنى معبرا عنه بهذه العبارة اللطيفة (ولو بشق تمرة) وأنت تلاحظ أن خطابه ﷺ بهذه الصيغة شامل لفئات المجتمع وأطيافه المختلفة لأن دنانير الذهب ودراهم الفضة تناسب رجال الأعمال والموسرين، والثياب والبر والتمر قد تناسب الطبقة الوسطى (ولو بشق تمرة) هذه العبارة تعد تحفيزا وحضا للفقراء حتى يشاركوا في هذا العمل الإغاثي الإسلامي الإنساني وبهذا تشارك جميع الفئات المختلفة في تفريج كربات المحاويج (فجاء رجل من الأنصار) جرير -رضي الله عنه -يواصل تصويره للمشهد بدأ بالأنصاري وإتيانه بالصرة التي عجزت كفه أن تحملها مبينا تتابع الصحابة بعد ذلك والنتيجة على حد تصويره ﷺ (حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مذهبة) فنبي الرحمة ﷺ تمعر وجهه عندما رأى آثار الحاجة ومظاهر الفاقة على ملامح القوم وعندما اجتمع له ما يسد حاجتهم ويزيل كربتهم تهلل وجهه وكأن وجهه الشريف وبدافع الشفقة يتأثر تلقائيا بوضع بني آدم الحاجي وواقعهم المعيشي يتمعر وجهه عندما يرى ملامح البؤس وعلامات الفاقة على وجوه القوم ويتهلل الوجه الشريف وكأنه قطعة من فضة مخلوطة بذهب عندما يحصل على ما يسد به حاجتهم ثم يعطي نبي الرحمة ﷺ في ختام المشهد وسام شرف لأصحاب المبادرات النبيلة(من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها...إلخ) وكأن الأنصاري -الذي جاء بصرة كبيرة لا تستطيع يده حملها- فتح الباب أمام المتصدقين وحاز شرف السابقين ونال أجر التابعين له من غير أن ينقص ذلك شيئا من أجورهم وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وفي المقابل يخبرنا نبي الرحمة ﷺ عن أصحاب المبادرات السيئة بأنهم يفتحون الباب أمام المنحرفين وينالون وزر التابعين لهم من غير أن ينقص ذلك شيئا من وزر التابعين وكأن نبي الرحمة ﷺ من خلال هذا الحديث يرسم منهج العدل وقانون الإنصاف ويعرِّفُ كل طرف بقيمة المبادرة مبينا أن

كل مبادرة لها نصيب من المغانم إن كانت مبادرة خير و تبعة من المغارم إن كانت مبادرة شر.

إن نبي الرحمة ﷺ يرسم منهج الإسلام المتميز، الذي يجمع بين الترغيب والترهيب ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾[1]، ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠ ﴾[2]، ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣ ﴾[3] وبناء على ما تقدم فينبغي للإنسان أن يحدد هدفه في هذه الحياة ويعمل على ضوء ذلك (وكلكم ميسر لما خلق له).

(١) الزلزلة: ٧-٨

(٢)البلد: ١٠

(٣) الإنسان: ٣

رحمته صلى الله عليه وسلم بالعبيد و الإماء والخدم

يقول ﷺ : (**مَنْ لَطَمَ مَمْلُوكَهُ أو ضَرَبَهُ فَكَفَّارَتُهُ أَنْ يُعْتِقَهُ**)(١).

ويقول ﷺ: (**إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ جَعَلَهُمْ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ**)(٢)

وعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: (**إِنْ كَانَتْ الْأَمَةُ مِنْ إِمَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَتَأْخُذُ بِيَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَتَنْطَلِقُ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ**)(٣).

قَالَ أَنَسٌ: (**وَاللّهِ لَقَدْ خَدَمْتُهُ تِسْعَ سِنِينَ، مَا عَلِمْتُهُ قَالَ لِشَيْءٍ صَنَعْتُهُ: لِمَ فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا؟ أَوْ لِشَيْءٍ تَرَكْتُهُ: هَلاّ فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا**) (٤)

وكان من آخر كلامه ﷺ قوله: (**الصَّلاَةَ الصَّلاَةَ اتَّقُوا اللَّهَ فِيمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ**)(٥).

تحليل وتعليق: إن التعليق على هذا المقطع يحتاج إلى مقدمة تمهيدية، إذ العبودية قبل بزوغ فجر الإسلام كانت موجودة ولها أسباب ستة من هذه الأسباب التغلب كما فُعِل بزيد بن حارثة ومنها عدم سداد الدين..إلخ بالإضافة إلى أن تلك المجتمعات كانت تعبد الجمادات (الأصنام) فلما جاء الإسلام عطل هذه الوسائل وسد تلك النوافذ وجعل

(١) سنن أبي داوود ، برقم٤٥٠٠.

(٢) البخاري برقم٣٠

(٣) البخاري، برقم ٥٦١٠

(٤) رواه مسلم رقم ٢٣١٠

(٥) رواه أبو داوود رقم ٥١٥٦ واللفظ له وأحمد رقم ٥٨٥ وفي الجامع الصغير رقم ١٠٦.

للعبودية سبباً واحداً وهو الجهاد في سبيل الله بمعنى أن الكفار -عُبَّاد الجمادات- إذا واجهوا المسلمين في أرض المعركة إما أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فيحقنوا بها دماءهم ويحفظوا بها أموالهم وأعراضهم وإما أن يصروا على الجريمة الكبرى والخيانة العظمى وهي الكفر بالله-جل جلاله- ورسوله ﷺ وعندما يُأخذون في المواجهة وهم على هذه الحال السيئة فإن الإسلام جعل للقائد وجنده ثلاثة خيارات نص القرآن الكريم على اثنتين منها والثالث بينته السنة، الخياران في قوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾(١) يعني إما أن تمنوا على هؤلاء الأسرى بإطلاق سراحهم دون مقابل وتقديم القرآن الكريم لهذا الخيار له دلالته الخاصة، (وإما فداءً) يعني وإما أن تأخذوا عوضا عن كل أسير مقابل إطلاق سراحه والخيار الثالث هو الاسترقاق بضوابطه الإسلامية وشروطه الشرعية ويقابل هذا الخيار ترغيب عجيب وحثٌ فريد على الحرية قال تعالى: ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ ﴾(٢) وعندما يسمع المؤمن هذه الآية أو يقرأها والتي تنص على أنه أمامه عقبة تحول بينه وبين الوصول إلى رضى الله فهذه العقبة: هي فك رقبة أي عتقها وتحريرها لا شك أنه سيعمل سريعاً على تحطيم واقتحام هذه العقبة ليصل إلى رضى ربه جل جلاله ويضاف إلى هذا قانون جميل في الفقه الإسلامي وهو ما يعرف عند الفقهاء بتشوف الشارع للحرية وهو قانونٌ يزيد على عشرين بنداً.

---

(١) محمد: ٤

(٢) البلد: ١١ -١٣

ومن بنوده مادة تنص على أن السيد إذا قال لمولاه مازحاً أنت حر فإنه يعتق عليه ولا يشفع له كونه أصدر ذلك الحكم مازحاً ، ومنها أن السيد إذا تسرى بأمته وولدت له فإنها تكون حرة بمجرد موت السيد ، ويعبر الفقهاء عن هذه المادة بأم الولد ومنها المكاتب والمبعض والمدبر .... إلخ .

إنها أبواب مشرعة كثيرة لتحرير العبيد ثم إن المنصف يعترف بأن العربي قبل مجيء هذا النور المبين كان أحد اثنين إما أنه كان عبدا لحجر أو شجر من الجمادات وإما أنه كان معرضاً لأن يتغلب عليه غيره كما فعل بزيد بن حارثة العربي وأنت تعلم أن أمية بن خلف على سبيل المثال كان يعذب بلالاً رضي الله عنه في رِمْضَاء مكة لسبب واحد وهو أنه أخلص العبودية للخالق الرازق جل جلاله بينما أمية نفسه قد أخلص العبودية لجمادات لا تنفع ولا تضر ويريد من بلال أن يعبد هذه الجمادات (الأصنام) وسنرى كيف تعامل نبي الرحمة ﷺ مع هذه الظاهرة .

(**من لطم مملوكه** ....إلخ)، إنه إعلان هام من نبي الرحمة ﷺ (من) شرط وجواب الشرط وجزاؤه جملة (**فكفارته أن يعتقه**) وكلمة كفارته تكفي بحرفيتها دليلا على أن ضرب المملوك جريمة عظيمة لا بد لها من الكفارة ولا يجزئ عن هذه الكفارة الإطعام ولا الصيام وإنما تؤدى بشيء واحد (**فكفارته أن يعتقه**) ولفظة (لطم) تدل على الفعلة الواحدة وأما العتق إذا حصل فإنه يدوم طيلة العمر ويستمر مدى الحياة فضرب المملوك خطأ فادح وجرم شنيع ولا كفارة له كما أسلفنا إلا عتقه وتحريره من يد هذا الإنسان الذي لطمه أو ضربه وكأنه لا يضمن عدم تكرار هذا الخطأ إلا القضاء على أسبابه (**فكفارته أن يعتقه**) وإذا كان هذا تحذيرا من نبي الرحمة ﷺ للسادة فإنه رغبهم كذلك في حسن التعامل مع الرقيق وندبهم إلى مراعاة نفسيته ومشاعره وأرشدهم إلى مجموعة من

الأخلاق الراقية في فن التعامل معه (إخوانكم...إلخ) يبدأ الحديث بهذه الافتتاحية الجميلة وهذا حكم من نبي الرحمة ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى وكأنه تمهيد لما بعده بمعنى أن السيد ينبغي أن يعامل خادمه انطلاقا من الأخوة الإسلامية والآصرة الإيمانية (**جعلهم الله تحت أيديكم**) وهذا يقتضي أن تتقوا الله فيهم وتحسيدا لتلك الأخوة – والخطاب هنا للمسلم– (**فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس**)!!

ما أجمل هذا التوجيه النبوي الذي يصور السيد والرقيق وكأنهما شريكان في المأكول والمشروب ثم يرشدنا نبي الرحمة ﷺ بدافع الرحمة والشفقة إلى أسلوب إنساني عجيب ومنطق إيماني فريد (**فلا تكلفوهم ما يغلبهم**) لأنه يعرضهم للخطر والعنت والإسلام لا يريد لهم ذلك بل يريد للسيد ومواليه أن يعيشوا في جو من الوئام والانسجام كل طرف له ماله وعليه ما عليه (**فإن كلفتموهم فأعينوهم**) ما أحوج دعاة حقوق الإنسان أن يأخذوا دروسا ودروسا من توجيهات نبي الرحمة ﷺ (فأعينوهم) حتى لا يتضرر أخوك أو يتضجر (**فأعينوهم**) حتى تُشعِر أخاك بدفء الأخوة التي تنفر من الغرور والغطرسة والاستكبار في الأرض بغير حق وما قدمناه يشمل الترغيب في إكرام المملوك والترهيب من أذيته .

أما على مستوى تعامل نبي الرحمة ﷺ الشخصي مع هذه الفئة فيكفي دليلا ما رواه أنس ﷺ: (**إن كانت الأمة تأخذ بيد رسول الله ﷺ وتنطلق به حيث شاءت**) وهذه صورة عملية مشرقة فريدة في التواضع الجم والعناية الشاملة بضعفاء الأمة وهو دليلٌ كذلك على قربهﷺ من هذه الفئة التي تحتاج عادة إلى من يهتم بها وفي حديث أنس رضي الله عنه مثالٌ حيٌ وصورة مضيئة لتعامل النبي ﷺ مع الخدم ونرى من خلاله كيف ينقل الخادم الصورة كاملة بجميع أجزائها يأتي ﷺ بالصيغة (خدمت رسول الله ﷺ) ثم

يبين مدة الخدمة (تسع سنين) وهي مدة طويلة كفيلة بإظهار الأمور على حقيقتها دون مجاملة أو تكلف(تسع سنين) كانت ظرفا لكثير من المتغيرات ووعاءً لكثير من المفاجآت (تسع سنين) مليئة بالأحداث وتغير الأحوال من حرب وسلم وبرد وحر ..إلخ (تسع سنين) وخادم رسول الله ﷺ (أنس) مازال في مرحلة النمو الجسمي والعقلي، وأثناء هذا النمو يرى أنس كل شيء يتغير أمامه المكان تغير اسمه من يثرب إلى المدينة والخزرج والأوس حصل بينهما اندماج إيماني وتركيب إسنادي تحت عنوان {الأنصار}!(تسع سنين) ومن المفترض أن يعيش أنس على الأقل بين الأوس والخزرج ولكنه ولحسن حظ المدينة وأهلها بإيواء نبي الرحمة ﷺ والمهاجرين وجد نفسه أمام أفراد يختلف معهم في بعض العادات والمصطلحات (تسع سنين) خدم فيها أنس نبي الرحمة ﷺ وهو في سن الطفولة والأطفال عادة يميلون إلى اللعب وعدم المبالاة ولكن ذاكرة أنس مع صغره استطاعت أن تخزن ذكريات هذه المدة الفعلية والتركية (والله لقد خدمته تسع سنين ما علمته قال لشيء صنعته لم فعلت كذا وكذا أو لشيء تركته هلا فعلت كذا وكذا!) ونأخذ من قصة أنس أهمية تربية الطفل التربية الإيمانية الحصيفة واستشعار الأب ،أو المربي أن ذاكرة الطفل تحتفظ بكل ما يدور حولها وأن التعامل معه ينبغي أن يكون على مستوى مناسب مخافة أن تصور عدسته ما لا تحمد عقباه.

(**الصلاة الصلاة، اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم**) إن نبي الرحمة ﷺ وهو ينتقل إلى الرفيق الأعلى يوصي أمته ويحضها على عبادتين عظيمتين الأولى عماد الدين (الصلاة) والثانية أن نتقي الله في المملوك (اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم) وقد بينت أحاديث أخرى كيف يتقي المسلم ربه فيما ملكت يمينه كأن يطعمه مما يأكل كما أسلفنا ويلبسه مما يلبس وأن لا يكلفه ما يغلبه وإن كلفه شيئا صعبا أو ثقيلا فليعنه وإذا استفزه

الشيطان ودفعه إلى ضربه أو نحو ذلك فلا كفارة لهذا الذنب العظيم إلا أن يعتقه كضمان لعدم تكرار هذه الممارسة الخاطئة اقتصرنا على هذه النماذج لأن المجال لا يسمح بأكثر منها وهي للمثال لا الحصر.

ولا يخفى أن رحمته ﷺ تجلت في صور لا تحصى ومظاهر لا تستقصى ومرت معنا نماذج تتعلق بالمؤمنين ولكن هذه الرحمة قد تجاوزت الإنسانية بمؤمنها وكافرها إلى عالم البهائم، وسأقتصر على أمثلة قليلة، أخرج أبو داود أنه ﷺ نزل منزلا فجاءت حمرة ترف على رأسه الشريف وكأنها تلوذ به شاكية له من رجل أخذ بيضتها فقال النبي ﷺ:(**مَنْ فَجَعَ هَذِهِ بِوَلَدِهَا رُدُّوا وَلَدَهَا إِلَيْهَا**)[1]، وأخبر ﷺ أن امرأةً وهي قمة في الفساد الأخلاقي دخلت الجنة بسبب رحمتها بكلب ومعروفٌ أن الكلب من أخس الحيوانات روى البخاري ومسلم مرفوعاً إلى النبي ﷺ أنَّ بغيّاً سقت كلباً يلهثُ مِن العطش، فغفر لها. [2]،

وفي المقابل يخبر ﷺ منفراً من عاقبة سوء أذية الحيوان وما يترتب على هذه الأذية.

يقول ﷺ: (**دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعِمْهَا وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خِشَاشِ الأَرْضِ**)[3] ، ويقول ﷺ: (**فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْر**)[4].

(١) أبوداوود رقم ٢٦٧٧.

(٢) البخاري ٣٣٢١ ومسلم ٢٢٤٥.

(٣) البخاري ٢٣٦٥.

(٤) البخاري٢٤٦٦.

الفصل الثالث:
نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم ورحمته بالإنسانية

توطئة

بعد أن تم الحديث عن مكانة نبي الرحمة ﷺ العظمى من خلال القرآن الكريم وتم الحديث كذلك عن رحمته بالمؤمنين، يأتي الحديث في هذا الفصل عن شفقته ﷺ بالإنسانية وسيكون هذا الفصل بإذن الله تعالى قرآنيا بالدرجة الأولى كسابقيه، إذ لا شيء أكثر إقناعا وأقوى تأثيراً من حديث القرآن الكريم عن نبي الرحمة ﷺ وشفقته وسأقتصر على عشر آيات تتحدث عن هذه الشفقة ناقلا ما وقع عليه اختياري من أقوال المفسرين وسأرتب الآيات –بإذن الله– على ما يلي:

الآية الأولى قوله تعالى: ﴿ **فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا** ﴿٦﴾ ﴾[1].

يقول القشيري معلقا على هذه الآية: مِنْ فَرْطِ شفقته ﷺ داخَلَه الحزنُ لامتناعهم عن الإيمان، فهوَّن الله –سبحانه– عليه الحالَ، بما يشبه العتابَ في الظاهر؛ كأنه قال له: لِمَ كل هذا؟ ليس في امتناعهم– في عَدِّنا – أثر، ولا في الدِّين من ذلك ضرر... فلا عليكَ من ذلك. اهـ.

ويقول صاحب التحرير والتنوير: (لعل) حقيقتها إنشاء الرجاء والتوقع وتستعمل فى الإنكار والتحذير على طريقة المجاز المرسل لأنهما لازمان لتوقع الأمر المكروه وهي هنا مستعملة في تحذير الرسول ﷺ من الاغتمام والحزن على عدم إيمان من لم يؤمنوا من قومه، وذلك في التسلية لقلة الاكتراث بهم، و(الباخع) قاتل نفسه قاله ابن عباس ومجاهد والسدي وابن جبير وفسره البخاري بمهلك، والبخع أصله أن يبلغ الذابح بالذبح

(١) الكهف: ٦

إلى القفا ثم أطلق على القتل المشوب بغيظ وحرف (على) للاستعلاء المجازي فيجوز أن يكون المعنى لعلك مهلك نفسك لأجل إعراضهم عنك كما يعرض السائر عن المكان الذي كان فيه فتكون (على) للتعليل ويجوز أن يكون المعنى تمثيل حال الرسول ﷺ في شدة حرصه على اتباع قومه له وفي غمه من إعراضهم وتمثيل حالهم في النفور والإعراض بحال من فارقه أهله وأحبته، فهو يرى آثار ديارهم ويحزن لفراقهم ويكون حرف (على) ظرفا مستقرا في موضع الحال من ضمير الخطاب ومعنى (على) الاستعلاء المجازي وهو شدة الاتصال بالمكان و(الحديث) الخبر وإطلاق اسم الحديث على القرآن باعتبار أنه إخبار من الله تعالى لرسوله ﷺ ،إذ الحديث هو الكلام الطويل المتضمن أخبارا وقصصا، وسمي الحديث حديثا باعتبار اشتماله على الأمر الحديث أي الذي حدث وجدَّ أي الأخبار المستجدة التي لا يعلمها المخاطب (أسفا) مفعول له من(باخع نفسك) أي قاتلها لأجل شدة الحزن ولا جواب للشرط للاستغناء عنه بما قبله.

الآية الثانية قوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣ ﴾[1] حُوِّل الخطاب كما يقول الشيخ ابن عاشور من توجيهه إلى المعاندين إلى توجيهه للرسول ﷺ والكلام استئناف بياني جوابا عما يثيره مضمون قوله: ﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢ ﴾[2] من تساؤل النبي ﷺ عن استمرار إعراض المشركين عن الإيمان وتصديق القرآن و(لعل)إذا جاءت في ترجي الشيء المخوف سميت إشفاقا وتوقعا والترجي مستعمل في الطلب والأظهر أنه حث على ترك الأسف من ضلالهم على طريقة تمثيل المتكلم الحاث على

(١) الشعراء: ٣

(٢) الشعراء: ٢

الإقلاع بحال من يستقرب حصول هلاك المخاطب إذا استمر على ما هو فيه من الغم ﴿أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ في موضع نصب على نزع الخافض بعد(أن) والخافض لام التعليل والتقدير لئلا يكونوا مؤمنين أي لِانتفاء إيمانهم في المستقبل لأن (أن) تخلص المضارع للاستقبال والمعنى أن غمك من عدم إيمانهم فيما مضى يوشك أن يوقعك في الهلاك في المستقبل، ويجوز أن يجعل (ألا يكونوا) في موضع الفاعل لباخع والجملة خبر لعل وإسناد باخع إلى (ألا يكونوا مؤمنين) مجاز عقلي لأن عدم إيمانهم جعل سببا للبخع

الآية الثالثة قوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾[1]

قال القشيري: يعني إذا عَرَفْتَ حقَّ التقدير، وعَلِمْتَ أنهم سقطوا من عين الله، ودَعَوْتَهم جَهْراً، وَبذلْتَ لهم نُصْحاً، فاستجابتُهم ليست لك، فلا تَجْعَلْ على قلبك من ذلك مشقةً ولا عناءً.

وقال صاحب الكشاف: يعني: فلا تهلك نفسك للحسرات عليهم ويجوز أن يكون حالاً كأنها كلها صارت حسرات لفرط التحسر.

قال القرطبي في تفسير هذه الآية: (قال القشيري: والحزن على كفر الكافر طاعة، ولكن النبي ﷺ كان يفرط في الحزن على كفر قومه، فنهي عن ذلك، كما قال: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾

قال أيضاً فيه تقديم وتأخير، معناه: أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء.

(١) فاطر: ٨

وقال ابن عاشور رحمه الله: والنهي موجه إلى نفس الرسول ﷺ أن تذهب حسرات على الضالين، ولم يوجه إليه بأن يقال فلا تذهب عليهم حسرات والرسول ﷺ والنفس متحدان فتوجه النهي إلى نفسه دون أن يقال فلا تذهب عليهم حسرات للإشارة إلى أن الذهاب مستعار إلى التلف والانعدام كما يقال طارت نفسه شعاعا لتحصل فائدة توزيع النهي والخطاب على شيئين في ظاهر الأمر، فهو تكرير الخطاب والنهي لكليهما وهي طريقة التجريد المعدود في المحسنات، وفائدة التكرير الموجب تقرير الجملة في النفس وانتصبت (حسرات) على المفعول لأجله أي لا تتلف نفسك لأجل الحسرة عليهم، وجمعت الحسرات مع أنه اسم صالح للدلالة على تكرر الأفراد قصدا للتنبيه على إرادة أفراد كثيرة من جنس الحسرة، لأن تلف النفس يكون بتعاقب الحسرات الواحدة تلو الأخرى لدوام المتحسر منه، وكل تحسر يترك حزازة وكمدا في النفس حتى يبلغ إلى الحد الذي لا تطيقه النفس فينفطر له القلب، فإنه قد علم في الطب أن الموت من شدة الألم كالضرب المبرح وقطع الأعضاء؛ سببه اختلال حركة القلب من توارد الألم عليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٨﴾[1] تصلح لإفادة التصبر و التحلم أي إن الله عليم بصنعهم في المخالفة عن أمره، فكما أنه لحلمه لم يعجل بمؤاخذتهم فكن أنت متأسيا بالله ومتخلقا بما تستطيعه من صفاته، وفي ضمن هذا كناية عن عدم إفلاتهم من العذاب على سوء عملهم، وليس في هذه الجملة معنى التعليل لجملة ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ﴾ لأن كمد الرسول ﷺ لم يكن لتأخير عقابهم ولكن لعدم هدايتهم.

(١) فاطر: ٨

الآية الرابعة: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾﴾[1] .

يقول القرطبي رحمه الله: كان النبي ﷺ يحرص على إيمان قوم وقد سبقت لهم من الله الشقاوة فنزلت هذه الآية.

ويقول ابن عاشور رحمه الله تعالى: (وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في {أفأنْتَ تُنْقِذُ} مفيد لتقوّي الحكم وهو إنكار أن يكون النبي ﷺ بتكرير دعوته يخلصهم من تحقق الوعيد أو يُحصل لهم الهداية إذا لم يقدرها الله لهم.

والخطاب للنبي ﷺ تهويناً عليه بعض حرصه على تكرير دعوتهم إلى الإسلام، وحزنَه على إعراضهم وضلالهم، وإلا فلم يكن النبي ﷺ بالذي يظن أنه ينقذهم من وعيد الله، ولذلك اجتلب فعل الإنقاذ هنا تشبيهاً لحال النبي ﷺ في حرصه على هدْيهم وبلوغ جهده في إقناعهم بتصديق دعوته، وحالِهم في انغماسهم في موجبات وعيدهم بحال من يحاول إنقاذ ساقط في النار قد أحاطت النار بجوانبه استحقاقاً قضى به من لا يُردّ مرادُه، فحالهم تشبه حال وقوعهم في النار من الآن لتحقق وقوعه، وحذف المركب الدال على الحالة المشبه بها، ورمز إلى معناه بذكر شيء من ملائمات ذلك المركب المحذوف وهو فعل {تُنْقِذُ مَن في النَّارِ} الذي هو من ملائمات وقوعهم في النار على طريقة التمثيل بالمكنية، أيْ إجراء الاستعارة المكنية في المركب، ويكون قوله: {تُنْقِذُ مَن في النَّارِ} قرينة هذه المكنية.

---

(١) الزمر: ١٩

وبهذا تعلم أن الإنقاذ أطلق على الإلحاح في الإنذار من إطلاق اسم المسبب على السبب، وأن مَن في النار مَن هو صائر إلى النار، استعارة تحقيقية كما في قوله تعالى: ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾(١)

ثم يقول رحمه الله: وقد اشتملت هذه الآية على نكت بديعة من الإعجاز إذ أفادت أن هذا الفريق من أهل الشرك الذين يكمن الكفر في قلوبهم حقت عليهم كلمة الله بتعذيبهم فهم لا يؤمنون، وأن حالهم الآن كحال من وقع في النار فهو هالك لا محالة، وحال النبي ﷺ في حرصه على هديهم كحال من رأى ساقطاً في النار فاندفع بدافع الشفقة إلى محاولة إنقاذه ولكنه لا يستطيع ذلك فلذلك أنكرت شدة حرصه على تخليصهم، فكان إيداع هذا المعنى في جملتين نهاية في الإيجاز مع قرنه بما دَل عليه تأكيد الهمزة والفاء في الجملة الثانية من الإطناب في مقام الصراحة. ثم بما أودع في هاتين الجملتين من الاستعارة التمثيلية العجيبة بطريق المكنية ومن الاستعارة المصرحة في قرينة المكنية.

وحاصل نظم هذا التركيب: أفمن حقّ عليه كلمة العذاب فهو في النار، أفأنت تنقذه وتنقذ من في النار.

وقد أشار إلى هذه الحالة الممثلة في هذه الآية حديث أبي هريرة أنه سمع النبي ﷺ يقول: (**إنما مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله جعل الفَراش وهذه الدوابُ التي تقع في النار يقعن فيها، فجعل ينزعهن ويغلِبْنَه فيتقحمن فيها، فأنا آخذ بحُجزكم عن النار وأنتم تقحمون فيها**). أهـ. وسيأتي تخريج هذا الحديث.

(١) البقرة: ٢٧

الآية الخامسة: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ ﴾[1]

يقول ابن عاشور رحمه الله: [إن هذه الآية] تفريعٌ على قوله: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾[2] لمشعر بأنهم بُعَدَاء عن أن تقنعهم الآياتُ والنذر فتوَلَّ عنهم، أي أعرض عن الإلحاح في جدالهم، فقد كان النبي ﷺ شديد الحرص على إيمانهم ويغتمّ من أجل عنادهم في كفرهم، فكان الله يعاود تسليته الفيْنة بعد الفَيْنَة كما قال: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾[3]، ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾[4] ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾[5]، فالتولي مراد به هذا المعنى، وإلا فإن القرآن جاء بعد أمثال هذه الآية بدعوتهم وجِدالهم غير مرة قال تعالى: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ ﴾[6] وفرع على أمره بالتولي عنهم إخباره بأنه لا لوم عليه في إعراضهم عنه، وصيغ الكلام في صيغة الجملة الاسمية دون: لا نلومك، للدلالة على ثبات مضمون الجملة في النفي.

---

(١) الذاريات: ٥٤

(٢) الذاريات: ٥٢ -٥٣

(٣) الشعراء: ٣

(٤) الكهف: ٦

(٥) النحل: ١٢٧

(٦) الصافات: ١٧٤ - ١٧٥

وجيء بضمير المخاطب مسنداً إليه فقال: ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾﴾ دون أن يقول: فلا ملام عليك، أو نحوه للاهتمام بالتنويه بشأن المخاطب وتعظيمه.

وزيدت الباء في الخبر المنفي لتوكيد نفي أن يكون ملوماً.

وعطْفُ {وذكر} على {فتول عنهم} احتراسٌ كي لا يتوهم أحد أن الإعراض إبطال للتذكير بل التذكير باق، فإن النبي ﷺ ذكَّر الناس بعد أمثال هذه الآيات فآمن بعض من لم يكن آمن من قبل، وليكون الاستمرار على التذكير زيادة في إقامة الحجة على المعرضين، ولئلا يزدادوا طغياناً فيقولوا: ها نحن أولاء قد أفحمناه فكُفّ عما يقوله ﷺ .

والأمر في {وذكر} مراد به الدوام على التذكير وتجديدُه.

الآية السادسة: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾[1]

يقول ابن عاشور رحمه الله: والاستفهام في {أفأنت تُكره الناس} إنكاري، فنزّل النبي ﷺ لحرصه على إيمان أهل مكة وحثيث سعيه لذلك بكل وسيلة صالحة منزلة من يحاول إكراههم على الإيمان حتى ترتب على ذلك التنزيل إنكاره عليه.

ولأجل كون هذا الحرص الشديد هو محل التنزيل ومصب الإنكار وقع تقديم المسند إليه على المسند الفعلي، فقيل: {أفأنت تُكره الناس} دون أن يقال: أفتكره الناس، أو أفأنت مُكره الناس، لأن تقديم المسند إليه على مثل هذا المسند يفيد تقوي الحكم فيفيد تقوية صدور الإكراه من النبي ﷺ لتكون تلك التقوية محل الإنكار. وهذا تعريض بالثناء على النبي ﷺ ومعذرة له على عدم استجابتهم إياه، ومَن بلغ المجهود حق له العذر.

(١) يونس: ٩٩

الآية السابعة: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾[1]

قال البغوي في تفسير هذه الآية: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾أي: بمعونة الله وتوفيقه، ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ في إعراضهم عنك، ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ أي: فيما فعلوا من الأفاعيل.

وقال ابن عطية رحمه الله وقوله: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾هذه العزيمة على رسول الله ﷺ في الصبر عن المجازاة في التمثيل بالقتلى.

وقال القشيري: «واصبر» تكليف، «وما صبرك إلا بالله»: تعريف. «واصبر» تحققٌ بالعبودية، «وما صبرك إلا بالله» إخبارٌ عن الربوبية. «ولا تحزن عليهم» أي طالِعْ التقدير، فما لا نجعلُ له خطراً عندنا لا ينبغي أن يوجِبَ أثراً فيك، فمَنْ أَسْقَطْنا قَدْرَه فاستَصْغِر أَمْرَه. وإذا عرفتَ انفرادَنا بالإيجادِ فلا يضيق قلبُك بشدّة عداوتهم، فإنَّا ضَمَنَّا كِفايتَك، وألا نُشْمِتَهم بك، وألا نجعلَ لهم سبيلاً إليك.

وقال السعدي رحمه الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾إذا دعوتهم فلم تر منهم قبولا لدعوتك، فإن الحزن لا يجدي عليك شيئا. ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ﴾ أي: شدة وحرج ﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ فإن مكرهم عائد إليهم وأنت من المتقين المحسنين.

والله مع المتقين المحسنين، بعونه وتوفيقه وتسديده، وهم الذين اتقوا الكفر والمعاصي، وأحسنوا في عبادة الله، بأن عبدوا الله كأنهم يرونه فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم،

(١) النحل: ١٢٧

والإحسان إلى الخلق ببذل النفع لهم من كل وجه. نسأل الله أن يجعلنا من المتقين المحسنين.

وقال ابن عاشور: خص النبي ﷺ بالأمر بالصبر للإشارة إلى أن مقامه أعلى، فهو بالتزام الصبر أولى، أخذاً بالعزيمة بعد أن رخّص لهم في المعاقبة.

وجملة {وما صبرك إلا بالله} معترضة بين المتعاطفات، أي وما يحصل صبرك إلا بتوفيق الله إيّاك. وفي هذا إشارة إلى أن صبر النبي ﷺ عظيم لقي من أذى المشركين أشدّ مما لقيه عموم المسلمين. فصبره ليس كالمعتاد، لذلك كان حصوله بإعانة من الله.

وحذره من الحزن عليهم أن لم يؤمنوا كقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣﴾[1]

ثم أعقبه بأن لا يضيق صدره من مكرهم، وهذه أحوال مختلفة تحصل في النفس باختلاف الحوادث المسببة لها، فإنهم كانوا يعاملون النبي ﷺ مرة بالأذى علناً، ومرة بالإعراض عن الاستماع إليه وإظهارِ أنهم يغيظُونه بعدم متابعته، وآونة بالكيد والمكر له وهو تدبير الأذى في خفاء.

والضيق بفتح الضّاد وسكون الياء مصدر ضاق، مثل السّير والقَول. وبها قرأ الجمهور.

ويقال: الضِيق بكسر الضاد مثل: القيل. وبها قرأ ابن كثير.

والمراد ضيق النفس، وهو مستعار للجزع والكدر، كما استعير ضدّه وهو السعة والاتّساع للاحتمال والصبر. يقال: فلان ضيق الصدر، قال تعالى في آخر الحجر

(١) الشعراء: ٣

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾[1] ويقال سعة الصدر، والظرفية في {ضيق} مجازية، أي لا يلابسك ضيق ملابسة الظرف للحال فيه.

و{ما} مصدرية، أي من مكرهم. واختير الفعل المنسبك إلى مصدر لما يؤذن به الفعل المضارع من التجدّد والتكرّر.

الآية الثامنة: ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ ﴾[2]

قال القشيري رحمه الله:قوله جلّ ذكره: ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ هذا الاستفهام فيه معنى النفي؛أي أنه ليس يمكنُكَ هدايةُ مَنْ سَدَدْنا بصيرته، ولبَّسْنا عليه رُشْدَه، ومَنْ صَبَبْنا في مسامع فَهمه رصاصَ الشقاء والحرمان... فكيف يمكنك إسْماعه؟!

وقال الفخر الرازي: قال تعالى: ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ ﴾ يعني أنهم بلغوا في النفرة عنك وعن دينك إلى حيث إذا أسمعتهم القرآن كانوا كالأصم، وإذا أريتهم المعجزات كانوا كالأعمى، ثم بيّن تعالى أن صممهم وعماهم إنما كان بسبب كونهم في ضلال مبين.

وقال الآلوسي رحمه الله: (إنكار تعجيب من أن يكون ﷺ هو الذي يقدر على هدايتهم وهم قد تمرنوا في الكفر واعتادوه واستغرقوا في الضلال بحيث صار ما بهم من

(١) الحجر: ٩٧

(٢) الزخرف: ٤٠

العشي عمىً مقروناً بالصمم ﴿وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٤٠﴾﴾ عطفٌ على العمي باعتبار تغاير الوصفين أعني العمي والضلال بحسب المفهوم وإن اتحدا مآلا، ومدار الإنكار هو التمكن والاستقرار في الضلال المفرط الذي لا يخفى لا توهم القصور منه عليه الصلاة والسلام، ففيه رمز إلى أنه لا يقدر على ذلك إلا الله تعالى وحده بالقسر والإلجاء، وقد كان ﷺ يبالغ في المجاهدة في دعاء قومه وهم لا يريدون إلا غيا وتعاميا عما يشاهدونه من شواهد النبوة، وتصامُّاً عما يسمعونه من بينات القرآن فنزلت {أَفَأَنتَ }).

وقال ابن عطية: (لما ذكر تعالى حال الكفرة في الآخرة وما يقال لهم وهم في العذاب، اقتضى ذلك أن تشفق النفوس، وأن ينظر كل سامع لنفسه ويسعى في خلاصها، فلما كانت قريش مع هذا الذي سمعت لم تَزَلْ عَلَى عتوها وإعراضها عن أمر الله، رجعت المخاطبة إلى محمد عليه السلام على جهة التسلية له عنهم، وشبههم بـ {الصم} و{العمي}، إذ كانت حواسهم لا تفيد شيئاً.)

قال أبو حيان:(كان هو ﷺ يجتهد في تحصيل الإيمان لهم. فخاطبه تعالى تسلية له باستفهام تعجب، أي أن هؤلاء صم، فلا يمكنك إسماعهم، عميٌ حيارى، فلا يمكنك أن تهديهم، وإنما ذلك راجع إليه تعالى.

وقال الخطيب الشربيني في تفسيره السراج المنير({أفأنت} أي: وحدك من غير إرادة الله تعالى {تسمع الصم} وقد أصممناهم بما صببنا في مسامع أفهامهم من رصاص الشقاء {أو تهدي العمي} الذين أعميناهم بما غشينا به أبصار بصائرهم من أغشية الخسارة روي أنه ﷺ «كان يجتهد في دعاء قومه وهم لا يزيدون إلا تصميماً على الكفر وعناداً في الغي فنزلت». أي: هم في النفرة عنك وعن دينك بحيث إذا أسمعتهم القرآن

كانوا كالصم وإذا أريتهم المعجزات كانوا كالعمي وقوله تعالى {ومن كان} أي: جِبِلَّةً وطبعاً {في ضلال مبين} عطف على العمي باعتبار تغاير الوصفين.

وقال صاحب الظلال: (وهذا المعنى يتكرر في القرآن تسلية لرسول الله ﷺ وبياناً لطبيعة الهدى والضلال، ورَجْعِهما إلى مشيئة الله وتقديره وحده؛ وإخراجهما من نطاق وظيفة الرسل عليهم الصلاة والسلام ووضع حدود فاصلة بين مجال القدرة الإنسانية المحدودة في أعلى درجاتها عند مرتقى النبوة، ومجال القدرة الإلهية الطليقة؛ وتثبيت معنى التوحيد في صورة من أدق صوره، وفي موضع من ألطف مواضعه: ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ وهم ليسوا صماً ولا عمياً، ولكنهم كالصم والعمي في الضلال، وعدم الانتفاع بالدعاء إلى الهدى، والإشارة إلى دلائله. ووظيفة الرسول أن يُسمع من يَسمع، وأن يهدي من يبصر. فإذا هم عطلوا جوارحهم، وطمسوا منافذ قلوبهم وأرواحهم. فما للرسول إلى هداهم من سبيل؛ ولا عليه من ضلالهم، فقد قام بواجبه الذي يطيق.)

وقال ابن عاشور:[إن الآية] تفريع على جملة ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا ﴾[1] لأن ذلك أفاد توغّلهم في الضلالة وعُسْرَ انفكاكهم عنها، لأن مقارنة الشياطين لهم تقتضي ذلك، فانتقل منه إلى التهوين على النبي ﷺ ما يلاقيه من الكدّ والتحرق عليهم في تصميمهم على الكفر والغيّ، وفيه إيماء إلى تأييس من اهتداء أكثرهم.

(١) الزخرف: ٣٦

والاستفهام لإنكار أن يكون حرص الرّسول ﷺ على هداهم ناجعاً فيهم إذا كان الله قدّر ضلالهم فأوجد أسبابه، قال تعالى: ﴿ إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّ ﴾[1]، ولما كان حال الرّسول ﷺ في معاودة دعوتهم كحال من يظنّ أنه قادر على إيصال التذكير إلى قلوبهم نزّل منزلة من يظن ذلك، فخوطب باستفهام الإنكار، وسلط الاستفهام على كلام فيه طريق قصر بتقديم المسند إليه على الخبر الفِعْلي مع إيلاء الضمير حرفَ الإنكار، وهو قصر مؤكد وقصر قلب، أي أنت لا تسمعهم ولا تهديهم بل الله يُسمعهم ويهديهم إن شاء، وهو نظير ﴿ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾[2]

ومن بديع معنى الآية أن الله وصف حال إعراضهم عن الذكر بالعشا ، وهو النظر الذي لا يتبين شبح الشيء المنظور إليه، ثم وصفهم هنا بالصُمّ العُمي إشارة إلى أن التمحل للضلال ومحاولة تأييده ينقلب بصاحبه إلى أشد الضلال، لا أن التخلُق يأتي دونه الخلق والأحوال تنقلب ملكات. وهو معنى قول النبي ﷺ : (**مَا يَزَالُ الْعَبْدُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا**)[3] أي حتى يحِق عليه أن الكذب ملكة له، وإذ قد كان إعراضهم انصرافاً عن استماع القرآن وعن النظر في الآيات كان حالهم يشبه حال الصمّ العمي كما مُهدَ لذلك بقوله: ﴿ وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ

(١) النحل: ٣٧

(٢) يونس: ٩٩

(٣)البخاري ٦٠٩٤ومسلم ٦٨٠٥.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾[1] كما ذكرناه هنالك، فظهرت المناسبة بين وصفهم بالعشا وبين ما في هذا الانتقال لوصفهم بالصمّ العمْي.

وعطْفُ ﴿وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٤٠﴾ فيه معنى التذييل لأنه أعم من كل من الصمّ والعُمْي باعتبار انفرادهما، وباعتبار أن الصّمَمَ والعَمَى لما كانا مجازين قد يكون تعلقهما بالمسموع والمبصَر جزئياً في حالة خاصة، فكان الوصف بالكون في الضلال المبين تنبيهاً على عموم الأحوال، وهو مع ذلك ترشيح للاستعارة، لأن اجتماع الصمم والعمَى أبين ضلالاً.

الآية التاسعة: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ٦﴾[2]

قال البيضاوي ﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ٦﴾ تتعرض له بالإقبال عليه، وأصله تتصدى، وقرأ ابن كثير ونافع «تَصَّدَّى» بالإدغام.

﴿وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ٧﴾[3] وليس عليك بأس في أن لا يتزكى بالإسلام حتى يبعثك الحرص على إسلامه إلى الإعراض عمن أسلم ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ﴾[4]

وقال الرازي: فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى.

قال الزجاج: أي أنت تُقْبِل عليه وتتعرض له وتميل إليه، يقال تصدى فلان لفلان، يتصدى إذا تعرض له، والأصل فيه تصدد يتصدى من الصدد، وهو ما استقبلك وصار

(١)الزخرف: ٣٦

(٢)عبس: ٥ – ٦

(٣) عبس: ٧

(٤) الشورى: ٤٨

قبالتك. وقرئ: تصدى بالتشديد بإدغام التاء في الصاد، وقرأ أبو جعفر:(تصدى)، بضم التاء، أي تعرض، ومعناه يدعوك داع إلى التصدي له من الحرص، والتهالك على إسلامه.

﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ ﴾ المعنى لا شيء عليك في أن لا يسلم من تدعوه إلى الإسلام، فإنه ليس عليك إلا البلاغ، أي لا يبلغن بك الحرص على إسلامهم إلى أن تعرض عمن أسلم للاشتغال بدعوتهم.

وقال القشيري: أمَّا مَنْ استغنى عن نَفْسِه فإنه استغنى عن الله. ويقال: استغنى بما له فأنت له تصدَّى، أي تُقْبِلُ عليه بوجهك.

{ وَمَا عَلَيْكَ } فأنت لا تُؤَخَذُ بألا يتزكّى هو فإنما عليكَ البلاغ.

وقال ابن عاشور قوله: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ ﴾أي مهما يكن الذي استغنى فأنت له تصدّى، أي مهما يكن شيء فالذي استغنى تتصدى له، والمقصود: أنت تحرص على التصدي له، فجعل مضمون الجواب وهو التصدّي له معلقاً على وجود من استغنى وملازماً له ملازمة التعليق الشرطي على طريقة المبالغة.

والاستغناء: عدّ الشخص نفسه غنياً في أمر يدل عليه السياق قول، أو فعل أو علم، فالسين والتاء للحسبان، أي حسب نفسه غنياً، وأكثر ما يستعمل الاستغناء في التكبر والاعتزاز بالقوة.

فالمراد ب {من استغنى} هنا: مَن عدّ نفسه غنياً عَن هديك بأن أعرض عن قبوله

وليس المراد ب {من استغنى} من استغنى بالمال إذ ليس المقام في إيثار صاحب مال على فقير.

وهذا الذي تصدَّى النبي ﷺ لدعوته وعرض القرآن عليه هو على أشهر الأقوال المروية عن سلف المفسرين الوليد بن المغيرة المخزومي.

والإتيان بضمير المخاطب مُظهراً قبلَ المسند الفعلي دون اسْتِتاره في الفعل يجوز أن يكون للتقوي كأنه قيل: تتصدى له تصدياً، فمناط العتاب هو التصدي القوي.

ويجوز أن يكون مفيداً للاختصاص، أي فأنت لا غيرُك تَتَصدّى له، أي ذلك التصدّي لا يليق بك. وهذا قريب من قولهم: مثلُك لا يبخل، أي لو تصدّى له غيرك لكان هَوناً، فأما أنت فلا يتَصدى مثلك لمثله فمناط العتاب هو أنه وقع من النبي ﷺ في جليل قدره.

والتصدّي: التعرض، أطلق هنا على الإقبال الشديد مجازاً.

وقال السعدي معلقا على الآية: وهذه فائدة كبيرة، هي المقصودة من بعثة الرسل، ووعظ الوعاظ، وتذكير المذكرين، فإقبالك على من جاء بنفسه مفتقرا لذلك منك، هو الأليق الواجب، وأما تصديك وتعرضك للغني المستغني الذي لا يسأل ولا يستفتي لعدم رغبته في الخير، مع تركك من هو أهم منه، فإنه لا ينبغي لك، فإنه ليس عليك أن لا يزكى، فلو لم يتزك، فلست بمحاسب على ما عمله من الشر. فدل هذا على القاعدة المشهورة، أنه: "لا يترك أمر معلوم لأمر موهوم، ولا مصلحة متحققة لمصلحة متوهمة" وأنه ينبغي الإقبال على طالب العلم، المفتقر إليه، الحريص عليه أزيد من غيره.

وقال صاحب الظلال: كان النبي ﷺ مشغولاً بأمر جماعة من كبراء قريش يدعوهم إلى الإسلام حينما جاءه ابن أم مكتوم الرجل الأعمى الفقير (وهو لا يعلم أنه مشغول بأمر القوم) يطلب منه أن يعلمه مما علمه الله، فكره رسول الله ﷺ هذا وعبس وجهه وأعرض عنه، فنزل القرآن بصدر هذه السورة يعاتب الرسول ﷺ عتاباً شديداً؛ ويقرر

حقيقة القيم في حياة الجماعة المسلمة في أسلوب قوي حاسم، كما يقرر حقيقة هذه الدعوة وطبيعتها.

إلى أن يقول: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥﴾ أما من أظهر الاستغناء عنك وعن دينك وعما عندك من الهدى والخير والنور والطهارة.. أما هذا فأنت تتصدى له وتحفل بأمره، وتجهد لهدايته، وتتعرض له وهو عنك معرض! {وما عليك ألا يزكى؟}.. وما يضيرك أن يظل في رجسه ودنسه؟ وأنت لا تسأل عن ذنبه. وأنت لا تُنصر به. وأنت لا تقوم بأمره..

الآية العاشرة: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ﴾[1]

قال القرطبي: فيها عشرة مسائل وذكر منها:

المسألة الرابعة قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ روى البخاري قال: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سِنَانٍ ، حَدَّثَنَا فُلَيْحٌ ، حَدَّثَنَا هِلاَلٌ ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ لَقِيتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قُلْتُ أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فِي التَّوْرَاةِ قَالَ أَجَلْ وَاللَّهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥﴾[2] وَحِرْزًا لِلأُمِّيِّينَ أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ لَيْسَ بِفَظٍّ ، وَلاَ غَلِيظٍ ، وَلاَ سَخَّابٍ فِي الأَسْوَاقِ ، وَلاَ يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ بِأَنْ يَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا وَآذَانًا صُمًّا وَقُلُوبًا غُلْفًا[3].

---

(١) الأعراف: ١٥٧

(٢) الأحزاب: ٤٥

(٣) البخاري رقم ٢١٢٥.

قال القرطبي: المسألة السابعة قوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ الإصر: الثقل، قاله مجاهد وقتادة وابن جبير.

والإصر أيضا: العهد، قاله ابن عباس والضحاك والحسن.

وقد جمعت هذه الآية المعنيين، فإن بني إسرائيل قد كان أخذ عليهم عهد أن يقوموا بأعمال ثقال، فوضع عنهم بمحمد ﷺ ذلك العهد وثقل تلك الأعمال، كغسل البول، وتحليل الغنائم، ومجالسة الحائض ومؤاكلتها ومضاجعتها، فإنهم كانوا إذا أصاب ثوب أحدهم بول قرضه.

وإذا جمعوا الغنائم نزلت نار من السماء فأكلتها، وإذا حاضت المرأة لم يقربوها، إلى غير ذلك(١).

قال القرطبي: المسألة الثامنة قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ فالأغلال عبارة مستعارة لتلك الأثقال.

ومن الأثقال ترك الاشتغال يوم السبت، ولم يكن فيهم الدية، وإنما كان القصاص.

وأمروا بقتل أنفسهم علامة لتوبتهم، إلى غير ذلك، فشبه ذلك بالأغلال.

وقال ابن عاشور: ومن نكت القرآن الجمع في هذه الآية بين وصفي النبوة والرسالة للإشارة إلى أن اليهود بدّلوا وصف الرسول، وعبروا عنه بالنبي، ليصدق على أنبياء بني إسرائيل، وغفلوا عن مفاد قوله مثلك، وحذفوا وصف الأمي، وقد كانت هذه الآية

---

(١) أما الحديث الأول (حديث الغنائم) فأخرجه البيهقي في السنن رقم ١٢٤٨٨ والنسائي رقم ١١٢٠٩ والترمذي رقم ٣٠٣٥ ، كلهم من حديث أبي هريرة.

وأما الحديث الثاني (كانت اليهود إذا حاضت المرأة لم يقربوها..الخ) فأخرجه النسائي رقم ٢٨١ وأبو يعلى رقم ٣٥٣٣ كلاهما من حديث أنس.

سبب إسلام الحبر العظيم الأندلسي السموأل بن يحيى اليهودي، كما حكاه عن نفسه في كتابه الذي سماه «غاية المقصود في الرد على النصارى واليهود».

ثم يقول ابن عاشور: فهذه الرحمة العظيمة تختص بالذين آمنوا بالنبي ﷺ من اليهود والنصارى، وتشمل الرسل والأنبياء الذين أخذ الله عليهم العهد بالإيمان بمحمد ﷺ فكانوا عالمين ببعثته يقيناً فهم آمنوا به، وتنزلوا منزلة من اتبع ما جاء به، لأنهم استعدوا لذلك، وتشمل المسلمين من العرب وغيرهم، (غير بني إسرائيل)، لأنهم سارُّوا من آمن بمحمد عليه الصلاة والسلام من اليهود في اتباع الرسول النبي الأمي.

وتقديم وصف الرسول لأنه الوصف الأخص الأهم، ولأن في تقديمه زيادة تسجيل لتحريف أهل الكتاب، حيث حذفوا هذا الوصف ليصير كلام التوراة صادقاً بمن أتى بعد موسى من أنبياء بني إسرائيل، ولأن محمداً ﷺ اشتهر بوصف النبي الأمي، فصار هذا المركب كاللقب له، فلذلك لا يغير عن شهرته، وكذلك هو حيثما ورد ذكره في القرآن.

والأمي: الذي لا يعرف الكتابة والقراءة، قيل هو منسوب إلى الأم أي هو أشبه بأمه منه بأبيه، لأن النساء في العرب ما كُنّ يعرفن القراءة والكتابة، وما تعلمْنها إلاّ في الإسلام، فصار تعلم القراءة والكتابة من شعار الحرائر دون الإماء كما قال عُبيْد الراعي، وهو إسلامي:

هُنَّ الحرائِر لا ربّاتُ أخمرَة ... سُودُ المحاجِر لا يقْرأن بالسّوَرِ

أما الرجال ففيهم من يقرأ ويكتب.

وقيل: منسوب إلى الأمّة أي الذي حاله حال معظم الأمة، أي الأمة المعهودة عندهم وهي العربية، وكانوا في الجاهلية لا يعرف منهم القراءة والكتابة إلاّ النادر منهم، ولذلك

يصفهم أهلُ الكتاب بالأُميين، لما حكى الله تعالى عنهم في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ ﴾(١)

والأميّة وصف خص الله به من رسله محمداً، إتماماً للإعجاز العلمي العقلي الذي أيده الله به، فجعل الأمية وصفاً ذاتياً له، ليتم بها وصفه الذاتي وهو الرسالة، ليظهر أن كماله النفساني كمالٌ لدُنّي إلهي، لا واسطة فيه للأسباب المتعارفة للكمالات، وبذلك كانت الأمية وصف كمال فيه، مع أنها في غيره وصف نقصان، لأنه لما حصل له من المعرفة وسداد العقل ما لا يحتمل الخطأ في كل نواحي معرفة الكمالات الحق، وكان على يقين من علمه، وبينة من أمره، ما هو أعظم مما حصل للمتعلمين، صارت أميته آية على كون ما حصل له إنّما هو من فيوضات إلهية.

ومعنى: (يجدونه مكتوباً) وجدان صفاته ونعوته، التي لا يشبهه فيها غيره، فجعلت خاصته بمنزلة ذاته. وأطلق عليها ضمير الرسول النبي الأمي مجازاً بالاستخدام، وإنما الموجود نعته ووصفه، والقرينة قوله: {مكتوباً} فإن الذات لا تكتب، وعُدل عن التعبير بالوصف للدلالة على أنهم يجدون وصفاً لا يقبل الالتباس، وهو: كونه أمياً، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويُحل الطيبات، ويحرم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم، وشدة شريعتهم.

وقد جعل الله المعروف والمنكر، والطيبات، والخبائث، والإصر والأغلال متعلقات لتشريع النبي الأمي وعلامات، فوجب أن يكون المراد منها ما يتبادر من معاني ألفاظها للأفهام المستقيمة.

---

(١) آل عمران: ٧٥

فالمعروفُ شامل لكل ما تقبلُه العقول والفطر السليمة، والمنكر ضده.

ويجمعها معنى: الفطرة، التي هي قوام الشريعة المحمدية كما قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾(١)، وهذه أوضح علامة لتعرف أحكام الشريعة المحمدية.

والطيبات: جمع طيبة، وقد روعي في التأنيث معنى الأكِيلة، أو معنى الطُّعمة، تنبيهاً على أن المراد الطيبات من المأكولات، كما دل عليه قوله في نظائِرها نحو: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾(٢)وقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ﴾(٣) قلتُ: من خلال هذه الآيات القرآنية يتضح لنا أن القرآن الكريم صور واقع نبي الرحمة ﷺ النفسي والشعوري تصويرا فريدا صور حرصه العجيب على هداية البشرية وما ذكرتْه الآيات لهو دليل ساطع وبرهان ناصع على ما جُبِلَ عليه النبي ﷺ من الرحمة بالإنسانية والشفقة بالبشرية ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾(٤) هذه الآية تشعرك بحالته النفسية وعاطفته الشعورية تجاه مصير هؤلاء الذين يرفضون دين الله وكأن نتيجة عدم إيمانهم بهذا القرآن الكريم ومآلات هذه النتيجة الحتمية تجعله وكأنك تراه في حالة من الحزن والأسى تكاد تودي بحياته، شفقة على هؤلاء الكفار خوفا من أن يموتوا على كفرهم وتشعر من خلال سياق الآية وظلالها وكأن نبي

(١) الروم: ٣٠

(٢) البقرة: ١٦٨

(٣) المائدة: ٤

(٤) الكهف: ٦

الرحمة ﷺ حرصا منه على هداية كفار قريش يكاد يهلك نفسه -بأبي هو وأمي- مستخدماً كل وسيلة لإنقاذهم، وكأنهم شاردون عنه وهو يسير على آثارهم يحاول إنقاذهم وهم هاربون منه ومن لا يستطيع الهروب منهم بأن كان على مشارف المنية فإنه صلى الله عليه وسلم يوجه له خطابا خاصاً لتدارك ما يمكن تداركه:(**يَا عَمِّ قُلْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ**)[1] وفي خضم الإعراض وذروة الشرود وجراء تلك العواقب الوخيمة المنتظرة تتراكم الأحزان والحسرات على نبي الرحمة ﷺ شفقة وخوفا على مصير هؤلاء المعاندين الذين لا يُقَدِّرون الأمور حق قدرها فينهاه ربه الرحيم الودود ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾[2]، ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ ﴾[3]، ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ ﴾[4]، ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾[5]؟ إنه سياق يثبت ويبرهن بمجموعه على ما يتمتع به نبي الرحمة ﷺ من الشفقة على الإنسانية كلها، وكأن القرآن الكريم من خلال هذه الآيات وغيرها يُذَكِّرُه بأن مهمته العظمى مقصورة على هداية الإرشاد والبيان، ولا ينبغي ولو بدافع الشفقة أن يصل إلى مرحلة تعرض حياته الكريمة للخطر ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾[6] وكأنه يقال له أنت يا نبي الرحمة ﷺ قد أديت ما عليك على أحسن وجه

---

(١) البخاري رقم ١٣٦٠.

(٢) فاطر: ٨

(٣) الذاريات: ٥٤

(٤) الزمر: ١٩

(٥) يونس: ٩٩

(٦) فاطر: ٨

وأجمل صورة وبناءً على ذلك ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ ﴾[1] ولْتُواصل مشروعك الدعوي المبارك ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾[2] وكأن الآيات تقول له ينبغي أن تستمر على المنهج الوسطي من التذكير المتواصل والدعوة المتوازنة ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾[3] وواصل في نفس الوقت تذكيرك ودعوتك، والعجيب أن هذه الشفقة العظيمة يقابلها سب وشتم واستهزاء من هؤلاء الكفرة، وعندما أدمى الكفرة قدميه الشريفتين في الطائف، يأتيه الملك ويعرض عليه أن يطبق الأخشبين على هؤلاء المعاندين فيكون جوابه (**بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**)[4] وعندما شجوا رأسه وكسروا رباعيته يوم أحد كان رده على هذا الإيذاء (**رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي ، فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ**)[5] .

وإذا كانت الآيات السابقة في هذا الفصل تتحدث في مجملها عن شفقة النبي ﷺ بأهل مكة وهي بيئته التي بعث فيها ومنها ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾[6] فإن الآية العاشرة والأخيرة بينت أن شفقته بالإنسانية تجاوزت بيئة مكة وضواحي مكة وثقافة أهل مكة، تجاوزتهم إلى أهل الكتاب (اليهود والنصارى) وصوَّر القرآن الكريم وصف النبي ﷺ في كتب هؤلاء الذين يتميزون عن أهل مكة بمصادرهم السماوية ﴿ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ

(١) الذاريات: ٥٤

(٢) الذاريات: ٥٥

(٣) فاطر: ٨

(٤) البخاري ٣٢٣١

(٥) البخاري رقم ٦٩٢٩.

(٦) الشورى: ٧

﴿مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾[1] وهذا الوصف الدقيق يُحَمِّلُهُم المسؤوليةَ الأدبيةَ والأخلاقيةَ الكاملة تجاهه ﷺ، ونصت الآية على جوانب ستة من شفقته ورحمته بهؤلاء وشملت هذه الرحمة مصالحهم الدنيوية والأخروية.

بدأت الآية بما يتعلق بآخرتهم ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[2] ثم ذكرت سلسلة من المصالح الدنيوية ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[3].

وأنت تلاحظ إسناد الفعل له ﷺ(يحل)،(يحرم)،(يضع)!بناء على هاته الإحالة ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾و هذه الحصانة﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ وتلاحظ كذلك عبارة (كانت عليهم) مما يدل على أنهم كانوا في ورطة،وقد مر معنا ما ذكره المفسرون عن تلك (الأثقال) و(الأغلال) و(الآصار) التي (كانت عليهم).

وقوله تعالى: (يأمرهم بالمعروف) دليل على أنهم كانوا يفتقدون هذا الشيء ويشهد لذلك سلوكهم المعوج وواقعهم المأساوي ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾[4] ثم يغريهم القرآن الكريم إن اتبعوا هذا النبي الكريم بالفلاح الأبدي ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ

(١) الأعراف: ١٥٧

(٢) الأعراف ١٥٧.

(٣) الأعراف: ١٥٧.

(٤) المائدة: ٧٩.

﴿ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾[1] وفي الوقت ذاته يحتفظ القرآن لهم برصيدهم السابق ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾[2] وحكم لهم نبي الرحمة ﷺ برصيدهم السابق (**ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ**) وذكر منهم (**رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ، وَأَدْرَكَ النَّبِيَّ ﷺ فَآمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ وَصَدَّقَهُ ، فَلَهُ أَجْرَانِ**)[3].

وأما الأحاديث التي تتحدث عن رحمته بالإنسانية فكثيرة جدا وسأقتصر على نماذج قليلة من هذه الأحاديث خوفا من الإطالة، وذكرتها حرصا على الجمع بين الوحيين في الدلالة على رحمته بالإنسانية وسأذكرها بدون تعليق.

من هذه الأحاديث ما يلي:

وقد مر معنا هذان الحديثان

الأول ما أخرجه مسلم أنه ﷺ: (**قال: إِنَّمَا مَثَلِى وَمَثَلُ أُمَّتِى كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا فَجَعَلَتِ الدَّوَابُّ وَالْفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهِ فَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ وَأَنْتُمْ تَقَحَّمُونَ فِيهِ**) [4]

والثاني : أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل و عبد الله بن أبي أمية، فقال:(**أي عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله**)[5]

وروى البخاري عن أنس ﷺ قال: (كَانَ غُلاَمٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ فَمَرِضَ فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَقَالَ لَهُ: **أَسْلِمْ** فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهْوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ أَطِعْ

(١) الأعراف: ١٥٧.

(٢) القصص: ٥٤.

(٣) أخرجه البخاري رقم(٣٠١١)ومسلم رقم(٤٠٤)

(٤) مسلم رقم ٦٠٩٥

(٥) البخاري رقم ٣٨٨٤

أَبَا الْقَاسِمِ ﷺ فَأَسْلَمَ فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: (**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ**)[1]

وروى مسلم في صحيحه: قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ قَالَ:(**إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً**) [2]

وفي ختام هذا الفصل أحب أن أذكُر بعض النقاط لتوضيح بعض المفاهيم والتصورات، أسجلها تطلعا إلى معرفة سر تركيز القرآن الكريم على تصوير واقع نبي الرحمة ﷺ النفسي والشعوري تجاه الكفار، وخاصة كفار قريش وكيف كان حرصه على الغذاء الروحي والأمن الأبدي لهؤلاء، وإن تقدمت الإشارة إلى جزء من ذلك.

والحديث عن هذا الموضوع يُحتِّمُ العودة إلى تاريخ البعثة وأجواء الرسالة لأن ذلك سيساعدنا بإذن الله تعالى على نصاعة الصورة ووضوح الرؤية.

من المعروف أن نبي الرحمة ﷺ بعث في مكة المكرمة لأسباب وحكم لا يتسع المجال لذكرها وأراد الله سبحانه وتعالى بحكمته أن يكون الملأ من سادة قريش وعظمائها هم من يتحكم في مكة ويبسط نفوذه الاقتصادي والسياسي والاجتماعي عليها، ويوازي هذا النفوذ ما حققه الله تعالى لأهل مكة من الرخاء المادي وما متعهم به من الأمن المحلي قال تعالى: ﴿ **فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ**

(١) البخاري رقم(١٢٦٨)

(٢) مسلم رقم ٦٧٧٨.

خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾[1] وأهم ما تسعى إليه النفس البشرية دائما توفيرُ هذين الشيئين، توفير الأمن والحصول على رغد العيش وهذا ما حققه الله لأهل مكة لكنهم لم يمتثلوا الأمر الرباني ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾﴾عندما دعاهم النبي ﷺ إلى دين الرحمة والعدل رفضوا دعوته واستخدموا لمعارضته كثيرا من الأساليب فاعتذروا مرة عن الاستجابة بالهاجس الأمني، فكان جواب القرآن الكريم واضحا وصريحا ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾[2] والشاهد أن أهل مكة كانوا على قدر كبير من الأمن والرفاهية وقد وصف القرآن الكريم ما جعل الله تعالى لأحد أفراد هذا الملأ –وهو الوليد بن المغيرة– من المال والأبناء والرخاء قال تعالى: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾﴾[3] ومزارع آل ربيعة تمتد إلى الطائف، ولكن السادة بدلوا نعمة الله كفرا وصاروا يتفننون في الاستهزاء بهذا الدين العظيم ونبيه الكريم، وما تزيدهم دعوة نبي الرحمة ﷺ الأمين إلا شرودا واستكبارا في الأرض ونبي الرحمة ﷺ يرى قِصَرَ نظرهم وخفة عقولهم، يراهم يقابلون نعم الله بالكفران والطغيان ويتمادون في الفجور والعصيان، وفي قمة تنكرهم وذروة جحودهم تبرز شفقته الحقيقية ورحمته الجِبِلِّيَّة والشفقة هنا لا تعني أن يسعى نبي الرحمة ﷺ إلى إطعام الوليد بن المغيرة أو أبي جهل أو عتبة بن ربيعة! كيف يسعى إلى إطعامهم والواقع يشهد بأن هؤلاء السادة هم وحدهم المتنفذون

(١) قريش: ٣ –٤

(٢) القصص: ٥٧

(٣) المدثر: ١٢ – ١٤

بكل ما في الكلمة من معنى، أصحاب القرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وحصار الشعب من أقوى الأدلة على ذلك وبالتالي فهم لا يحتاجون إلى من يقدم لهم الغذاء للسببين السالفين، وكأني بنبي الرحمة ﷺ وهو يرى هؤلاء يرفلون في ثياب النعم ولكنه مع ذلك وبدافع الشفقة يحزن أشد الحزن إن لم يسلك هؤلاء سبيل الهدى والرشاد، يحزن لما سيؤول إليه أمر هؤلاء المعاندين إن استمرُّوا على سلوك طريق الغي والضلال، لأنه ﷺ يرى واقع المترفين الذين انحرفوا عن جادة الطريق يتأمل واقعهم المأساوي يوم القيامة، وفي المقابل يرى واقع المؤمنين المستضعفين الذين ابتلوا في الدنيا بضيق العيش وبؤس الحياة وصبروا على ذلك، يتذكر واقع هؤلاء وأولئك يوم القيامة حيث يخبرنا -بأبي هو وأمي- (**يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُصْبَغُ فِى النَّارِ صَبْغَةً ثُمَّ يُقَالُ يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ فَيَقُولُ لاَ وَاللَّهِ يَا رَبِّ وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِى الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِى الْجَنَّةِ فَيُقَالُ لَهُ يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ فَيَقُولُ لاَ وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِى بُؤْسٌ قَطُّ وَلاَ رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ**)[1]

إنها صورة عجيبة يمكن أن نمثل لها في الصدر الأول ببلال ﷺ وأمية بن خلف فبلال كان مملوكا لأمية بن خلف، وكان يعذبه في رمضاء مكة، ويتفنن في أذيته، وقد عانى رضي الله عنه من البؤس الشيء الكثير، أما أمية بن خلف فإنه كان من سادة مكة الأثرياء، يتمتع بمكانة مرموقة بين أهله وذويه، ولكنَّ بلالا ﷺ -كما روى البخاري- قد سمع نبي الرحمة

(١) رواه مسلم رقم ٧٢٦٦

ﷺ دَفَّ نَعْلَيْهِ فِي الجَنَّةِ[1]، ولا شك أن نعيم الجنة سينسيه كل بؤس ذاقه وكل عذاب أصابه في مكة وفي المقابل لا شك أن خلود أمية في نار جهنم ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾[2] سينسيه كل النعم التي كان يتمتع بها في مكة، وسينسيه أبهة الغرور وكبرياء الغطرسة وسَيَطَالُهُ ألم ينسيه لذة تعذيب بلال في رمضاء مكة، إن المصير المؤلم لهؤلاء المعاندين المساكين هو الذي يسبب الأحزان ويوقد الحسرات في قلب نبي الرحمة ﷺ، إنها شفقة بالإنسانية ورحمة بالبشرية من هول المصير الحتمي الذي ينتظر الشاردين عن دين الله والمناوئين لمنهج الله العظيم ودعوة نبيه الكريم، وكأننا بنبي الرحمة ﷺ يسمع ويرى النضر بن الحارث وهو ينسج قصصا من الخيال أمام الجماهير، من أجل أن يشغلها عن القرآن الكريم، واصفا كلام الله بأنه أساطير الأولين ومتهما رسول الله ﷺ بأن الآيات إنما تملى عليه ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾[3] ويرى أبا لهب يلازمه ملازمة الظل يذهب وراءه مشككا كل فرد عرض عليه نبي الرحمة ﷺ الدعوة، مستخدما صلة القرابة وسيلة لتنفير المدعوين قائلا:(لاَ تُطِيعُوهُ فَإِنَّهُ كَذَّابٌ)[4] ويسمع مغامرات أبي جهل وغيره عندما يسمعون قوله تعالى مخبرا عن خزنة جهنم ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝٣٠﴾[5] حيث يقولون إنهم أقوياء ويستطيعون التغلب على خزنة جهنم ليخرجوا من النار ويرى ويسمع من يناديه

(١) البخاري رقم ١١٤٩.

(٢) فاطر: ٣٦

(٣) الفرقان: ٥

(٤) رواه الدارقطني رقم ٢٩٧ واللفظ له وابن حبان رقم ٦٥٦٢ وابن خزيمة ١٥٩.

(٥) المدثر: ٣٠

﴿ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ ﴾[1] ويرى بعض هؤلاء يستقبله بنظرات ناقمة وعاطفة منفعلة غاضبة ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَـٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ ﴾ ويرى بعضاً آخر يستغرب ساخرا ومستهزئا من جلسائه ﷺ: ﴿ أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ﴾[2] ويرى نموذجا آخر يصف القرآن الكريم بأنه ﴿ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍ ﴾ يراها محمد ويتلوها بالنهار!! ويقوم فريق آخر بترويج هذه الشائعة ﴿ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ ﴾[3] ويقوم فريق بإثارة الشغب والضوضاء يغني ويلعب إذا رأى النبي ﷺ يتهيأ للدعوة أو رآه يصلي ويتلو: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾[4] يرى نبي الرحمة ﷺ كل هذه النماذج المتهورة كل طرف يقوم بجزء من هذه الحملة المسعورة فيحزن -بأبي هو وأمي- حسرة وأسفا على مصير هؤلاء المساكين يحزن لأنه ﷺ يأتيه الوحي بما يوازي تفنن هؤلاء في الأساليب الكفرية المختلفة مثل قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ ﴾[5] وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَـٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟

(١) الحجر: ٦

(٢) الأنعام: ٥٣

(٣) الفرقان: ٤

(٤) فصلت: ٢٦

(٥) فاطر: ٣٦

يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ ﴾[3]

لاشك أن نبي الرحمة ﷺ عندما يسمع كلام هؤلاء ويرى أفعالهم ويأتيه جبريل عليه السلام بهذه الآيات لا شك أنه يغتم حسرة وأسفا لما يرى من تنوع أساليب القوم الكفرية.

ولِما يرى أيضا من تنوع العذاب وتعدد أسبابه أو بعبارة أخرى: فكأن المقاسات مفصلة على أفراد الملأ.. ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾[4] يوازيه تفنن القوم في الصد عن سبيل الله، وكأن نبي الرحمة ﷺ يتذكر مواقف أبي لهب والنضر بن الحارث الذي نزل فيه قوله تعالى:

---

(١) النحل: ٨٨

(٢) الزخرف: ٧٧ -٧٨

(٣) المؤمنون: ١٠٣ - ١١١

(٤) النحل: ٨٨

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[1] إن نبي الرحمة ﷺ كما أسلفنا كان يرى القوم وهم كارهون لهذا الدين وشخصِه ﷺ الأمين،قائلين مرة ومعللين كراهيتهم واستهزاءهم بأنه أضغاث أحلام، ومرة ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ ﴾[2] ومرة ﴿ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾[3]، وتارة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴿٦﴾﴾[4] يسمع نماذج متعددة يجمعها قاسم واحد مشترك (كراهية الحق) فإذا بالقرآن الكريم يأتي بموقف مشابه ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدۡ جِئۡنَٰكُم بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾[5] وعندما [5] وعندما يتفنن القوم في الاستهزاء والغمز ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[6] وتارة ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَاۚ ﴾[7] ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾[8] فإذا بالقرآن الكريم يأتي بسبب مشابه لمواقف هؤلاء في قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا

(١) لقمان: ٦

(٢) الفرقان: ٤

(٣) فصلت: ٢٦

(٤) الحجر: ٦

(٥) الزخرف: ٧٧ – ٧٨

(٦) المطففين: ٢٩ – ٣٠

(٧) الفرقان: ٤١ – ٤٢

(٨) الأنبياء: ٣٦

وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ ﴾[1] ﴿ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا ﴾ مقابلٌ لكل مواقف السخرية السابقة وذكرت الآية المصير النهائي لكل من الطائفتين الطائفة الأولى مصيرها: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ والطائفة الثانية: ﴿إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ وكأن نبي الرحمة ﷺ يرى أن هؤلاء القوم جمعوا كثيراً من أسباب العذاب المختلفة من كفر واستهزاء وصد عن سبيل الله، وفي نفس الوقت يأتيه جبريل بقوله تعالى عن أهل النار: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ ﴾[2] وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ﴿٣٦﴾ ﴾[3] وقوله: ﴿ وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ﴿١٣﴾ لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا ﴿١٤﴾ ﴾[4]

وقوله جل ذكره: ﴿ وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ ﴾[5] من خلال هذه الآيات والمواقف يمكننا فهم تركيز القرآن الكريم على حالات نبي الرحمة ﷺ النفسية والشعورية تجاه القوم، ونستوعب الحكمة من تصوير القرآن الكريم لهذا الواقع

(١) المؤمنون: ١٠٨ - ١١١

(٢) النساء: ٥٦

(٣) فاطر: ٣٦

(٤) الفرقان: ١٣ - ١٤

(٥) الحج: ٤٧

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ٦ ﴾[1] ﴿ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ ﴾[2]، ﴿ أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ١٩ ﴾[3] ﴿ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٩٩ ﴾[4] أما على المستوى الإنساني فقد مر معنا في الفصل السابق ما صوره الصحابي الجليل جرير بن عبد الله البجلي عندما قدم عليه ﷺ قوم من مضر حيث تمعر وجهه الشريف لما رأى بهم من الفاقة، وكيف تهلل وجهه أيضا عندما اجتمع له ما يسد به حاجتهم ويزيل كربتهم، وإذا كان نبي الرحمة ﷺ يخبرنا بأن امرأة دخلت الجنة لأنها سقت كلبا وأخرى دخلت النار لأنها حبست هرة فما ظنك برحمته بإنسان كرمه الله ﴿ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾[5] يكفيك أن بهيمة الأنعام التي أحلها الله لنا ولا سبيل إلى الاستفادة منها إلا عن طريق الذكاة الشرعية فإنه ﷺ أخبرنا بل أمرنا (**إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ**) [6].

إن نبي الرحمة ﷺ يأمرنا بإحسان هذه الصنعة سواء أكانت قتلا بأنواعه المختلفة أو كانت ذبحاً، وكلها من أنواع الذكاة فإنه يرشدنا شفقة منه على ما يخفف هذا الألم

(١) الكهف: ٦

(٢) فاطر: ٨

(٣) الزمر: ١٩

(٤) يونس: ٩٩

(٥) الإسراء: ٧٠

(٦) مسلم رقم ٥١٦٧.

الذي ينشأ عن ممارسة شرعية شريفة (**وليحد أحدكم شفرته**) إنه إرشاد حضاري فيه شفقة بالبهيمة واستثمار للوقت (**وليرح ذبيحته**) فنبي الرحمة ﷺ يسعى إلى ما يريح البهيمة بالإحسان أولا ثم حد الشفرة ثانيا وأخيرا: (**فليرح ذبيحته**)!.

ونختم هذا الفصل بالهمسة التالية:

إننا في أشد الحاجة إلى الاقتداء بنبي الرحمة ﷺ في جميع جوانب الحياة وينبغي أن نستفيد من الآيات السابقة ضرورة الاقتداء به ﷺ في حرصه على هداية الإنسانية وإنقاذ البشرية من نار جهنم إذا كان نبي الرحمة ﷺ يصل إلى هذه المرحلة ﴿ **فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ** ﴾ ﴿ **أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٩٩﴾** ﴾ ﴿ **فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ** ﴾ فهل نحن نحمل نفس الشعور؟ ونسعى في جد ونشاط إلى هداية الإنسانية وإنقاذها من شقاء الدنيا وعذاب الآخرة، وننتشلها بدلاً من ذلك إلى طمأنينة الإيمان ونعيم الجنة.

وينبغي أن نعلم أن أي تقصير عملي أو شعوري في الحرص على هداية الإنسانية فإنه –ومن خلال الآيات السابقة– يعد نقصا في الاقتداء بنبي الرحمة ﷺ في جانب حرصه على هداية الإنسانية، وأن نرى الأمم الكافرة يموت أفرادها ليل نهار على غير ملة الإسلام ولا نحزن على مصيرهم ولا نعمل شيئا لإنقاذهم، لا شك أن هذا يعد مُخالفاً لما كان عليه نبي الرحمة ﷺ من الشفقة المصحوبة بعمل، ولا ننسى أن الصراع بين الحق والباطل سيبقى مستمرا، وما ذكره القرآن الكريم عن أهل مكة إنما يمثل مرحلة زمنية وحلقة تاريخية من عمر هذا الصراع الطويل، وأراد الله سبحانه وتعالى بحكمته البالغة أن يسخر لكل مرحلة فرسانا وفقهم الله تعالى لإنفاق الأموال والأوقات سعيا في هداية الضالين وإرشاد المنحرفين، يضحون في سبيل الله بكل غال ونفيس، بَدْأً بالنفس، وانتهاء

بالمنزلة والعلاقة والجاه وكل ما يخطر ببالك، همهم رضى الله جل جلاله، وهدفهم إنقاذ الإنسانية من نار جهنم، يستخدمون لهدفهم النبيل كل وسيلة ناجعة، وطريقة نافعة، يتكيفون -لصالح الدعوة- مع كل ظرف، وينسجمون مع كل جديد، ويستفيدون من كل متاح، ينتفعون بكل ممكن، إن أغلق باب فتحوا بحكمتهم وواقعيتهم أبوابا، يفرحون بكل خير ولو فعله غيرهم، ولو كان هذا الخير جزئيا، يسعون في استمرار كل خير وتطويره، هدفهم البناء، وسعيهم جمع الكلمة ، أسلوبهم المناصحة الهادفة، علمتهم مدرسة الحياة أهمية الرفق واللين وعلمتهم السنة أنَّ (**الرِّفْقَ لاَ يَكُونُ فِى شَيْءٍ إِلاَّ زَانَهُ وَلاَ يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ شَانَه**)[1] ، يستفيدون من تجاربهم وأخطائهم يكتسبون من كل موقف درسا عميقا، ومن كل قضية ذوقا سليما، عملهم مستمر، وحماسهم منضبط، يخاطبون كل الناس، ويسمعون من كل الناس، يسعون إلى جلب المصالح وتكميلها، ويعملون على درء المفاسد وتقليلها، ولا يصادمون سنن الكون أو نواميس الحياة.

(١) مسلم رقم ٦٧٦٧.

الفصل الرابع
نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم
وبعض الدروس من مواقفه الشريفة

توطئة

إن كل موقف من مواقفه ﷺ يحتاج إلى دراسة مستفيضة لأخذ الدروس والعبر وتسجيل الدلالات والعظات ولا يدري المرء.

١. هل يتكلم عنه ﷺ قبل النبوة كنموذج لوحدة الصف ولم الشمل وجمع الكلمة، على سبيل المثال عندما اختلفت قريش فيما بينها على من يتولى شرف وضع الحجر الأسود في مكانه، وكادت الأزمة تفجر الوضع بشكل خطير، اتفقوا على تحكيم أول قادم من باب المسجد، وشاء الله أن يكون ذلك رسول الله ﷺ فلما رأوه هتفوا قائلين: (هذا الأمين رضيناه هذا محمد) فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر طلب رداءً فوضع الحجر وسطه، وطلب من رؤساء القبائل المتنازِعين أن يُمسكوا جميعاً بأطراف الرداء وأمرهم أن يرفعوه حتى إذا أوصلوه إلى موضعه أخذه بيده الشريفة ووضعه في مكانه[١]

هذه العبارات العفوية التي قالها القوم (**هذا الأمين رضيناه**) تعطي الصورة المشرقة والمكانة السامية التي كان يتبوأُها داخل مجتمعه، ثم إن بسطه الرداء وطلبه من الأطراف المتنازعة المشاركة في رفعه ينبغي أن نأخذ منه دروساً في فن إدارة الخلاف، وأسلوب الاطلاع، ومراعاة مشاعر الأفراد ونفسياتهم وأهمية المشاركة وعدم التهميش والإقصاء لأي طرف في حل المشكلات.

٢. أم يتحدث عنه كنموذج فريد في حسن التعامل مع الخدم، حتى إن الخادم ليختار البقاء معه على الذهاب مع أبيه وعمه، ويختار أن يبقى مولى على أن يعيش مع أسرته وقبيلته، ذكر أصحاب السير أن زيد بن حارثة ذهب مع أمه سعدى بنت ثعلبة لزيارة قومها

(١) الرحيق المختوم صـ ٤٧.

فأغارت عليهم خيل، وأخذوا المال واستاقوا الإبل وسبوا الذراري وكان في جملة من احتملوه معهم ولدها زيد بن حارثة وكان عمره حينها (٨سنين) كما يقول مؤلف صور من حياة الصحابة، فأتوا به سوق عكاظ وعرضوه للبيع، فاشتراه حكيم بن حزام بن خويلد مع مجموعة من الغلمان، فلما عاد بهم إلى مكة جاءته عمته خديجة بنت خويلد فقال لها: اختاري أيا منهم تشائينه فهو هدية لك، فاختارت زيد بن حارثة لما بدا لها من علامات نجابته، ومضت به وما هو إلا قليل حتى تزوجت بمحمد بن عبد الله، فأرادت أن تقدم له هدية فلم تجد خيراً من غلامها العزيز، وكانت أم زيد المفجوعة بفقده لا ترقأ لها عبرة ولا تهدأ لها لوعة من شدة شوقها لابنها، وكان يزيدها أسىً أنها لا تعرف أحيٌّ هو فترجوه أم ميت فتيأس منه، أما أبوه فأخذ يتحراه في كل أرض ويسائل عنه كل ركب ويصوغ حنينه إليه شعراً حزيناً تنفطر له الأكباد حيث يقول:

بكيت على زيد ولم أدر ما فعل ... أحي فيرجى أم أتى دونه الأجل
فو الله ما أدري و إنِّي لسائل ... أغالك بعدي السهل أم غالك الجبل
تذكرنيه الشمس عند طلوعها ... وتعرض ذكراه إذا غربها أفل
سَأعمل نص العيس في الأرض جاهدا ... ولا أسأم التطواف أو تسأم الإبل
حياتي أو تأتي علي منيتي ... فكل امرئ فانٍ وإن غره الأمل

وفي موسم من مواسم الحج قبل البعثة، قصد البيت الحرام نفر من قوم زيد، وفيما كانوا يطوفون بالبيت العتيق إذا هم بزيد وجهاً لوجه، عرفهم وعرفوه، وسألهم وسألوه، فلما عادوا إلى ديارهم أخبروا حارثة بما رأوا وحدثوه بما سمعوا، فبادر حارثة وأعدَّ راحلته وحمل من المال ما يفدي به فَلِذَةَ كبده وصحب معه أخاه كعباً وانطلقا معاً يسرعان في السير نحو مكة، فلما وصلا دخلا على محمد بن عبد الله وقالا له: يا ابن عبد المطلب أنتم جيران بيت الله

الحرام تفكون العانيَ وتطعمون الجائع وتغيثون الملهوفَ، وقد جئنا في ابننا الذي عندك وحملنا إليك من المال ما يفي به فامنن علينا وفادِه لنا بما تشاء فقال محمد: ومَن ابنكما الذي تعنيان فقالا: غلامك زيد بن حارثة قال: وهل لكما فيما هو خير من الفداء فقالا: وما هو؟ فقال: أدعوه لكم فخيروه بيني وبينكم، فإن اختاركم فهو لكم بغير مال، وإن اختارني فما أنا والله بالذي يرغب عمن يختاره، فقالا: لقد أنصفت وبالغت في الإنصاف، فدعا محمد زيداً وقال له: من هذان؟ فقال: هذا أبي حارثة بن شراحيل، وهذا عمي كعب فقال: خيرتك إن شئت مضيت معهما وإن شئت أقمت معي، فقال: بل أقيم معك فقال أبوه: **ويحك أتختار العبودية على أبيك وأمك،** قال: إني رأيت في هذا الرجل شيئاً وما أنا بالذي يفارقه أبداً، فلما رأى محمد من زيد ما رأى أخذ بيده وأخرجه إلى البيت الحرام ووقف به بالحجر على ملإ من قريش وقال: يا معشر قريش اشهدوا أن هذا ابني يرثني وأرثه فطابت نفس أبيه وعمه وخلفاه عند محمد، وعادا إلى قومهما مطمئني النفس مرتاحي البال، وأصبح يدعى زيد بن محمد حتى بعث الرسول ﷺ إلى أن أبطل الإسلام التبنِّيَ حيث نزل قوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾[2]، وصار زيد يلقب حب النبي ﷺ وولده أسامة ابن حبه وخلد الله تعالى اسمه في القرآن الكريم[3] قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا ﴾ ولهذه الشخصية تاريخ جهادي مشرق ولكننا اقتصرنا على ما يتعلق بالموقف.

(١) الأحزاب: ٥

(٢) الأحزاب: ٤٠

(٣) سيرة ابن هشام ص٦٩..

هذان النموذجان كافيان في تسليط الضوء على مكانته المتفردة ورتبته العالية داخل قبيلته وأسرته، باعتباره فرداً من قبيلة، ورجلاً من مجتمع، وليس باعتباره نبياً أو رسولاً، صحيح أن هذه المواقف المشرقة من الطبيعي أن تصدر ممن هو مهيأ لهداية الإنسانية وقيادة البشرية.

أما مواقفه ﷺ بعد البعثة فإنها أكثر من أن تحصى، وأشمل من أن تستقصى ولا أدري هل يكون الحديث عنه باعتباره قدوة للمصلحين وأصحاب الأهداف النبيلة ليتأسوا به في الصبر والثبات على المبدإ أمام الترغيب والترهيب ولنبدأ بالحديث عن الموقف الثالث.

٣. عندما حاولت قريش أن تثنيه عن الدعوة مستخدمة أسلوب المفاوضات بحضور عمه أبي طالب كان جوابه: **(يَا عَمّ وَاَللّهِ لَوْ وَضَعُوا الشّمْسَ فِي يَمِينِي وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الْأَمْرَ حَتّى يُظْهِرَهُ اللّهُ، أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ مَا تَرَكْته)** (١).

وقد فاوضه عتبة بن ربيعة بشكل انفرادي، مقدما له بعض العروض المغرية في نظر عتبة، مثل ما قدمته قريش في المفاوضات الجماعية السابقة، ولما أكمل عتبة حديثه قال ﷺ: (أَقَدْ فَرَغْتَ يَا أَبَا الْوَلِيد ؟ قَالَ نَعَمْ قَالَ فَاسْمَعْ مِنّي؛ قَالَ أَفْعَلُ فَقَالَ:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾ (٢)

(١) سيرة ابن هشام الجزء الأول صـ٢٦٦.

(٢)فصلت:١ - ٣

ثُمّ مَضَى رَسُولُ اللّه ﷺ فِيهَا يَقْرَؤُهَا عَلَيْهِ. فَلَمّا سَمِعَهَا مِنْهُ عُتْبَةُ أَنْصَتَ لَهَا، وَأَلْقَى يَدَيْهِ خَلْفَ ظَهْرِهِ مُعْتَمِدًا عَلَيْهِمَا يَسْمَعُ مِنْهُ ثُمّ انْتَهَى رَسُولُ اللّه ﷺ إلى قوله: ﴿ **فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَعِقَةً مِّثْلَ صَعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ** ﴿١٣﴾ ﴾ فناشده عتبة أن يسكت من شدة وقع الآيات، وعندما رجع إلى قريش اكتشفوا تأثر عتبة، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ نَحْلِفُ بِاَللّهِ لَقَدْ جَاءَكُمْ أَبُو الْوَلِيدِ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الّذِي ذَهَبَ بِهِ. فَلَمّا جَلَسَ إلَيْهِمْ قَالُوا: مَا وَرَاءَك يَا أَبَا الْوَلِيدِ؟ قَالَ وَرَائِي أَنّي قَدْ سَمِعْتُ قَوْلًا وَاَللّهِ مَا سَمِعْت مِثْلَهُ قَطّ، وَاَللّهِ مَا هُوَ بِالشّعْرِ وَلَا بِالسّحْرِ وَلَا بِالْكِهَانَةِ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَطِيعُونِي وَاجْعَلُوهَا بِي، وَخَلّوا بَيْنَ هَذَا الرّجُلِ وَبَيْنَ مَا هُوَ فِيهِ فَاعْتَزِلُوهُ فَوَاَللّهِ لَيَكُونَنّ لِقَوْلِهِ الّذِي سَمِعْتُ مِنْهُ نَبَأٌ عَظِيمٌ فَإِنْ تُصِبْهُ الْعَرَبُ فَقَدْ كُفِيتُمُوهُ بِغَيْرِكُمْ وَإِنْ يَظْهَرْ عَلَى الْعَرَبِ فَمُلْكُهُ مُلْكُكُمْ وَعِزّهُ عِزّكُمْ وَكُنْتُمْ أَسْعَدَ النّاسِ بِهِ قَالُوا: سَحَرَك وَاَللّهِ يَا أَبَا الْوَلِيدِ بِلِسَانِهِ قَالَ هَذَا رَأْيِي فِيهِ فَاصْنَعُوا مَا بَدَا لَكُمْ [1].

٤. أم يتحدث عنه كقدوة للدعاة والمصلحين ليتأسوا به في الواقعية والأخذ بالممكن المتاح مع التمسك بالمبدإ، فبعد رجوعه ﷺ من الطائف وما لاقاه من الأذى من أهل الطائف، وهي رحلة تمثل نموذجاً فريداً في التضحية والصبر، وفي هذه الأثناء يأتيه الملَك ويعرض عليه أن يطبق على أهل مكة الأخشبين فيقول ﷺ: (**بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**)[2] وعندما دنا من مكة، مكث في حراء وبعث رجلاً من خزاعة إلى المطعم بن عدي ليجيره، فقال المطعم نعم ثم تسلح ودعا بنيه وقومه فقال: البسوا السلاح وكونوا عند أركان البيت فإني قد أجرت محمداً، ثم

(١) سيرة ابن هشام جـ١ صـ٢٩٤.

(٢) البخاري٣٢٣١.

بعث إلى رسول الله ﷺ أن ادخل فدخل رسول الله ﷺ ومعه زيد بن حارثة حتى انتهى إلى المسجد الحرام، فقام المطعم بن عدي على راحلته فنادى يا معشر قريش إني قد أجرت محمداً فلا يهيجه أحد منكم، وانتهى رسول الله ﷺ إلى الركن فاستلمه وصلى ركعتين وانصرف إلى بيته والمطعم بن عدي وولده محدقون به بالسلاح حتى دخل بيته، وقد حفظ رسول الله ﷺ هذا الموقف للمطعم حيث قال في أسرى بدر:(**لَوْ كَانَ الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيًّا ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي هَؤُلاَءِ النَّتْنَى لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ**)[1].

تحليل وتعليق: انظر إلى هذا الموقف حيث يستجير بالمطعم بن عدي وهو كافر بعد أن اعتذر كل من الأخنس بن شريق وسهيل بن عمرو وتنصلا من تلبية طلبه، إنه موقف يمكن للمصلحين وأصحابِ المبادئ أن يأخذوا منه كثيراً من الدروس والعبر، فالرسول ﷺ قد أقام الحجة على هؤلاء المشركين وهم قد حاربوه وحاربوا المسلمين وتفننوا في أذيته وأذية أتباعه، ويأتيه الملك وهو ﷺ في أجواء الحزن والأسى جراء ما قابله به أهل الطائف ومع هذا يعرض عليه أن يطبق الأخشبين على هؤلاء الكفار، فيأتي جواب الرحمة المهداة والنعمة المسداة: (**بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**)[2] ومع ذلك يستخدم الأسباب المألوفة، فيستجير بالمطعم بن عدي فيحيط به حتى يطوف بالبيت ويصلي ركعتين، فهو ﷺ لم يتنازل عن مبدئه- وحاشاه- بل أجاره على مبدئه من طواف وصلاة وقام بحراسته حتى أوصله إلى منزله وهذا درس هام لفئة لا يوجد في قاموسها -حسب الواقع- إلا خير محضٌ أو شر خالصٌ

(١) البخاري رقم ٣١٣٩

(٢) البخاري٣٢٣١.

أو أبيض أو أسود، وليس العاقل كما يقول عمرو بن العاص: من يعرف الخير من الشر ولكن هو الذي يعرف خير الشرين. قد يكون في هلاك هؤلاء الصناديد مصلحة حسب الظاهر، لكن مصلحة [أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئا] أعظم منها، ونظرته البعيدة وحرصه الشديد على هداية هؤلاء ولو في المدى البعيد هو الذي جعله يستجير بكافر، حرصاً على تلك المصلحة العظيمة الراجحة ويترك عرض الملك كما أسلفنا؛ إنك لتعجب من حماية المطعم بن عدي للنبي ﷺ حتى يطوف بالبيت ويصلي ركعتين ويحرسه حتى يدخل منزله، وزميل المطعم في المعتقد والهدف أبو جهل لا يقبل أن يرى النبي ﷺ يصلي قال تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ ﴾ إن المطعم وأبا جهل يشتركان في عبادة اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، ولكن أحدهما يحمي النبي ﷺ حتى يطوف بالبيت ويصلي عند الكعبة، والثاني يمنعه الصلاة وينهاه عنها، وهذا رد على من يحاول جعل العدو في سلة واحدة فالناس يختلفون في الشهامة والذوق والعاطفة والنخوة والإنسانية، وكل ما استطاع الإنسان أو الجماعة تقليل الأعداء أو تحييد بعضهم كان أجدى، كما فعل النبي ﷺ في مواقف عديدة...إلخ.

٥. أم يتحدث عنه كقدوة للقادة وأسوة للساسة في مراعاة الرأي العام، ورصد ردود الأفعال المختلفة، وسد الباب أمام الذرائع.

ذهب النبي ﷺ إلى غزوة بني المصطلق أو المريسع كما يقول أحمد البدوي الشنقيطي رحمه الله:

ثم المريسيع أو المصطلق ... كلاهما على الغزاة يطلق

في هذه الغزوة برز دور المنافقين وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول، وصرح ابن أبي بكلام تحريضي كفري خطير، ولما وصل الخبر إلى النبي ﷺ أنكر ابن أبي حالفاً بالله

أنه لم يقل شيئاً فنزلت سورة المنافقين مصدقة لناقل الخبر زيد بن أرقم ومكذبة لابن أبي المنافق قال تعالى: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾[1] بعد أن كشفت هذه الآيات ما قاله عبد الله بن أبي، اقترح بعض الصحابة أن يقتل الرجل باعتباره منافقاً كافراً، وكان جواب هادي الإنسانية ومنقذ البشرية سداً منيعاً أمام ذرائع المشككين معللا جوابه بما سيتناقله الرأي العام وما يترتب على ذلك من الأضرار: **(لاَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ)** [2].

تحليل وتعليق: إنه موقف نبوي عجيب له بعده الاستراتيجي العميق، قد يكون في قتل ابن أبي مصلحة آنية باعتباره رأس المنافقين وعدو نبيه الأمين، ولكن هذه المصلحة تفوقها مفسدة أخرى إذ لو قتل لصار في نظر بعض المنافقين والمغفلين زعيم مقاومة، وشهيد رأي، ولو قتل لوجد المشككون ذريعة لقلب الحقائق وتزويرها، فالرجل في سفر مع النبي ﷺ، وفي غزوة والبسطاء والماكرون قد يصنفونه مجاهداً وقد يتعاطف معه بعضٌ لمكانته الاجتماعية وقد حصل هذا كما قال البدوي رحمه الله –متحدثا عن بعض أحداث هذه الغزوة–:

(١) المنافقون: ٧ – ٨

(٢) البخاري رقم ٣٢٧.

وقال فيها بن أبي منكرا ... وعاه زيد موقنا وما امترى
فحلف الفاجر ما قال المقال ... وصدّقته للمكانة رجال
فأنزل الله لئن رجعنا ... إلى المدينة ليخرجنا
فعرك النبي أذن الواعي ... زيد بن أرقم ذي الاستماع
أن شهد الله على المنافقين ... بالكذب المحض وأولاه اليقين

أخي الكريم .. ألا تتفق معي أنه لو قتل ابن أبيّ لحاول المجرمون أن يقدموه للناس كضحية -في نظرهم- وقد تترتب على ذلك أضرار كبيرة ومخاطر كثيرة، وأول دليل على مصلحة عدم قتله أن يتخلى عنه أقرب الناس إليه، إذ وقف له ابنه الصحابي الجليل عبد الله عند مشارف المدينة وأمسكه وقال له: والله لن تدخل المدينة حتى تعترف بأن الرسول ﷺ هو الأعز وأنك هو الأذل ويأذن لك رسول الله ﷺ بدخولها فتحقق الشرطان ودخل المدينة، وقبل ذلك قال هذا الابن يا رسول الله بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فإن كنت فاعلاً فأمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه فو الله لقد علمت الخزرج ما كان بها رجل أبر بوالده مني، ولكني أخشى أن تأمر به رجلاً مسلما فيقتله فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل عبد الله يمشي على الأرض حيا حتى أقتله، فأقتل مؤمنا بكافر فأدخل النار فقال النبي ﷺ: **(بَلْ نُحْسِنُ صُحْبَتَهُ ونَتَرَفَّقُ بِهِ لَوْ صَحِبَنَا)** [1] .

فقوله ﷺ: "لا يتحدث الناس..." وبعد ذلك: "نحسن صحبته ونترفق به" كلمات قليلة وعبارات قصيرة ولكنها تحمل كثيراً من الدلالات العميقة واللفتات الدقيقة تبدأ الجملة الأولى بلا النافية (لا يتحدث الناس...) وكأن نبي الرحمة ﷺ يبين لنا أن هذه

(١) دلائل النبوة للبيهقي رقم ١٤١١.

الفئة بقيادة عبد الله بن أبي تبطن قناعتها وتظهر مظهراً آخر تترّس به داعمة له بالأيمان ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ ﴾[1] والجنة هي الوقاية، فهو ﷺ لا يريد أن ينزع هذه الجُنَّة أولا لرحمته التي جُبِلَ عليها وثانيا لمخافة مفاسد عظمى قد تترتب على نزعها!!.

والواقع يشهد أن تاريخ عبد الله بن أبي مدون في القرآن الكريم بداية من غزوة أحد ﴿ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡ ﴾[2] ﴿ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ ﴾[3] ومروراً بغزوة بني النضير ﴿ ۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ ﴾[4] ووصولاً إلى قوله تعالى: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ ﴾[5] وقوله: ﴿ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١ ﴾[6] **(بل نحسن صحبته ونترفق به ما صحبنا)** درءاً لمفاسد عظيمة أخطرها أن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه وجلباً لمصالح عديدة منها: أن يتولى القرآن الكريم ملف هذا المجرم حتى يكمله، ومن حكمة الله البالغة أن يموت هذا الرجل أثناء نزول الوحي ويتولى القرآن الكريم الحكم عليه ليذهب غير مأسوف عليه واسمع معي آخر فقرة من سجله المأساوي ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ

(١) المجادلة: ١٦
(٢) آل عمران: ١٦٧
(٣) آل عمران: ١٦٨
(٤) الحشر: ١١
(٥) المنافقون: ٧
(٦) النور: ١١

وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾[1] (لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه) كلمات نبوية مشرقة تعطينا درساً مهما في الابتعاد عن كل فعل أو مظهر يستطيع العدو أن يجعله ذريعة لتحقيق مآربه، إن توفير الذريعة وإعطاء الحجة للخصم أو العدو لهو من الأغلاط الفاحشة والأخطاء الشائعة، ولذلك نجد القرآن الكريم عندما تحدث عن تحويل القبلة وما صاحبه من الرد على أصحاب الشبهات أعقبه بقوله تعالى: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى ﴾[2] فكأن الناس أمام الأحكام الشرعية كتحويل القبلة وما أشبه ذلك نوعان: نوع يستسلم أو يسكت عندما لا يجد حجة يتمسك بها أو ذريعة يمتطيها، أما الذين ظلموا فإنهم لا يقفون عند الحجة والمنطق وإنما ينساقون مع العناد واللجاج، فهؤلاء لا سبيل إلى إسكاتهم فسيظلون في لجاجهم فلا على المسلمين منهم (لا يتحدث الناس) منهج لكل المصلحين الجادين حتى الأبرياء لا ينبغي أن نتركهم يفهمون بعض الأمور على غير حقيقتها، لما يترتب على ذلك الفهم المغلوط من السلبيات: (**عَلَى رِسْلِكُمَا إِنَّمَا هِيَ صَفِيَّةُ**) قالها ﷺ عندما كان ماشياً، معها ورآه رجلان من الأنصار، فبادر إلى سد الذريعة وقطع الحجة وتصحيح المعلومة الذهنية ثم علل جوابه بقوله ﷺ: (**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا سُوءًا**)[3].

(١) التوبة: ٨٤

(٢) البقرة: ١٥٠

(٣) البخاري رقم ٣٢٨١.

(لا يتحدث الناس) فيه درس للدعاة والعلماء وأصحاب الهيآت وكل من يُقتدَى به في الحرص على الابتعاد الكامل عن كل تصرف مشين أو موقف يتنافى مع الخلق العظيم أو الذوق السليم حتى لا يتحدث الناس بما يشوه هذا الداعية أو ذلك المصلح (لا يتحدث الناس) ميزان لكل مواقفنا وتصرفاتنا وما نتخذه من المواقف والقرارات، هل يكون مبنياً على المقارنة بين المفاسد والمصالح قبل الحسم (لا يتحدث الناس) يمثل قمة الذوق الأخلاقي الرفيع وكأنها مرآة ينظر الإنسان منها إلى الخارج ليرى الطقس ويطالع المناخ هل يناسبه الخروج أم يبقى في مكانه قبل أن تتخذ قراراً ينبغي أن تستخدم مرآة (لا يتحدث الناس) أو تكون مستعداً لتبعات موقفك وجاهزاً لدفع ثمن قرارك والتبعات هنا أدبية بالدرجة الأولى (لا يتحدث الناس) جاءت ممن أعطي جوامع الكلم ﷺ، وينبغي أن تؤخذ منها الدروس الكثيرة، وليس كلامنا عن مقارنة بين حلال و حرام، إذ الحلال بين والحرام بين ومن البدهي أن المسلم حدد موقفه من كل منهما، ولكن حديثنا قد ينطبق على مفسدتين ويبحث المسلم عن أيهما أخطر أو مصلحتين ويبحث عن أيهما أولى (لا يتحدث الناس) قاعدة نبوية بديعة! ، تنمي في الإنسان خصلة التريث وميزة التثبت قبل اتخاذ أي قرار، ويشهد لهذه القاعدة الجميلة ما رواه البخاري من أن النبي ﷺ قال لعائشة رضي الله عنها: (**أَلَمْ تَرَيْ أَنَّ قَوْمَكِ لَمَّا بَنَوُا الْكَعْبَةَ اقْتَصَرُوا عَنْ قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ**، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَلاَ تَرُدُّهَا عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ **قَالَ لَوْلاَ حِدْثَانُ قَوْمِكِ بِالْكُفْرِ لَفَعَلْتُ**). (١)

(١) البخاري رقم ١٥٨٣واللفظ له ومسلم رقم ٣٣٠٨.

فنبي الرحمة ﷺ ترك مصلحة عظيمة وهي بناء جزء من الكعبة التي هي قبلة المسلمين ترك هذه المصلحة خوفا من مفسدة أعظم منها، فسادة قريش لم يمض على إسلامهم إلا مدة يسيرة ورحمته ﷺ التي جُبِلَ عليها جَعَلَتْهُ يخاف على هؤلاء المسلمين الجدد من أي شيء يشوش على تفكيرهم وتصوراتهم، لا سيما الكعبة التي بناها أجدادهم وقصرت بهم النفقة عن إكمالها فخاف عليه الصلاة والسلام من أن يفتنوا بهدم الكعبة ولو كان الهدف منه إكمالها، وبناءها على قواعد إبراهيم، لأن هذه المصلحة قد لا يستوعبها كثير من حديثي عهد بالإسلام وحديثي عهد كذلك بالجاهلية، وقد نص القرآن الكريم على هذه القاعدة في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾[1] فنحن نعلم أن الأصنام لا حرمة لها ولكن عندما يكون سبها والحديث عنها بسوء يؤدي إلى رد فعل مماثل فإننا نهينا عن سبها (الجائز في الأصل) إذا كان يؤدي إلى مفسدة أكبر وهي سب الله سبحانه وتعالى، والقراء الكرام يعلمون جيدا أن العلماء – وفي مقدمتهم الإمام مالك– قد استنبطوا سد الذريعة من هذه النصوص ودلالاتها، وبعضهم يعرف سد الذريعة بأنه: فعل أمر جائز يؤدي إلى محرم فسب الأصنام جائز ولكنه عندما يؤدي إلى محرم فإنه يجب تجنبه، ومن أدلتهم قصة أصحاب السبت في قوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا

(١)الأنعام: ١٠٨

شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾﴾[1] يقول ابن العربي رحمه الله –في أحكام القرآن– هَذِهِ الْآيَةُ أَصْلٌ مِنْ أُصُولِ إثْبَاتِ الذَّرَائِعِ الَّتِي انْفَرَدَ بِهَا مَالِكٌ، وَتَابَعَهُ عَلَيْهَا أَحْمَدُ فِي بَعْضِ رِوَايَاتِهِ، وَخَفِيَتْ عَلَى الشَّافِعِيِّ وَأَبِي حَنِيفَةَ مَعَ تَبَحُّرِهِمَا فِي الشَّرِيعَةِ، وَهُوَ كُلُّ عَمَلٍ ظَاهِرِ الْجَوَازِ يُتَوَصَّلُ بِهِ إلَى مَحْظُورٍ، ولهذا مسخهم الله ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾﴾[2] اهـ.

أحبتي الأكارم (لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه) نبراس لكل المصلحين الذين يسعون في البناء والإنتاج وينظرون لمن حولهم مراقبين ردود الأفعال من هنا وهناك ثم إن هذه القواعد العامة (لا يتحدث الناس) (على رسلكما إنها صفية) (لولا أن قومك حديثوا عهد بالجاهلية) ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ تعطي بمجموعها فرصة فريدة للتعامل الإيجابي مع بني الإنسان وتستفيد من هذه القواعد الأقليات المسلمة والمغتربون في بلاد غير المسلمين.

٦: أم يتحدث عنه كقدوة في التفاؤل وأسوة في تنسم الأمل في أحلك الظروف وأخطر الأزمات وسأقتصر على نموذجين الأول يتعلق بالهجرة والثاني يتعلق بغزوة الخندق.

---

(١) الأعراف: ١٦٣ – ١٦٦

(٢) أحكام القرآن جـ٣ صـ٤٩٣.

النموذج الأول: من المعروف أنه ﷺ خرج من مكة إلى المدينة مهاجرا وقريش تلاحقه وقد أعدت جائزة عظيمة قدرها مائة ناقة لمن قبض عليه وجاء به حيا أو ميتا، فتاقت نفس رجل اسمه سراقة بن مالك المدلجي، فبادر في البحث عنه من خلال قص الآثار مستخدما ملكته الفطرية التي خصه الله بها وقومَه فيركب سراقة جواده ثم يلحق بالنبي ﷺ وأبي بكر في الطريق ويحاول تحقيق المهمة وتَحُولُ القدرةُ الإلهية دون تحقيقها، فتغوص قوائم فرسه في الأرض ثم يحاول المرة الثانية والثالثة فيطلب بعد ذلك الأمان فيُعطى له ثم يقول ﷺ: **(كَيْفَ بِكَ يَا سُراقَةُ إِذَا أُلْبِسْتَ سِوارَيْ كِسْرَى)** [1]-كما يروي صاحب الشفا-ثم تمر الأيام ويكون قول النبي ﷺ معجزة مبشرة بطول عمر سراقة رضي الله عنه حتى يشهد الفتح الإسلامي العظيم ومبشرة بانتصار هذا الدين.

وأنت تعلم -أخي الكريم- أن أعداءه ﷺ كانوا يريدون أن يمكروا به وقدَّموا في سبيل تحقيق ذلك الهدف ثلاثة خيارات قال تعالى ﴿ **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾** ﴾[2]، ويبدو أن خيار القتل كان الخيار المفضل عندهم بعد نتيجة التشاور بين سادة قريش، وغلّب هذا الرأي اقتراح أبي جهل المتضمن قتله بطريقة جماعية بحيث يتفرق دمه في القبائل، وقد حضر إبليس هذه المشاورات ووافق على رأي أبي جهل.

إن سراقة بن مالك خاض هذه المغامرة يريد مائة من الإبل، لكنه بعد المحاولات الفاشلة يرجع مدافعا عنه ﷺ مستخدما وسيلة تخذيل الأعداء وتثبيطهم عن البحث

(١) الشفا رقم ٢٤٩

(٢) الأنفال: ٣٠

عنه، وحاصلا في نفس الوقت على كتاب أمان من نبي الرحمة ﷺ إنه موقف عجيب كان قمة في التفاؤل عند الأزمات موقف لا يمكن للأشخاص العاديين أن يفهموه وأمل عجيب لا يمكن لصاحب النظر المحدود أن يفسره، سراقة بن مالك يريد الحصول على هذه الجائزة ويقترب من تحقيقها حسب الظاهر وعندما يفشل في تحقيقها يطرح عليه مَن كان ومازال مطلوبا هذا السؤال (كيف بك يا سراقة إذا لبست سواري كسرى) .

ثانيا: عندما ننتقل إلى (غزوة الخندق) والتي صورها القرآن الكريم جغرافيا ونفسيا، قال تعالى: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١ ﴾[1] وأثناء هذه الوضعية التي صورها القرآن الكريم بدأ النبي ﷺ بحفر خندق محيط بالمدينة من الناحية الشمالية الغربية كخطة دفاعيه بإشارة من سلمان الفارسي رضي الله عنه حيث قال: (إنا كنا بأرض فارس إذا حوصرنا خندقنا علينا)[2]، فبدأ نبي الرحمة ﷺ والصحابة الكرام يحفرون الخندق، قال البراء: (أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِحَفْرِ الْخَنْدَقِ، قَالَ : وَعَرَضَ لَنَا صَخْرَةٌ فِي مَكَانٍ مِنَ الخَنْدَقِ، لاَ تَأْخُذُ فِيهَا الْمَعَاوِلُ، قَالَ : فَشَكَوْهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، قَالَ عَوْفٌ: وَأَحْسِبُهُ قَالَ: وَضَعَ ثَوْبَهُ ثُمَّ هَبَطَ إِلَى الصَّخْرَةِ ، فَأَخَذَ الْمِعْوَلَ فَقَالَ: بِسْمِ اللهِ فَضَرَبَ ضَرْبَةً فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ، وَقَالَ: **اللَّهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ، وَاللَّهِ إِنِّي لأُبْصِرُ قُصُورَهَا الْحُمْرَ مِنْ مَكَانِي هَذَا،** ثُمَّ قَالَ: بِسْمِ اللهِ وَضَرَبَ أُخْرَى فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ فَقَالَ: **اللَّهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ، وَاللَّهِ إِنِّي**

(١) الأحزاب: ١٠ - ١١

(٢) الرحيق المختوم صـ ٢٧٤.

لأُبْصِرُ الْمَدَائِنَ، وَأُبْصِرُ قَصْرَهَا الأَبْيَضَ مِنْ مَكَانِي هَذَا ثُمَّ قَالَ: بِسْمِ اللهِ وَضَرَبَ ضَرْبَةً أُخْرَى فَقَلَعَ بَقِيَّةَ الْحَجَرِ فَقَالَ: **اللَّهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ، وَاللَّهِ إِنِّي لأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا)** [1].

تحليل وتعليق:

أحبتي الأفاضل إن الرسول ﷺ يحدث في هاتين القصتين قصة سراقة السابقة وقصة هدم الصخرة عن قمة التفاؤل، والعجيب أن إخباره بالمستقبل المشرق لهذا الدين يكون مصاحبا لأصعب الظروف وأشد الأزمات، وهذا يعطينا دروسا مهمة في اختيار الأوقات المناسبة لزرع الأمل في نفوس الجنود وغرس التفاؤل في قلوب الأفراد، وكأنه ﷺ يعلمنا أن بذور التفاؤل و شموع الأمل وقتهما الجميل موسم الأزمات وظرفهما المناسب وقت الابتلاءات وليكن شعارنا في هذه المناسبات ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾[2] فسراقة عنده مشروع اقتصادي كان يطمح إلى تحقيقه من خلال تنفيذ المهمة، ولكنه يُفاجأ بشيئين الأول منهما تمثل في استحالة تحقيق المهمة، وثانيهما أن يخبره ﷺ بأنه سيلبس سواري كسرى وهي رسالة عجيبة وأمل فريد يتجاوز الحدود، ثم إن الصخرة التي أعجزتهم ويخافون أن يدخل الأعداء منها وحال هذه الجماعة المؤمنة صوره القرآن الكريم كما أسلفنا ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠﴾، إنهم يخافون أن يدخل الأعداء من هذه النافذة، فيأتي ﷺ فيضرب الصخرة فيحقق لهم الأملين معاً، الأمل الأول: تكسير الصخرة وهو

(١) رواه أحمد رقم ١٨٧١٦ والنسائي رقم ٨٨٥٨

(٢) الشرح: ٦

أمل قريب، والأمل الثاني: أن يبشرهم بأن المستقبل لهذا الدين وأن الباطل له صولة ولكنه سيضمحل، فكل ضربة بيده الشريفة يُحقق بها هدفين ويزرع في القلوب بها أملين.

الضربة الأولى: تحقق بها تحطيم جزء من الصخرة وتحقق من خلالها معجزة غيبية وضمانة نبوية (أعطي مفاتيح الشام وهو ينظر إلى قصورها).

الضربة الثانية: تحقق من خلالها تحطيم لجزء آخر من الصخرة وتحقق أيضا من خلالها الحصول على بلاد فارس (أعطيت فارس والله لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن).

الضربة الثالثة: تحقق من خلالها قطع بقية الحجر و تحقق أيضا من خلال هذه الضربة الحصول على بلاد اليمن (أعطيت مفاتيح اليمن والله إني لأبصر أبواب صنعاء مكاني)، وكأن هناك تناسبا بين نوعية الضربة ونوعية البلد الذي أعطي مفاتحه، إذ من المعروف أن الضربة الأولى هي أقوى الضربات عادة فجعل معها فتح الشام الذي هو بلد النبوات والبركات وهو أقربها إلى المدينة، فأهميته مناسبة لحجم قوة الضربة الأولى، والضربة الثانية تليها في القوة عادة ويناسبها بلاد الفرس باعتبارها حضارة منافسة أو موازية لحضارة الشام (الروم) ثم تأتي الضربة الثالثة التي قطعت بقية الحجر ويكون مع نهاية الصخرة أخذ مفاتيح اليمن، فكأن الصخرة موزعة على ما كان موجودا من الحضارات حول جزيرة العرب وكل ضربة تناسب البلد وحضارته، والصحابة عندما اشتكوا إليه هذه الصخرة التي لا تأخذ منها المعاول إنما كانوا يبحثون عن وسيلة دفاعية عن المدينة ولكنه عندما يقول: الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام والله إني لأنظر إلى قصورها الساعة فكأنه يرد بالهجوم إلى ما وراء الحدود ويختم الغزوة بقوله: (**الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلاَ يَغْزُونَنَا**)[1] إن

(١) البخاري رقم ٤١١٠.

أسوتنا ﷺ يرسم لنا منهجا فريدا في التفاؤل وبعد النظر ثقة فيما عند الله جل جلاله والعجيب أن القرآن الكريم عندما تحدث عن محطات ساخنة من غزوة الأحزاب أعقب ذلك بقوله: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾[1] حتى نستشعر أن نبي الرحمة ﷺ نعم القدوة والأسوة في هذه المواقف وغيرها، ووقت الشدة تتمايز المواقف وتتباين القناعات أمام الضغوط النفسية أما الذين جعلوا نبي الرحمة ﷺ قدوتهم واتخذوه اسوتهم فذكر القرآن حالهم ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾[2] أما الذين جعلوا الشيطان قدوتهم والنفاق ملتهم فقد سجل القرآن الكريم واقعهم وبين مواقفهم ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾[3] إنها دروس في الثقة بالله والاعتماد عليه والقناعة الثابتة بأن النصر آت لا محالة، فالنصر بمفهومه العام حليف الرسل وأتباعهم ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ ﴾[4] ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾[5]، فالمجرمون مهما طغوا وبغوا ومهما استكبروا وتجبروا –إلَّم يتوبوا– فإن عقاب الله ينتظرهم،

(١) الأحزاب: ٢١

(٢) الأحزاب: ٢٢

(٣) الأحزاب: ١٢

(٤) غافر: ٥١

(٥) يوسف: ١١٠

والمصلحون الصادقون مهما استُضعِفوا وأُوذُوا فإن العاقبة لهم ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾[1]

إن التفاؤل المنبثق من الثقة بالله ينبغي أن يكون سمة بارزة في حياة المصلحين وأصحاب المبادئ النبيلة، فالله سبحانه تعالى أمر نبيه ﷺ أن يقول للأعداء ويعلن لهم النتائج النهائية في المعارك بين أهل الإيمان وبين عبدة الأوثان، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾[2] إن القرآن الكريم حدد لنا معاشر المؤمنين أحد احتمالين وسمى كلا منهما (حسنى) وحدد لأعدائنا أحد احتمالين وسمى كلاً منهما (عذاباً)، ولتوضيح هذه الفكرة لو عدنا إلى بداية البعثة فإننا نجد سمية أم عمار رضي الله عنها نالت إحدى الحسنيين، وهي الشهادة في سبيل الله، كما أننا نجد النصر كان حليفا لسيف الله خالد بن الوليد والنصر إحدى الحسنيين، وذكر عند وفاته رضي الله عنه أنه خاض قرابة مائة معركة.

قائلا : ها أنا أموت على فراشي كما يموت البعير فلا نامت أعين الجبناء[3].

كما أننا نجد من نالهما معا مثل سيدنا عمر فقد كان النصر حليفا له في خلافته وقد قتل شهيدا فحقق الله له ما كان يرجوه في قوله: (اللَهُمَّ قَتْلًا فِي سَبِيلِكَ وَوَفَاةً فِي بَلَدِ

(١) القصص: ٨٣

(٢) التوبة: ٥٢

(٣) سير أعلام النبلاء الجزء الأول صـ٣٨٢.

نَبِيِّكَ)[1]، وفي المقابل فقد نال الوليد بن المغيرة على سبيل المثال عذابا من عنده قال تعالى: ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ ﴾[2] وكذلك أبو لهب ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ ﴾[3] بينما أبو جهل وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة والنضر بن الحارث....إلخ قد نالوا عذابا بأيدي المؤمنين في غزوة بدر، ونالوا عذابا من عند الله إذ ماتوا على الكفر، وقد أردت من هذه المقارنة أن يعرف المؤمن رتبته السامقة ومكانته اللائقة مستشعرا أنه منصور في كل الأحوال (**عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**)[4].

إن الرسول ﷺ في الموقفين السابقين كأنه يرسم للمصلحين وأصحاب الأهداف النبيلة منهجا فريدا لبابه التفاؤل وسياجه الأمل فيما عند الله، فهو ﷺ يعطي من خلال النموذجين السابقين دروسا لليائسين وتوجيهات للحائرين (الآن نغزوهم ولا يغزونا) أخبر بها عن أهل مكة ومن تحزب معهم و(أعطيت مفاتيح الشام)، (أعطيت فارس)، (أعطيت مفاتيح اليمن) إخبار وتبشير عن فتح تلك البلدان، وقد يقول قائل إن الرسول ﷺ أخبر عن فتح هذه البلدان وسواء عبّر عنه برمزية لُبس سراقة لسواري كسرى أو صرَّح بالفتح (أعطيت مفاتيح الشام...) إلخ، إنما يتحدث ﷺ عن معجزة غيبية لا بد أن

(١) الطبراني في الأوسط رقم ٢٧٩٥ .

(٢) المدثر: ٢٦

(٣) المسد: ٣

(٤) رواه مسلم رقم ٧٦٢٩.

تتحقق، والجواب أن هذا صحيح ولكن الرسول ﷺ أخبر أيضا بمعجزات لا بد أن تتحقق كذلك.

يقول ﷺ: **(لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلاَ يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ إِلاَّ أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الإِسْلاَمَ، وَذُلاً يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ)**(١).

ويقول ﷺ: **(إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي)** (٢).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب إذ سئل رسول الله ﷺ أي المدينتين تفتح أولا قسطنطينية أو رومية؟، فقال رسول الله ﷺ: **(مَدِينَةُ هِرَقْلَ تُفْتَحُ أَوَّلًا)** يعني قسطنطينية(٣).

هذه الأحاديث النبوية تخبرنا عن معجزات ومبشرات بعضها تحقق وبعضها الآخر ما زلنا ننتظره ونؤمن أنه سيتحقق بعز عزيز أو بذل ذليل، فالقسطنطينية قد فتحها السلطان العثماني البطل محمد الفاتح سنة ٨٥٧هـ أي بعد إخباره ﷺ عن فتحها بأكثر من ٨٠٠سنة وما زلنا ننتظر فتح رومية وهي روما كما في معجم البلدان عاصمة إيطاليا اليوم، وهذه الأحاديث المتقدمة هي بمنزلة الوقود الذي يساعد على مواصلة السير والتضحية من أجل إتمام المسيرة وإذا تكاسلنا وتخلينا عن هذا الهدف النبيل فسيأتي

(١) رواه أحمد رقم ١٧٠٨٢ واللفظ له وابن حبان رقم ٦٧٠١ والبيهقي رقم ٩١٠٨٩ والهيثمي رقم ٩٨٠٧ .

(٢) رواه مسلم رقم ٧٤٤٠ .

(٣) رواه أحمد رقم ٦٦٤٥ واللفظ له والدارمي رقم ٤٨٦ وابن أبي شيبة في المصنف رقم ١٩٤٦٣وصححه الحاكم رقم ٨٣٠١ ووافقه الذهبي.

آخرون يحققون الهدف وينالون الشرف ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾[1]

هذه بعض مواقفه ﷺ التي فاقت كل تصور وتجاوزت كل توقع.

٦. أم يتحدث عنه كقدوة في العفو عند المقدرة، إن مواقفه ﷺ في العفو والصفح لا تحصى وسأكتفي بذكر موقف واحد، لما فتح ﷺ مكة ووجد أمامه أعداء الأمس وما زالوا يحملون الفكر المنحرف (الشرك) الذي حملهم على أذيته ومحاربته ﷺ وأصبح هؤلاء تحت السيطرة الكاملة قال قولته المشهورة مخاطباً إياهم (ما تظنون أني فاعل بكم؟) قالها لقوم تفننوا في أذيته، وقصة سراقة ليست منا ببعيد ويكون قراره النهائي وعند المقدرة على محاسبة هؤلاء على ما فعلوا وارتكبوا (**اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ**)[2] فخيارات هؤلاء في السابق في محاربته ﷺ وشعاراتهم حسب ما سجله القرآن الكريم ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾[3] وشعاره ﷺ: (**اليَوْمَ يَوْمُ المَرْحَمَة**)[4] قال البدوي الشنقيطي – رحمه الله – :

وفاز من لاذ به واسترحمه ... يومئذ إذ هو يوم المرحمة

(اذهبوا فأنتم الطلقاء)، (لا تثريب عليكم).

---

(١) محمد: ٣٨

(٢) السنن الكبرى البيهقي رقم ٥٦٢٨ وابن كثير في السيرة صـ٥٧٠.

(٣) الأنفال: ٣٠

(٤)عيون الأثر الجزء ٢ صـ١٩٠. وذكره الحافظ في الفتح الجزء ٨ صـ٩.

نموذجان من عفوه ﷺ تجاه قائدين بارزين معارضين:

أ- صفوان بن أمية ذكر ابن كثير وغيره من أصحاب السير أن صفوان بن أمية لما فُتِحَتْ مكة خرج يريد جدة ليركب منها إلى اليمن، فقال عمير بن وهب يا نبي الله إن صفوان بن أمية سيد قومه، وقد خرج هاربا ليقذف نفسه في البحر، فأمِّنه يا رسول الله صلى الله عليك فقال (هو آمن) فقال يا رسول الله فأعطني آية يعرف بها أمانك فأعطاه رسول الله ﷺ عمامته التي دخل فيها مكة، فخرج بها عمير حتى أدركه وهو يريد أن يركب في البحر فقال يا صفوان فداك أبي وأمي الله الله في نفسك أن تهلكها هذا أمان من رسول الله ﷺ وقد جئتك به قال ويلك اغرب عني فلا تكلمني قال أي صفوان فداك أبي وأمي أفضلُ الناس وأبرُ الناس وأحلمُ الناس وخيرُ الناس ابن عمك عزه عزك وشرفه شرفك وملكه ملكك، قال إني أخاف على نفسي قال هو أحلم من ذلك وأكرم فرجع معه حتى وقف على رسول الله ﷺ فقال صفوان إن هذا يزعم أنك قد أمنتني قال (صدق) قال فاجعلني بالخيار فيه شهرين قال: (**أنت بالخيار أربعة أشهر**)[1].

ب- سهيل بن عمرو، ذكر الواقدي وغيره من أصحاب السير والحاكم في المستدرك قال ولما دخل رسول الله ﷺ مكة وظهر انقحمتُ بيتي [رميت بنفسي] وأغلقت علي بابي وأرسلت إلى ابني عبد الله -وهو من السابقين إلى الإسلام وقد هاجر إلى الحبشة- أن اطلب لي جوارا من محمد وإني لا آمن أن أُقْتَلَ، وجعلت أتذكر أثري عند محمد وأصحابه فليس أحد أسوأ أثرا مني وإني لقيت رسول الله ﷺ يوم الحديبية بما لم يلقه أحد، وكنت الذي كاتبته مع حضوري بدرا وأحدا وكلما تحركتْ قريش كنت فيها،

(١)ابن كثير في السيرة الجزء الثالث صـ٥٨٥.

فذهب عبد الله بن سهيل إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله [تؤمنه؟] فقال: (**نعم فهو آمن بأمان الله فليظهر**) ثم قال رسول الله ﷺ لمن حوله: (**مَنْ لَقِيَ سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو فَلاَ يَشُدَّ إِلَيْهِ ، فَلَعَمْرِي إِنَّ سُهَيْلاً لَهُ عَقْلٌ وَشَرَفٌ ، وَمَا مِثْلُ سُهَيْلٍ جَهِلَ الإِسْلاَمَ**)[1] فأخبره بمقالة رسول الله ﷺ فكان سهيل يقبل ويدبر وخرج إلى حنين مع النبي ﷺ وهو على شركه حتى أسلم بالجعرانة.

٧. أم يتحدث عنه كقدوة في الكرم وقمة في الجود؛ إن كرمه ﷺ لا يمكن للقلم أن يصوره يقول الشيخ أحمد البدوي الشنقيطي في نظمه للمغازي مبينا أن كرمه أخجل السحاب:

أعطى عطايا شهدت بالكرم ... يومئذ له ولم تجمجم
وكيف لا ومستمَدُّ سيبه ... من سيب رب ذي عناية به
أعطى عطايا أخجلت دلح الديم ... إذ ملأَت ملأً الفضا من النعم
زهاء ألفي ناقة منها وما ... ملأ بين جبلين غنماً
لرجل وبله ما لحلقه ... منها ومن رقيقه وورِقِه
منها أفاد العم ما نأى به ... فهال منه عمه عن ثوبه

إنه كرم قطع الألسن، وغير الموازين، وعفو كما أسلفنا أحدث انقلابا في التصورات والمفاهيم! وكأن لسان الحال يقول: يا معشر قريش: قبل ثمان سنوات من هذا التاريخ رصدتم جائزة لمن يأتيكم بمحمد ﷺ حيا أو ميتا، والجائزة هي مئة من الإبل باعتبارها جائزة خيالية! وقررتم الوفاء بدفعها وبطريقة جماعية إنْ تحقق الهدف، وتمر الأيام والتاريخ

(١) المستدرك رقم ٥٢٢٥ واللفظ له ، وهو في إمتاع الأسماع صـ٣٩٧ وفي السيرة الحلبية جـ ٣صـ٩٦.

لا يحابي وها هو اليوم يعطي نفس الجائزة –مئة من الإبل– لكل فرد يعطي مئة من الإبل لمن بقي حيا من السادة بعد بدر يعطي مئة ومئة وحصار الشِّعب لم يمض عليه إلا عقد من الزمن وشهوده ما زالوا أحياء!! وحصار الشِّعب له بعدان بعد انتقامي، وبعد اقتصادي وكأن قراره ﷺ (اذهبوا فأنتم الطلقاء) يقابل البعد الانتقامي للحصار، وقراره بتوزيع هذه الغنائم على السادة (أعداء الأمس) يقابل البعد الاقتصادي! إنه كرم قلَب الموازين، وحطم السدود أمام المترددين في قبول هذا الدين، فتحول الفرار من دين الله إقبالا عليه، (اذهبوا فأنتم الطلقاء)، (لا تثريب عليكم) قالها عند المقدرة، ،وأعطى المئات من الإبل والغنم وغير ذلك من أصناف الأموال لمن حاصروه وقاتلوه وأخرجوه وآذوه، ويكون جراء هذا الكرم اليقين محل الشك في قلوب أعداء الأمس والإيمان محل الكفر، إنه كرم أنقذ هؤلاء من عذاب جهنم كرم استأصل وساوس الشك ورواسب الشرك من قلوب هؤلاء، أما السابقون إلى الإسلام من المهاجرين والأنصار فلم تذكر لنا كتب السير أن الرسول ﷺ خصهم بهذا العطاء، لم تذكر لنا السير أنه أعطى أبا بكر الصديق أو عمر بن الخطاب أو سعد بن عبادة أو محمد بن مسلمة.. لماذا..؟ قد يكون السبب – والعلم عند الله– (وهذا مما يساعد على فهم سياسة تقسيم تلك الغنائم ومعرفة الأهداف التي حققتها) أن هذه النماذج سواء تمثلت في أفراد كأمثلتنا، أو تجمعات مثل المهاجرين والأنصار، قد تمكن الإيمان من قلوبهم وتضحيتهم في سبيل الله دليل على ذلك والعطاء –على أهميته لهؤلاء– لا يضيف لبنات جديدة للصرح الإسلامي فلو أعطى أبا بكر – مثلا– مئة من الإبل لفسره بعض الناس بأنه رد بالجميل للصدِّيق على ما قدمه مصداقا

لقوله ﷺ: (**مَا نَفَعَنِي مَالٌ قَطُّ، مَا نَفَعَنِي مَالُ أَبِي بَكْرٍ فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ**)[1] ولو أعطى سعد بن عبادة –مثلا– من هذه الأموال لفسر أنه رد بالجميل لسعد الذي وظف مكانته الاجتماعية كسيد لقومه خدمة لدين الله ونصرة لنبيه الكريم، وهو الذي كان يُعِد–كما يقول الذهبي في السير– قصعة كبيرة من أجود الطعام كل ليلة للنبي ﷺ تدور معه حيث ما دار في بيوته !!،وهو الذي كان يأتي إلى بيته كل ليلة بثمانين من أهل الصِّفَّة يعشيهم[2]، وإكرام أهل الصفة إكرام لنبي الرحمة ﷺ، فلو أعطاه من هذه الغنائم لفسر بأنه رد بالجميل لسعد، مع ملاحظة أن أي مسلم مهما علا شأنه لا يمكن أن يكافئ نبي الرحمة ﷺ باعتباره الوسيلة التي أنقذته بتوفيق الله من نار جهنم ﴿**بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٧**﴾[3] وأقصد مما سبق أن السابقين إلى الإسلام الذين ضحوا بكل ما يملكون في الشدة والعسر هم القاعدة الصُّلبة لهذا الدين، وهم في نعمة إيمانية عظيمة ويتمنون للبشرية جمعاء أن تنعم مثلهم بنعمة الهداية إلى الدين القويم، وعندما أشكل على بعض الصحابة أهداف سياسة تقسيم الغنائم أخبر المعنيين بأنها (لعاعة) من الدنيا تألف بها أقواما ليسلموا، ووكل هؤلاء على إيمانهم، ولهذا قال صفوان وَاللَّهِ لَقَدْ أَعْطَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا أَعْطَانِي وَإِنَّهُ لأَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيَّ فَمَا بَرِحَ يُعْطِينِي حَتَّى إِنَّهُ لأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ[4] وأجاب نبي الرحمة ﷺ الأنصار قائلا: (**أَمَا تَرْضَوْنَ**

(١) أحمد رقم ٧٤٣٩ واللفظ له وابن ماجه رقم ٩٤ والترمذي رقم ٤٠٩٢.

(٢) تهذيب سير أعلام النبلاء جـ١صـ١٦٢.

(٣) الحجرات: ١٧

(٤) رواه مسلم رقم ٢٣١٣.

أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ وَتَذْهَبُونَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ)[1] ويؤكد ذلك قوله ﷺ: **(إِنِّي لأُعْطِي الرَّجُلَ وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ، خَشْيَةَ أَنْ يَكُبَّهُ اللَّهُ فِي النَّارِ)**[2].

فنبي الرحمة ﷺ يعطي هذه العطايا الجمة لأناس يعلمون أن تاريخهم معه مليء بالمواقف المحرجة والتصرفات المخجلة فنبي الرحمة ﷺ بهذا الكرم والصفح يحطم كل التصورات ويهدم كل المفاهيم التي تقف عائقا أمام انتماء هؤلاء لهذا الدين العظيم واتِّباع نبيه الكريم، وكأنه ﷺ في هذين الموقفين (العفو المطلق) و(الكرم المدهش) ينسجم ويتناص مع ما قدر الله وأراده لأهل مكة.

﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ ﴿٤﴾ ﴾[3] (اذهبوا فانتم الطلقاء)، (لا تثريب عليكم) كأنه استجابة وانسجام مع قوله تعالى: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ ﴿٤﴾ ﴾ وتوزيع الأموال والغنائم بهذه الطريقة على هؤلاء وفي مقدمتهم سادة مكة و"يعطي عطاء من لايخشى الفقر" كما قال أعرابي معبراً عن كرم النبي ﷺ، إذ لغة المئين هي اللغة السائدة في هذا التقسيم وكأن هذه العطايا منسجمة كل الانسجام مع قوله تعالى: ﴿أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ ﴾، والعجيب أن عفوه ﷺ "اذهبوا فأنتم الطلقاء" وكرمه في توزيع الغنائم على سادة مكة تحقق من خلالهما الهدف الأسمى والغاية العظمى وهي عبادة الله ﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ﴾فأبو سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو وغيرهم كانوا قبل هذين الموقفين يعبدون

(١) البخاري رقم ٤٣٣٣.

(٢) البخاري رقم ٢٧ واللفظ له ومسلم رقم ١٥٠.

(٣) قريش: ٣ – ٤

الأصنام ، وإن كان الرسول ﷺ عندما دخل مكة قام بتكسير هذه الأصنام وأصدر عفوا عاما مصاحبا لهذا العمل (**اذْهَبُوا فَأَنْتُم الطُّلَقَاءُ**) وما بقيَ من هذه الأصنام في القلوب فإن نبي الرحمة ﷺ حطَّمه بهذا الكرم الذي لم يسبق له مثيل فتحطمت الأصنام حسا ومعنىً، وازداد بناء صرح الإسلام بلبنات قوية كسهيل بن عمرو، وعتَّاب بن أسيد،وأبي سفيان وغيرهم.. وقرَّت عين نبي الرحمة ﷺ بهداية هؤلاء ولا ننسى جوابه للملك الذي أراد أن يطبق الأخشبين على أهل مكة، فتبرز الرحمة الجِبِلِّيَّة التي فُطر عليها " **بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**" فكأنه ﷺ كان يراهن على أبناء هؤلاء ولو على المدى البعيد، فإذا بالطريق تختصر له ويسلم هؤلاء قبل أن يولد الأبناء أو يبلغوا سن التكليف على الأقل فيكون أبو سفيان، وسهيل بن عمرو، وحكيم بن حزام، وأبو سفيان بن الحارث من جنود الدعوة يعبدون الله لا يشركون به شيئا، فبين إجابته ﷺ للملك (**بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**)[1] وبين هداية هؤلاء عشر سنوات وحصل بهداية هؤلاء فضل كبير، وخير كثير أولا: هدايتهم وإنقاذهم من نار جهنم وهذا ما كان يحرص عليه نبي الرحمة ﷺ ثانيا: نصرتهم لدين الله وجهادهم في سبيله سبحانه وتعالى في أحلك الظروف وأصعب المواقف فجاهدوا مع النبي ﷺ مدة حياته.

وعندما اختاره الله سبحانه وتعالى لجواره بعد التهيئة القرآنية ﴿**إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ**

(١) البخاري٣٢٣١ ومسلم رقم ٤٧٥٤.

﴿وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾[1] لما قبض ﷺ ارتد كثير من العرب ومنعوا الزكاة وقامت حرب الردة المعروفة، عندئذ قام سهيل بن عمرو خطيبا في مكة وقال "يا معشر قريش لا تكونوا آخر من يدخل في دين الله وأول من يخرج منه" فكان خطابه رضي الله عنه ــوهو خطيب مفوه- وسيلة تثبيت لأهل مكة، فالنبي ﷺ رحمة، بكل ما في الكلمة من معنى فرحمته وشفقته ﷺ تجلّت في العفو والصفح عند المقدرة، حتى الكرم تجلت فيه الشفقة والرحمة شفقة جعلت كل واحد من هؤلاء السادة ينسى صفحات من تاريخه قد تكون حاجزا بينه وبين الانتماء لهذا الدين العظيم!، فمعظم هؤلاء السادة أسر يوم بدر أو قتل أبوه، أو أخوه مما قد يسبب عادة حصول عقدة نفسية من مجرد السيطرة على مكة باعتبارها رمزاً لهؤلاء السادة، لكن الشفقة والرحمة المصاحبتَيْن لأعلى مستويات العفو وأسمى مرتقيات الكرم جعلت هؤلاء السادة يقتنعون بأن العزة في هذا الدين والانتماء إليه، وأن نبي الرحمة ﷺ لم يأت ليذل زيدا أو عمراً من الناس وإنما جاء بمنهج جمع متطلبات الفطرة الإنسانية مبينا في نفس الوقت أن (**النَّاسُ مَعَادِنُ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلاَمِ إِذَا فَقِهُوا**)[2]، وبالتالي فلا داعيَ للقلق، فكل فرد سيجد مكانته اللائقة به حسب تضحيته وكفاءته، واستطاع ﷺ أن يستخرج درر هذه المعادن مصهورة نقية من رواسب الجاهلية وكان العفو والكرم والرحمة والشفقة وغير ذلك مما خصه الله به عوامل تصفية لهذه الدرر من كل صدإٍ دخيل، فينبغي للدعاة والمصلحين أن يأخذوا الدروس الكثيرة من هذه المواقف وكذلك الساسة والقادة الذين يبحثون عن تأييد

(١) النصر: ١ - ٣

(٢) البخاري رقم ٣٣٨٣ واللفظ له ومسلم رقم ٦٦١٥.

الجماهير ومساندتها.. إنها مواقف تذهل العقول وتحير الألباب إنك تجد رحمته في قوله: (**بل أرجوا الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا**) هذا ما كان يتمناه ويرجوه لهؤلاء في المستقبل وعلى المستوى العملي تتجلى الشفقة من خلال عفوه وكرمه كما أسلفنا، ويعطي ﷺ من غنائم حنين للمؤلفة قلوبهم في السنة الثامنة، ثم يأتي القرآن الكريم في السنة التاسعة بعد ذلك مؤيداً ومزكياً لهذه السياسة، حيث جعل للمؤلفة قلوبهم بنداً خاصا من بنود الزكاة قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾[1] الآية.

وأكتفي بهذه النماذج الثمانية خشية الإطالة.

(١) التوبة: ٦٠

الفصل الخامس
نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم
وقمة التضحية والفداء من الأصحاب
بدافع المحبة

وسأقتصر في هذا الفصل على عشرة عناوين وقد يشمل العنوان نموذجاً أو أكثر وطريقتي أنني أبدأ بالحديث أو الخبر ، ثم يكون التحليل والتعليق بعد ذلك،مراعيا –قدر الاستطاعة–التسلسل التاريخي ، وإليك العناوين:

أولا: لله عليَّ ألاَّ أذوق طعاما ولا أشرب شرابا أو آتي رسول لله ﷺ :

ذكر ابنُ كثير وغيرُه من أصحاب السير قال: (وُطِئَ أبو بكر بن أبي قحافة يوما بمكة وضرب ضربا شديدا دنا منه عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ويحرفهما لوجهه ونزا على بطن أبى بكر حتى ما يعرف وجهه من أنفه وحملت بنو تيم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله ولا يشكون في موته فتكلم آخر النهار فقال ما فَعَل رسولُ الله ﷺ فمسوا منه بألسنتهم وعذلوه ثم قاموا وقالوا لأمه (أم الخير) انظري أن تطعميه شيئا أو تسقيه إياه فلما خلت به ألحت عليه وجعل يقول: (ما فعل رسول الله ﷺ ؟) فقالت: واللهِ لا علم لي بصاحبك فقال اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله قالت ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك ذهبت قالت نعم فمضت معها حتى جاءت وَوجدت أبا بكر صريعا دَنِفًا فدنت أم جميل وأعلت بالصُيَاح وقالت واللهِ إن قوما نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر وإني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم قال فما فعل رسول الله ﷺ قالت هذه أمك تسمع قال فلا شيء عليك منها قالت سالم صالح فقال أين هو قالت في دار ابن الأرقم قال فإن لله عليَّ ألا

أذوق طعاما ولا أشرب شرابا أو آتي رسول الله ﷺ فأمهلتا حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس خرجتا به يتكئ عليهما حتى أدخلتاه على رسول الله ﷺ[1] .

تحليل وتعليق: أبو بكر رضي الله عنه الرجل الاجتماعي، النسابة الذي يَأْلف ويُألف، وله من الخصائص ماله على المستوى القبلي والإقليمي يضرب هذا الضرب حتى يغمى عليه ويحمل في ثوب إلى منزله وأهله لا يشكون في موته، وعندما يفيق آخر النهار، أو عندما يخرج من العناية المركزة -كما يقال- يكون أول مؤشر على إدراكه وأول قرينة على درايته هذه الجملة: (ما فعل رسول الله ﷺ؟) (فمسوا منه بألسنتهم وعذلوه ثم قاموا) لأن هذه اللغة لا تعجبهم وهذا الاهتمام لا يروق لهم (وقالوا لأمه انظري أن تطعميه شيئا أو تسقيه إياه) فبنو تيم حملوه وتعاطفوا معه باعتباره شخصية قبلية مرموقة بكل المعايير، فهو رجل محبب، وتاجر ناجح، وشهم جواد، ومثقف حصيف ومن شدة ما أصابه من الأذى كانوا يظنون —على ما يبدو- أنه سينشغل بآلامه وينكفئ على نفسه وكأن قبيلة بني تيم تقول له: نحن وقفنا معك بدافع الحمية القبلية ولكن هذه الجملة (ما فعل رسول الله ﷺ ؟) بددت هذا التعاطف.

والدليل على ذلك (مسوا منه بألسنتهم وعذلوه ثم قاموا) قد يكون في قانون الملأ وقاموس السادة المعمول به في مكة بقيادة أبي جهل أنه لا يُتَعَاطف مع هذه النماذج إلا في إطار قبلي بحت بمعنى أن أبا بكر مع ماله من المكانة الاجتماعية في بني تيم وقريش عامة، لا يتعاطف معه حسب القانون إلا بوصفه شخصية من بني تيم، لا بوصفه من أتباع محمد ﷺ! يتعاطف معه بصفته السابقة لا بصفة أول ما يتكلم به بعد الإغماء

(١) السيرة النبوية لابن كثير ١-٤٤٠ ومعرفة الصحابة لأبي نعيم ورقم الحديث فيه ٢٧٢٤.

عليه طول اليوم (ما فعل رسول الله ﷺ؟) ثم يقولون لأمه (انظري أن تطعميه شيئا أو تسقيه إياه) من الواضح أن أبا بكر-رضي الله عنه- وصل مرحلة حرجة كادت تودي بحياته ولهذا السبب هم يريدون أن تقوم الأم بعملٍ ما، يحفظ سلامته، (فلما خلت به ألحت عليه) ويبدو أنها ألحت عليه من أجل أن يشرب أو يأكل حتى تطمئن على سلامته ولكنه بقيَ ثابتا على ذلك السؤال (ما فعل رسول الله ﷺ؟) ولما تكرر هذا منه (قالت: والله لا علم لي بصاحبك)، بعد رد الأم بدأ يبحث عن قناة أخرى،(فقال اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب(فاطمة) فاسأليها عنه) من الواضح أنها خرجت تحت سوط عاطفة الأمومة وحنانها فهي تريد جوابا لهذا السؤال الذي وراءه ما وراءه! تريد جوابا حتى يذوق أبو بكر طعاما أو يشرب شرابا حفظا لسلامته المعرضة للخطر فخرجت الأم حتى جاءت أم جميل فقالت إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله قالت ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك ذهبت قالت نعم) إنها المحبة الصادقة والحصافة العميقة، فأم جميل تحب النبي ﷺ وتخاف عليه وهي لبنة من لبنات هذا الأساس ولا يمكن أن يُؤتى نبي الرحمة ﷺ من قِبَلها فنفت معرفتها بأبي بكر وبمحمد ﷺ وكأنها من خلال تحقيقها لرغبة الأم في الذهاب معها في ما يظهر تبحث عن وسيلة آمنة ودقيقة لأي معلومة تتعلق بنبي الرحمة ﷺ، (فلما جاءت ورأت ما به) لم تتمالك في التعبير عن عاطفتها واستنكارها لهذا العمل الإجرامي والإرهاب العدواني الذي تعرض له أبو بكر ثم قال لها (ما فعل رسول الله ﷺ؟) (فقالت هذه أمك تسمع) وأم جميل كأنها في حرج، فهي قبل قليل أجابت الأم بأنها لا تعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله وذهبت معها بعد لتعطيه الخبر بطريق آمنة (هذه أمك تسمع) قد تكون إشارة منها له في أن يتصرف بما يراه مناسبا وبما لا يعرض سلامة النبي ﷺ للخطر وكأن جواب

الصديق (فلا شيء عليك منها) يعفي أم جميل من التبعة الأمنية إذ لا أحد أحرص على الدعوة ولا أحب إلى رسول الله ﷺ وأحب إليه من أبي بكر عندئذ اطمأنت وأجابته (فقالت سالم صالح فقال أين هو فقالت في دار ابن الأرقم) توقعت الأم أن أبا بكر سيأكل ويشرب بعد اطمئنانه على سلامة النبي ﷺ المؤكدة و معرفة المكان الموجود فيه ولكن الأم تفاجأ بهذا القسم أو النذر الذي لابد من الوفاء به حيث قال (إن لله علي أن لا أذوق طعاما ولا أشرب شرابا أو آتي رسول الله ﷺ، فأمهلتا حتى إذا هدأت الرِجْلُ وسكن الناس) وهذا نوع من الاحتياط لسلامته ﷺ (خرجتا به يتكئ عليهما حتى أدخلتاه على رسول الله ﷺ) فأبو بكر رضي الله عنه لا يقر له قرار ولا يهدأ له بال حتى يرى رسول الله ﷺ ويتدرج لهذا الهدف العظيم مستخدما كل وسيلة متاحة وآلية ممكنة أولا (ما فعل رسول الله) وعندما لا يجد الجواب قال لأمه (اذهبي إلى أم جميل) وعندما تخبره أم جميل بسلامته يسألها عن مكانه زيادة في الاطمئنان على سلامته وليسلط أيضاً مشاعره الملتهبة وعاطفته الجياشة وشعوره المفعم بالمحبة إلى عين المكان الذي يحوي شخصه الشريف ﷺ فهو رضي الله عنه يسلط العدسة البصرية والكاميرا الذهنية لينال المتعة والنشوة بتخيله أن محبوبه في مكان معلوم و ظرف محدد وكأنه يراه في نفس المكان وبالهيئة التي يعرفه فيها، ويألفه عليها، وهذا شيء طبعي على سبيل المثال: عندما يكون لك زميل وبينكما اتصال دائم وتواصل مستمر وغاب عنك فترة ثم اتصلت به وسألته عن مكانه فقال لك أنا أطوف بالبيت الحرام لاشك أن عدسة البصر وكاميرا الذاكرة ستشاركان زميلك طوافه وتتجولان معه بين الصفا والمروة أما إذا اتصلت به وقال لك أنا في أرض الله الواسعة فإنك لا تتصور المكان ولا الهيئة التي هو عليها.

ثم إن اختيار دار ابن الأرقم له خصوصيته المتميزة للأسباب التالية:-

١ــ أن الأرقم بن أبي الأرقم –آنذاك– شابٌّ في حدود العشرين.

٢– أنه من بني مخزوم.

٣– داره عند الصفا.

وهذه كلها عوامل تبعد الأنظار عن هذه الدار، فبنو مخزوم بقيادة أبي جهل من المفترض أنهم محصنون ضد الدعوة ويزداد الأمر بعدا عن مظنة الشبهة عندما يكون صاحب الدار شابا في حدود العشرين ولا يتوقع أن يكون هؤلاء المضطهدون المضايقون في دار عند الصفا!! ثم إن قوله رضي الله عنه (فلا شيء عليك منها) يعطي دلالة واضحة على أن أمه لا تحمل عداوة لهذا الإسلام العظيم ولا نقمة على نبيه الكريم فمحيط الصديق بشكل عام قريب من الدعوة وقد أسلمت هذه الأم فيما بعد وأسلم أبوه أبو قحافة كذلك، فأبو قحافة صحابي وأبو بكر صحابي وأسماء بنت أبي بكر صحابية و عبد الله بن الزبير (ابنها) صحابي وتسلسل أربعة من الصحابة رأوا نبي الرحمة ﷺ وعاشوا معه شيء نادر وتميزَ الصديق بإسلام أبويه عن باقي العشرة المبشرين بالجنة رضي الله عنهم وأرضاهم.

ثانيا: إذ هما في الغار:

ذكر أصحاب السير أن الرسول ﷺ وأبا بكر لما انتهيا إلى غار ثور قال أبو بكر والله لا تدخله حتى أدخله قبلك فإن كان فيه شيء أصابني دونك فدخل فكسحه ووجد في جانبه ثُقُبا فشق إزاره وسدها به وبقي منهم اثنان فألقمهما رجليه ثم قال لرسول الله ﷺ ادخل فدخل رسول الله ﷺ ووضع رأسه في حجره ونام فلدغ أبو بكر في رجله من الجحر ولم يتحرك مخافة أن ينتبه رسول الله ﷺ، ولكن دموع الصديق سقطت على وجه

رسول الله ﷺ فقال مالك يا أبا بكر قال لدغت فداك أمي وأبي فتفل رسول الله ﷺ فذهب ما يجده [1].

تحليل وتعليق: (مالك يا أبا بكر)

لما أذن الله سبحانه وتعالى لنبيه الكريم بالهجرة غادر بيته ﷺ في ليلة ٢٧صفر من السنة الرابعة عشرة من النبوة –كما يقول صاحب الرحيق المختوم– وأتى إلى دار رفيقه وأءمن الناس عليه في صحبته وماله أبي بكر رضي الله عنه ثم غادرا منزل أبي بكر من الباب الخلفي ليخرجا من مكة خفية وعلى عجل وقبل أن يطلع الفجر ولما كان النبي ﷺ يعلم أن قريشا ستَجِدُّ وتجتهد في الطلب وأن الطريق الذي ستتجه إليه الأنظار لأول وهلة هو طريق المدينة المتجه شمالا فقد سلك الطريق الذي يقابله تماما وهو المتجه جنوبا نحو اليمن سلك هذا الطريق وسار نحو خمسة أميال حتى وصل جبلا يعرف بجبل ثور وهو جبل شامخ وعر الطريق صعب المرتقى ذو أحجار كثيرة حتى وصلا إلى غار في قمة الجبل عرف في التاريخ بغار ثور ولما انتهيا إلى الغار كما مر (قال أبو بكر والله لا تدخله حتى أدخله قبلك فإن كان فيه شيء أصابني دونك) إنها المحبة الصادقة الخالصة التي تترجم في أعمال فعلية وممارسات عملية، إن الصديق رضي الله عنه يريد أن يكون جسمه درعا واقيا دون النبي ﷺ فإن كان في الغار شيء يؤذي أصابه دونه ﷺ وإن كان هناك منفذ في الغار يحتمل أن تأتي منه حية أو أي شيء يؤذي فإنه سيسده ولو بجزء من جسمه والجزء الآخر سيكون فِراشا للنبي ﷺ ينام عليه، الذي يحرص عليه الصديق ويريحه أن ينام نبي الرحمة ﷺ مرتاحا وهو مطمئن على سلامته وراحته.

---

(١) الرحيق المختوم صـ١٤٩.

هذه الصورة الفريدة عندما تضيفها إلى الموقف السابق (ما فعل رسول الله؟) (لله علي أن لا أذوق طعاما ولا أشرب شرابا أو آتي رسول الله ﷺ) وغيرها من المواقف الفريدة فإنك تعرف مكانة الصديق السامقة ومحبته الصادقة، ومنزلته الفائقة هذه المحبة المتناهية والرقة العاطفية النادرة —إذ كان كثير البكاء في الصلاة– توازيهما القوة في المواقف المصيرية للأمَّة.

إن مواقفه —كما يقول ابن العربي المالكي– عواصم من القواصم.

فعندما توفي محبُوبُه ﷺ أثرت صدمة هذه المأساة على كثير من العظماء

ولكنَّ أحَبَّ الناس إلى النبي ﷺ هو الذي يتولى إنقاذ الموقف، ينقذه بلغة قوية حازمة حاسمة (من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت).

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾[1] وعندما يَرتد العرب، ويمنعون الزكاة مستغلين غياب القيادة النبوية يكون موقفه عاصمة من هذه القاصمة حيث حارب المرتدين فَهزمهم وأعاد للإسلام هيبته في نفوس العامة.

ثالثا: يا عم أتعرف أبا جهل:

روى البخاري (قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بَيْنَا أَنَا وَاقِفٌ فِي الصَّفِّ يَوْمَ بَدْرٍ فَنَظَرْتُ عَنْ يَمِينِي وَشِمَالِي فَإِذَا أَنَا بِغُلاَمَيْنِ مِنَ الأَنْصَارِ حَدِيثَةٍ أَسْنَانُهُمَا تَمَنَّيْتُ أَنْ أَكُونَ بَيْنَ أَضْلَعَ مِنْهُمَا فَغَمَزَنِي أَحَدُهُمَا فَقَالَ يَا عَمِّ هَلْ تَعْرِفُ أَبَا جَهْلٍ قُلْتُ نَعَمْ مَا حَاجَتُكَ إِلَيْهِ يَا ابْنَ أَخِي قَالَ أُخْبِرْتُ أَنَّهُ يَسُبُّ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَئِنْ

(١)آل عمران: ١٤٤

رَأَيْتُهُ لاَ يُفَارِقُ سَوَادِي سَوَادَهُ حَتَّى يَمُوتَ الأَعْجَلُ مِنَّا فَتَعَجَّبْتُ لِذَلِكَ فَغَمَزَنِي الآخَرُ فَقَالَ لِي مِثْلَهَا فَلَمْ أَنْشَبْ أَنْ نَظَرْتُ إِلَى أَبِي جَهْلٍ يَجُولُ فِي النَّاسِ قُلْتُ أَلاَ إِنَّ هَذَا صَاحِبُكُمَا الَّذِي سَأَلْتُمَانِي فَابْتَدَرَاهُ بِسَيْفَيْهِمَا فَضَرَبَاهُ حَتَّى قَتَلاَهُ ثُمَّ انْصَرَفَا إِلَى رَسُولِ اللَّهُ ﷺ فَأَخْبَرَاهُ فَقَالَ أَيُّكُمَا قَتَلَهُ قَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَنَا قَتَلْتُهُ، فَقَالَ : **هَلْ مَسَحْتُمَا سَيْفَيْكُمَا** قَالاَ لاَ فَنَظَرَ فِي السَّيْفَيْنِ فَقَالَ **كِلاَكُمَا قَتَلَهُ** سَلَبُهُ لِمُعَاذِ بْنِ عَمْرٍو)[1].

ومن المعلوم أنَّ السبب في إعطاء السلب لمعاذ بن عمرو رضي الله عنه هو أنَّ صاحبه وهو معوذ بن عفراء رضي الله عنه قتل شهيدا في نفس الغزوة.

تحليل وتعليق: و الله لا يفارق سوادي سواده

(إني لواقف يوم بدر فنظرت فإذا أنا بين غلامين) إن عبد الرحمن بن عوف ﷺ ينقل انطباعه النفسي عن هذا الموقف وكون الإنسان يحب أن يليه في الميدان التنافسي بعض الأقوياء أمر فطري وشيء طبعي ولكن المفاجئ والذي يشبه المصادفة بعد تسجيل عبد الرحمن ﷺ لهذا الانطباع (فغمزني أحدهما فقال يا عم أتعرف أبا جهل قلت نعم وما حاجتك؟ قال أخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ والذي نفسي بيده إن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا فتعجبت لذلك فغمزني الآخر فقال مثلها) فالغلام لم يقل يا عبد الرحمن ولم يقل يا أبا فلان وإنما قال يا عم وفي رواية أن عبد الرحمن قال له يا ابن أخي. إنها التربية الإسلامية النبوية الفريدة (أتعرف أبا جهل) فالغلام لم يخرج حدود المدينة لصغره لم يذهب إلى مكة حتى تتسنى له معرفة أبي جهل (قلت نعم وما حاجتك؟) إنه جواب إجمالي واستفهام تعجبي وكأن لسان حال عبد

(١) البخاري رقم ٣١٤١

الرحمن ﷺ يقول أنا تمنيت أن يليني في ميدان المعركة من هو أقوى منك وبالمنظور المادي فلا أظن أنك تسأل عن أبي جهل إلا لأمر شخصي يتعلق به باعتبار أنني أعرفه كامل المعرفة ولهذا قال وما حاجتك ولكن جواب الغلام جاء على غير ما كان يتوقعه بدليل قوله (فتعجبت).

(أخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ...إلخ) فهو لم ير بعينه ولكنه بناء على الخبر الذي سمعه بالتواتر سيتخذ هذا القرار وكأن الغلام يقول هذه فرصة نادرة للانتقام ممن يسب النبي ﷺ وينال من مكانته الشريفة (أخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ) والمؤمنون في مكة ممنوعون من المقاومة والدفاع امتثالا لقوله تعالى: ﴿كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[1] أما الآن وقد أذن لهم في المقاومة والدفاع مصداقا لقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْ﴾[2] وما دام أبو جهل يسب رسول الله ﷺ وهو موجود في جيش المشركين (والذي نفسي بيده إن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا) يقول الغلام هذا قرار اتخذته ولا رجعة فيه دفاعا عن عرض النبي ﷺ ولا يهمني فارق السن بيني وبينه والتقارب العمري كان حاضرا يوم بدر كما حدث في المبارزة بين عبيدة بن الحارث وعتبة بن ربيعة وحمزة وشيبة وعليٍّ والوليد بن عتبة فكأن الغلام يقول لا يهمني الفارق السني بيني وبينه ولا يهمني أيضا ما يتمتع به من قوة بدنية نادرة وغطرسة جامحة وقد سماه النبي ﷺ (فرعون هذه الأمة) لا يخفى أن الغلام عنده هدف محدد وقد قرر أن يحققه وكأنه يقول أنا أمامي ألف رجل من المشركين والمعركة بيننا وبينهم معركة دينية

(١) النساء: ٧٧

(٢) الحج: ٣٩

وأستطيع أن أقتل عددا أكثر من هؤلاء المشركين حسب الفرص المتاحة عند نقاط التَمَاسِّ وأماكن الاحتكاك ولكني قررت قرارا لا بد أن أنفذه (إن رأيت أبا جهل باعتباره يسب رسول الله ﷺ (لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا) فأبو جهل كافر محارب وهذا يكفي مبررا لقتله ولكن الغلام عندما أخبر أن أبا جهل يسب رسول الله ﷺ جعل هذا مبررا أساسيا لقتله دون سائر المشركين ولا ريب أن الغلام يعرف قوة أبي جهل وصعوبة الوصول إليه ولكنه اقترب من عبد الرحمن بن عوف باعتباره يعرف أبا جهل حق المعرفة ليدله عليه ويساعده على تحقيق مشروعه الذي يطمح إليه والغلام مستعد لدفع ثمن قراره (حتى يموت الأعجل منا) فكأنه يقول أنا ناجح في هذا القرار في الحالتين إما أن أَقْتُل من يسب النبي ﷺ وهذا شرف لا نظير له وإما أن أُقتَل شهيدا في سبيل الله ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾[1] ولكن عبد الرحمن بن عوف ﷺ عندما تعجب من كلام الغلام فإذا بالغلام الآخر يغمزه ويسأله نفس السؤال ويحمل نفس الهدف الشريف والروح المعنوية العالية فلما رأى عبد الرحمن أبا جهل وهو يجول في الناس قال (أتريان هذا صاحبكما فابتدراه بسيفيهما حتى قتلاه ثم انصرفا إلى النبي ﷺ فأخبراه) وكأن الغلامين يقولان يا رسول الله أخْبرنا أن أبا جهل يَسُبُّكَ وسبُّك جريمة كبرى وخيانة عظمى واتخذنا قرارا لا رجعة فيه بقتل من يسبك والآن نبشرك ونخبرك بقتله فقال (أيكما قتله؟ فقال كل منهما أنا قتلته يا رسول الله فقال: هل مسحتما سيفيكما؟ قالا: لا قال: كلاكما قتله) إنه توافق وتجانس بين الغلامين في الأهداف والوسائل والغايات فغمز كل منهما عبد الرحمن رضي الله عنه وسؤاله عن أبي جهل كانَ

(١) التوبة: ٥٢

وسيلةً وقد اتفقا في الوسيلة، وضَرْبُ كُلٍّ منهما أبا جهل بسيفه هدفٌ، وقد اتفقا في الهدف، وكلٌ منهما شهد له رسول الله ﷺ بأنه قتل أبا جهل ونال هذا الشرف العظيم وهذا اتفاق في الغاية المنشودة.

رابعا: فتقدم رجل من الأنصار..

عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ (أُفْرِدَ يَوْمَ أُحُدٍ فِي سَبْعَةٍ مِنَ الأَنْصَارِ وَرَجُلَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ فَلَمَّا رَهِقُوهُ قَالَ: **مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الْجَنَّةُ** أَوْ **هُوَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ**، فَتَقَدَّمَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ ثُمَّ رَهِقُوهُ أَيْضًا، فَقَالَ: **مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الْجَنَّةُ** أَوْ **هُوَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ**، فَتَقَدَّمَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى قُتِلَ السَّبْعَةُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِصَاحِبَيْهِ: **مَا أَنْصَفْنَا أَصْحَابَنَا**) (١)

وكان آخر هؤلاء السبعة هو عمارة بن يزيد بن السكن قاتل حتى أثبتته الجراحة فسقط وذكر ابن هشام أنه في هذه الأثناء فاءت إلى رسول الله ﷺ فئة من المسلمين فأجهضوا الكفار عن عمارة وأدنوه من رسول الله ﷺ فوسده قدمه فمات وخده على قدم رسول الله ﷺ وبعد سقوط ابن السكن بقيَ رسول الله ﷺ في القرشيين فقط ففي الصحيحين عن أبي عثمان قال: (لَمْ يَبْقَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَعْضِ تِلْكَ الأَيَّامِ الَّتِي قَاتَلَ فِيهِنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ غَيْرُ طَلْحَةَ وَسَعْدٍ)(٢) أما سعد فقد نثل له رسول الله ﷺ كنانته وقال ارم فداك أبي وأمي مما يبرهن على مكانته وكفاءته.

---

(١) مسلم رقم ١٠٠.

(٢) البخاري رقم ٣٧٢٣.

وأما طلحة فقد قاتل قتالا شديدا، روى النسائي عن جابر قصة تَجَمُّع المشركين حول الرسول ﷺ –يوم أحد– ومعه نفر من الأنصار قال جابر (فَأَدْرَكَهُ الْمُشْرِكُونَ، فَالْتَفَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: مَنْ لِلْقَوْمِ؟ فَقَالَ طَلْحَةُ: أَنَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: كَمَا أَنْتَ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ: أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ فَقَالَ: أَنْتَ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ ثُمَّ الْتَفَتَ فَإِذَا بِالْمُشْرِكِينَ قَالَ: مَنْ لِلْقَوْمِ؟ قَالَ طَلْحَةُ: أَنَا قَالَ: كَمَا أَنْتَ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ: أَنَا فَقَالَ: أَنْتَ، فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ ثُمَّ لَمْ يَزَلْ يَقُولُ ذَلِكَ وَيَخْرُجُ إِلَيْهِمْ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَيُقَاتِلُ قِتَالَ مَنْ قَبْلَهُ حَتَّى يُقْتَلَ حَتَّى بَقِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَطَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَنْ لِلْقَوْمِ؟ فَقَالَ طَلْحَةُ: أَنَا، فَقَاتَلَ طَلْحَةُ قِتَالَ الأَحَدَ عَشَرَ حَتَّى ضُرِبَتْ يَدُهُ فَقُطِعَتْ أَصَابِعُهُ)[1] وروى الترمذي أن النبي ﷺ قال فيه يومئذ: (**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى شَهِيدٍ يَمْشِي عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ**)[2] وروي أبو داود قالت عائشة: (كان أبو بكر إذا ذكر يوم أحد قال ذلك اليوم كله لطلحة) [3] وروى البخاري عن قيس بن أبي حازم قال رأيت يد طلحة شلاَّء وقَى بها النبي ﷺ يوم أحد[4] ولما رجع الصحابة قال رسول الله ﷺ دونكم أخاكم فقد أوجب قال أي الصديق فأقبلنا على طلحة نعالجه وقد أصابته بضع عشرة ضربة.

وهذا أبو طلحة كما روى البخاري قال أنس رضي الله عنه لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي ﷺ وأبو طلحة مجوب عليه بحجفة له (أي بترس) وكان رجلا راميا شديد النزع

(١) السنن الكبرى للنسائي رقم ٤٣٤٢.

(٢) الترمذي رقم ٣٧٣٩.

(٣) زاد المعاد الجزء الثالث صـ١٨٠.

(٤) البخاري ٤٠٦٣.

وكان الرجل يمر معه بجعبة من النبل فيقول ﷺ، انثرها لأبي طلحة قال ويشرف النبي ﷺ ينظر إلى القوم فيقول أبو طلحة بأبي أنت وأمي لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم (نَحْرِي دُونَ نَحْرِكَ) (١).

وذكر ابن إسحاق أن أبا دجانة قام أمام رسول الله ﷺ فترس عليه بظهره والنبل يقع عليه وهو لا يتحرك وذكر صاحب إمتاع الاسماع قال أقبل عبدالله بن حميد بن زهير يوم أحد يركض فرسه مقنعاً في الحديد يقول أنا ابن زهير دلوني على محمد فو الله لأقتلنه أو أموت دونه فقال له أبو دجانة: هلم إلى مَن يقي نفس محمد بنفسه وضرب فرسه فعرقبها ثم علاه بالسيف فقتله ورسول الله ﷺ ينظر إليه ويقول: (**اللّهُمّ ارْضَ عَنْ ابْنِ خَرَشَةَ كَمَا أَنَا عَنْهُ رَاضٍ**) (٢).

تحليل وتعليق: (من يردهم عنا وله الجنة)

إن الحديث هنا عن بعض أحداث غزوة أحد وقد ضرب الأصحاب رضي الله عنهم أروع الأمثلة في الاستماتة والدفاع عن محبوبهم ﷺ .

قام الصحابة ببطولات نادرة وتضحيات فريدة فعندما كان القتال محتدما حول موقع الرسول ﷺ لم يكن معه إلا تسعة نفر فجرى بين المشركين وبين هؤلاء التسعة قتال عنيف ظهرت فيه نوادر الحب والتفاني وروائع البسالة والبطولة وقوة الاستماتة في الدفاع عن النبي ﷺ (أفرد رسول الله ﷺ يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش..إلخ.

(١) البخاري رقم ٣٨١١.

(٢) إمتاع الاسماع للمقريزي تقي الدين أحمد بن علي صححه وشرحه محمود محمد شاكر جـ (١) ص١٣٦.

إن الدفاع عن نبي الرحمة ﷺ دفاع عن المنهج وكفاح عن المبدإ فغزوة أحد سبقت نزول سورة المائدة التي اشتملت على آية تشير إلى عصمة الله لنبيه من الناس قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾[1] ولهذا قال (من يردهم) ورد المشركين عن النبي ﷺ أمر لابد منه في كل حال ولكن يتأكد الأمر عندما تكون الرسالة لم تكتمل والمؤمنون ما زالوا قليلين ومن دعائه-قبل ذلك- في غزوة بدر (**اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الإِسْلاَمِ لاَ تُعْبَدْ فِى الأَرْضِ**)[2] أما على مستواه الشخصي فإنه قال (**وَلَوَدِدْتُ أَنِّي قَاتَلْتُ فِي سَبِيلِ اللهِ فَقُتِلْتُ ثُمَّ أُحْيِيتُ ثُمَّ قُتِلْتُ ثُمَّ أُحْيِيتُ**)[3]- ولكن رحمته التي جُبِلَ عليها جعلته يقول (من يردهم عنا..إلخ) من يرد خالد بن الوليد وأبا سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل حتى لا ينقطع الوحي!! من يردهم عنا حتى تنعم البشرية بإكمال منهاجها الشامل ..﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾[4] إنهم يقاتلون بقيادة أبي سفيان وقد جعل على ميمنة جيشه خالد بن الوليد وعلى ميسرته عكرمة بن أبي جهل وكان القائد أبو سفيان يفخر في المعركة ويقول (لنا العزى ولا عزى لكم)، (من يردهم عنا) حتى يسلم صاحب الميمنة ويلقب سيف الله ويقوم بهدم العزى التي يفخر بها القائد ويسلم صاحب الميسرة ويجاهد في سبيل الله حتى يقتل شهيدا في معركة اليرموك ويسلم القائد ويجاهد في معركة اليرموك

(١) المائدة: ٦٧

(٢) مسلم رقم ٤٦٨٧.

(٣) البخاري رقم ٢٩٧٢ واللفظ له ومسلم رقم ١٨٧٦.

(٤) المائدة: ٣

-وقد ناهز الثمانين- محرضا الجيش المسلم على الجهاد قائلا (الله الله إنكم أنصار الإسلام وهؤلاء أنصار الشرك اللهم هذا يوم من أيامك اللهم أنزل نصرك يا نصر الله اقترب)[1]، (من يردهم) حتى تكو ن سلامته ﷺ سببا في إنقاذهم من نار جهنم (من يردهم) حتى تتحول كراهيتهم إلى محبة وعداوتهم إلى ودٍّ ويحل العلم محل الجهل والإسلام محل الكفر وتتبدد هذه الأفكار المنحرفة والتصورات الخاطئة عن دين الله العظيم ونبيه الكريم ولهذا كان من دعائه يوم أحد (**رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي، فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ**)[2] فهو ﷺ يدعو لهم بالمغفرة وقد شجوا رأسه وكسروا رباعيته ويضيفهم إلى نفسه (قومي) ويعتذر عنهم (إنهم لا يعلمون)، (من يردهم عنا) حتى تنعم البشرية بالهداية ويعرف هؤلاء وغيرهم مكانة نبي الرحمة ﷺ (من يردهم عنا) ولكن جائزته الجنة مرافقا لنبي الرحمة ﷺ وكأن هذا الرد يعود نفعه على الراد والمردود على حد سواء فالراد جزاؤه الجنة لقيامه بعملية (الرد) وبنجاة نبي الرحمة ﷺ وتبليغه الرسالة سيكون ذلك سببا في نجاة هؤلاء من نار جهنم (فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل) تقدم دفاعا عن نبي الرحمة ﷺ تقدم لينال شرف (رفيقي في الجنة) وَعدَهم حتى يطمئنهم بأنهم إن فارق أحدهم محبوبه ﷺ جراء هذا الرد وفرقتهم الدنيا فإنه سيكون رفيقه في الجنة (ثم رهقوه فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة) لا فرار ولا تردد فهم يعملون على تنفيذ صفقةٍ الثمنُ فيها رد المشركين عن نبي الرحمة ﷺ والمثمن مرافقة النبي ﷺ في الجنة .

(١) تهذيب سير أعلام النبلاء جـ ١ص٢٢٤

(٢) البخاري رقم ٦٥٣٠

إنه يوم مليء بالأحداث والمفاجآت والمواقف المصيرية التي تحتاج إلى دراسة عميقة والله سبحانه وتعالى أراد بحكمته البالغة أن يعصم نبيه ويكمل دينه حتى تنعم البشرية بالهداية فعندما قاوم السبعة تلك الهجمة الشرسة على القيادة النبوية واستشهدوا جميعا تقدم طلحة الأسد المغوار وكأنه يقول إن محبتي لنبي الرحمة ﷺ هي الوقود والمحرك لرد هؤلاء بكل وسيلة، لا أكتفي بالرد عن نبي الرحمة ﷺ بالترس أو غيره بل أرد عنه بجسمي ولسان حاله يقول إن يدي لا قيمة لها إن لم ترد عنك يا رسول الله وأن تقطع أصابعي أو تصاب يدي بالشلل لا يهم فالذي أسعى إليه وسأعمل على تحقيقه بكل وسيلة ألاَّ يصل إلى شخصك الشريف سوء من هؤلاء المحاربين،، قاتل رضي الله عنه بهذه البسالة النادرة دفاعا عن النبي ﷺ وقد منحه الله سبحانه وتعالى قوة خارقة إذ صار بمنزلة كتيبة تجابه كتيبة وأثناء هذه التضحية الفريدة وعندما زال الخطر يقول ﷺ: (دونكم أخاكم فقد أوجب) (من ينظر إلى شهيد...)، (من يردهم عنا وله الجنة) وطلحة رضي الله عنه قام برد المشركين ودافع أروع دفاع عن نبي الرحمة ﷺ ولهذا أوجب (أي وجبت له الجنة) وقد شهد له ﷺ بالشهادة وهو لا زال بين ظهراني المسلمين.

وأما سعد بن أبي وقاص فقد نثل (أي نثر) له ﷺ كنانته وقال: (ارم فداك أبي وأمي) ولم يجمع النبي ﷺ أبويه لأحد سواه مما يبرهن على سمو مكانته وقوة شجاعته رضي الله عنه وأرضاه-كما أسلفنا-.

وهذا أبو طلحة -كما سبق- (لما كان يوم أحد..إلخ) (نحري دون نحرك) إنها المحبة الصادقة والتضحية الفريدة انهزم الناس وطلحة مجوبٌ أي مترس عليه بحجفة أي ترس من الجلد فأبو طلحة يشغل باله شيء واحد إن مهمته في هذه المرحلة الحرجة قصرها على حماية محبُوبِهِ ﷺ حمايته بكل وسيلة!، سَيَقِيهِ بالتُّرس وعندما يقتضي الأمر أبعد من ذلك

فسيتكيف مع كل جديد. (بأبي أنت وأمي يا رسول الله) إنها مقدمة عاطفية جميلة مفعمة بالمحبة والإيمان تبرهن على ما بعدها فكأنه يقول الذي يهمني يا رسول الله ﷺ سلامتك من الأعداء وأنا أفرح قمة الفرح وأطرب كثيرا عندما يكون جسمي درعاً واقيا لشخصك الشريف وتجسيداً لذلك فإن (نحري دون نحرك) ولكني أخاف أن تشرف برأسك أو بجزء من شخصك الشريف فيأتيك سهم من سهام القوم ولا يصيب نحري دونك أو أي جزء من جسمي ، فالذي أتشرف به وأسعى إلى تحقيقه أن يكون نحري درعاً واقيا وترسا مانعاً موازياً لترس (الحجفة)!! إنها المحبة الفريدة التي تميز بها هؤلاء الأصحاب لمحبوبهم نبي الرحمة ﷺ .

وهذا أبو دجانة ترس على نبي الرحمة ﷺ بظهره وهو منحن والنبل يقع عليه وهو لا يتحرك،(لا يتحرك) وإن تتابع النبل عليه فهو قرر الدفاع عن محبوبه وجسَّد هذه المحبة بصبره وثباته والنبل يتساقط عليه وكأنه رضي الله عنه يكون في نشوة جامحة ومتعة فائقة عندما يجعل نفسه ترساً يقي بها النبي ﷺ فوقْع النبل عليه شيء هينٌ ما دام في سبيل الدفاع عن محبوبه ﷺ (وأقبل عبد الله بن حميد بن زهير يوم أحد يركض فرسه).

فالرجل مجهز للقيام بالمهمة للأسباب التالية أولاً يركض فرسه وليس راجلاً وثانياً قوله (أنا ابن زهير) وهو تعريف بنفسه ولابد أن تكون له دلالة خاصة قد يكون ابن زهير هذا معروفاً بالقوة العسكرية بالإضافة إلى أنه مقنعٌ بالحديد وراكبٌ على فرسه وهذه كلها عوامل تجعله في مركز قوة بالإضافة إلى قراره النهائي (لأقتلنه أو أموت دونه) وبعد عرض العضلات ومظاهر التحدي يكون الجواب السريع الحاسم من أبي دجانة رضي الله عنه بهذه الكلمات التي تحمل كثيراً من دلالات المحبة الصادقة والتضحية الفريدة يبدأ حديثه بهذه الكلمة (هلم) وهي جواب لقول ابن زهير دلوني ولكن أبا دجانة عبر بقوله (هلم

إلى من يقي نفس محمد بنفسه) وكأنه يقول له أنت عرَّفْتَ نفسك بابن زهير أما محدثك فلا يُعرف إلا بهذه الصفة (من يقي نفس محمد بنفسه)،(مَن) من الموصول المشترك الذي يدل على المفرد والجمع وصلته الجملة الفعلية الوقائية (يقي) نفس محمد بنفسه وكأنه يقول له أنت تبحث عن محمد ﷺ لتقتله وتريد من يدلك عليه وأنا أدلك على نفسي بدلا عنه ولن تعرفني إلا بصفة (من يقي نفس محمد بنفسه) فإن كنت مستعداً فـ(هلم) ولن يمنعك ركضك للفرس ولا تقنعك بالحديد (وضرب فرسه فعرقبها..إلخ) هلم إلى من يقي نفس محمد بنفسه هذا هو شعار أبي دجانة يقيه بنفسه ونبي الرحمة ﷺ ينظر ويكون تعليقه ﷺ على الحادثة (اللهم ارض عن أبي خرشة كما أنا عنه راضٍ).

رأينا من خلال هذا العنوان صوراً فريدةً من التضحية والفداء (من يردهم عنا وله الجنة) فتتابع الأصحاب الواحد تلو الآخر ورأينا كيف صار طلحة رضي الله عنه أثناء دفاعه عن النبي ﷺ بمنزلة كتيبة تقاتل دونه ضربت يده وشلت وقطعت الأصابع وهو صابر ثابت في الميدان يقاوم دون النبي ﷺ ورأينا دفاع أبي طلحة رضي الله عنه (نحري دون نحرك) وهو محجوبٌ عليه بالترس ورأينا كيف ترس أبو دجانة على نبي الرحمة ﷺ والنبل يقع عليه وهو لا يتحرك لأنه يستمتع بالاستماتة والفداء دفاعا عن محبوبه ﷺ ثم يعرف نفسه بهذه الصفة الجميلة (هلم إلى من يقي نفس محمد بنفسه!!) إنها محبة عبَّر الإمام عليٌّ كرم الله وجهه عنها عندما سئل كيف كان حبكم لرسول الله ﷺ فقال رضي الله عنه (كان والله أحب إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا ومن الماء البارد على الظمأ) [1].

(١) الشفاء جـ٢صـ٢٢.

خامسا: وللمرأة قصة في المحبة والتضحية أيضا!

ذكر الذهبي في سير أعلام النبلاء قالت أم عمارة: لَقَدْ رَأَيْتَنِي وَانْكَشَفَ النَّاسُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَمَا بَقِيَ إِلا فِي نفيرٍ مَا يُتمُّونَ عَشْرَةً، أَنَا وَابْنَايَ وَزَوْجِي بَيْنَ يَدَيْهِ نَذُبُّ عَنْهُ، وَالنَّاسُ يَمُرُّونَ بِهِ مُنْهَزِمِينَ، وَرَآنِي وَلا تِرْسَ مَعِي، وَرَأَى رَجُلا مُوَلِيًا مَعَهُ تِرْسٌ، فَقَالَ لِصَاحِبِ التِّرْسِ: "أَلْقِ تِرْسَكَ إِلَى مَنْ يُقَاتِلُ" فَأَخَذْتُهُ، فَجَعَلْتُ أَتَتَرَّسُ بِهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ)[1]

وذكر ابن إسحاق قال (مَرّ رَسُولُ اللّهِ ﷺ بِامْرَأَةٍ مِنْ بَنِي دِينَارٍ، وَقَدْ أُصِيبَ زَوْجُهَا وَأَخُوهَا وَأَبُوهَا مَعَ رَسُولِ اللّهِ ﷺ بِأُحُدٍ فَلَمّا نُعُوا لَهَا، قَالَتْ فَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ ؟ قَالُوا: خَيْرًا يَا أُمّ فُلَانٍ هُوَ بِحَمْدِ اللّهِ كَمَا تُحِبّينَ قَالَتْ أَرُونِيهِ حَتّى أَنْظُرَ إلَيْهِ قَالَ فَأُشِيرَ لَهَا إلَيْهِ حَتّى إذَا رَأَتْهُ قَالَتْ: كُلّ مُصِيبَةٍ بَعْدَك جَلَلٌ تُرِيدُ صَغِيرَةً)[2]

وجاءت إليه أيضا أم سعد بن معاذ تعدو وسعد آخذ بلجام فرسه فقال يا رسول الله أمي فقال مرحبا بها ووقف لها فلما دنت عزَّاها بابنها عمرو بن معاذ فقالت أما إذ رأيتك سالما فقد اشتويت المصيبة –أي استقللتها– ثم دعا لأهل من قتل بأحد وقال يا أم سعد أبشري وبشري أهلهم أن قتلاهم ترافقوا في الجنة جميعا وقد شفعوا في أهلهم جميعا قالت رضينا يا رسول الله ومن يبكي عليهم بعد هذا. أهـ.[3]

(١) سير أعلام النبلاء الجزء الثاني ٢٥٠.

(٢) الروض الأنف للسهيلي الجزء ٣ ص ٢٨٥ البيهقي رقم ١١٩٣.

(٣)الرحيق المختوم صـ٢٥٦..

ونختم هذا العنوان بموقف إيماني جريء أخرته حرصا على التسلسل التاريخي وهذا الموقف لسيدة مهاجرة مجاهدة وهي أم المؤمنين رملة بنت أبي سفيان رضي الله عنها وأرضاها..

ذكر ابن هشام أن أبا سفيان ذهب إلى المدينة محاولا تجديد [الهدنة]!(حَتّى قَدِمَ الْمَدِينَةَ فَدَخَلَ عَلَى ابْنَتِهِ أُمّ حَبِيبَةَ فَلَمّا ذَهَبَ لِيَجْلِسَ عَلَى فِرَاشِ رَسُولِ اللّهِ ﷺ طَوَتْهُ عَنْهُ فَقَالَ: يَا بُنَيّةُ مَا أَدْرِي أَرَغِبْت بِي عَنْ هَذَا الْفِرَاشِ أَمْ رَغِبْت بِهِ عَنّي؟ قَالَتْ بَلْ هُوَ فِرَاشُ رَسُولِ اللّهِ ﷺ وَأَنْتَ مُشْرِكٌ نَجِسٌ فَقَالَ وَاَللّهِ لَقَدْ أَصَابَك بَعْدِي شَرٌّ)[1].

تحليل وتعليق :

إن أم عمارة رضي الله عنها خرجت إلى أحد تحمل سقاءها لتروي ظمأ المجاهدين، ومعها لفائفها لتضمد جراحهم ثم حصل يوم أحد ما حصل فلقد رأت أم عمارة كيف أخذ القتل يشتد في صفوف المسلمين فيتساقطون على أرض المعركة شهيدا إثر شهيد ولم يبق مع النبي ﷺ كما تقول إلا نفير ما يتمون عدد أصابع اليدين مما جعل صارخ الكفار ينادي: لقد قتل محمد، عند ذلك ألقَتْ نسيبة سقاءها، وانبرت إلى المعركة – كما يقول صاحب كتاب صور من حياة الصحابة – (كالنمرة التي قصد أشبالها بِشَرٍّ) تقول أم عمارة فقال النبي ﷺ للرجل الذي رآه موليا (ألق ترسك إلى من يقاتل) فألقى الرجل ترسه ومضى وأخذتْه لكنها استخدمتْه بهذه الطريقة–كما تقول– (أتترس به عن الرسول ﷺ وما زلت أضارب عن النبي ﷺ وأرمي دونه بالقوس حتى أعجزتني الجراح) ثم تقول: وفيما نحن كذلك أقبل ابن قمئة كالجمل الهائج وهو يصيح: أين محمد؟ دلوني

(١) سيرة ابن هشام الجزء الثاني صـ٣٦٩.

على محمد ﷺ؟ فاعترضت سبيله أنا ومصعب بن عمير فصرع مصعبا بسيفه وأرداه قتيلا ثم ضربني ضربة خلفت في عاتقي جرحا غائرا فضربته ضربات ولكن عدو الله كان عليه درعان ورأى رسول الله ﷺ الدم يسيل من جرح أم عمارة فقال لابنها (أمك أمك اعصب جرحها بارك الله عليكم أهل بيت لمقام أمك خير من مقام فلان وفلان، رحمكم الله أهل بيت) فقالت نسيبة: ادع الله لنا أن نرافقك في الجنة يا رسول الله فقال (اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة) فقالت نسيبة ما أبالي بعد ذلك ما أصابني في الدنيا.

إنها المحبة الصادقة التي تدفع إلى هذه التضحية الفريدة وكأنها تقول: صحيح أنني امرأة وينبغي أن أقوم بما يقوم به النساء من سقي العطشى وتضميد الجرحى ولكن عندما يفر الناس عن حبيبي ﷺ فإني وأسرتي من زوج وأبناء كل منا سيفدي نبي الرحمة ﷺ بنفسه سنذب عن حبيبنا ونقاتل دونه مهما ترتب على ذلك أما الأنوثة وخصائصها فلا مجال للحديث عنها هنا إنما الحديث عن الهدف الاسمى والغاية العظمى المتمثلة في دفاعنا عن نبي الرحمة ﷺ، سندافع عنه في الدنيا وإن قتلنا دونه جميعا، وإننا لنرجو أن نعوض هذا الفراق بمرافقته في الجنة، والمرافقة كلمة تدل على المخالطة والملازمة (ادع الله أن نرافقك في الجنة) هذا ما نسعى إليه (اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة)، (لا يضرني ما أصابني في الدنيا بعد ذلك) إذ الهدف أن ندافع عن نبينا وأن نرافقه في الجنة، إن أم عمارة في هذه الظروف من خلال محبتها ودفاعها عن نبي الرحمة ﷺ كأنها تحولت من خصائص الأنوثة إلى خصائص الأبطال الشجعان وبهذه المناسبة لك أن تقارن بين نموذجين لترى الفرق الكبير في المحبة والتضحية أولهما: المقارنة بين أم عمارة وهند بنت عتبة فأم عمارة (نسيبة بنت كعب رضي الله عنها) لم تأت للقتال كما تقول عن نفسها ولكنها عندما رأت الخطر محدقا بالقيادة النبوية الشريفة تحولت وظيفتها تحولا دراماتيكيا إلى وظيفة

الرجال الأبطال، بل فاقت كثيرا من الرجال (لموقف نسيبة خير من موقف فلان وفلان) بينما هند كانت في المعركة وقد قتل أصحاب اللواء واحدا تلو الآخر وغيرهم ولم تقاتل معهم مع أنها تحمل روحا انتقامية تشدها وتدعوها إلى التضحية إذ قتل في بدر أبوها وأخوها وابنها وعمها و مع ذلك لم تصل إلى درجة القتال دون محبوب لها إذ لا أحد أحب إليها من نفسها أما نبي الرحمة ﷺ فإن اللغة السائدة عند الأصحاب، أصحاب الفداء والتضحية (نحري دون نحرك) (هلم إلى من يقي نفس محمد بنفسه)، (ما التفت يمينا ولا شمالا إلا ونسيبة تقاتل دوني) يقول شاهد عيان من الصحابة الكرام في تلك المعركة: (رَأَيْتُ يَدَ طَلْحَةَ شَلاَّءَ وَقَى بِهَا النَّبِيَّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ) [1].

النموذج الثاني: لنا أن نقارن كذلك بين أبي دجانة وابن قمئة؛ فأبو دجانة أثناء المعركة رأى شخصا من المشركين ولما رفع السيف عليه وَلْوَلَ فعرف أن هذا الإنسان امرأة فتركها وقال: أكرم سيف رسول الله عن أن أقتل به امرأة أما ابن قمئة: فعندما رأى نسيبة وعرف أنها امرأة ضربها بالسيف على عاتقها!! هل رأيت الفرق في الذوق السليم والخلق الرفيع حتى في أدبيات الحرب (أكرمت سيف رسول الله) إنها المحبة الصادقة والود الشامل محبة لشخصه الشريف ﷺ وتمتد أغصانها وفروعها إلى كل ما يتعلق به حتى السيف مادام يضاف إلى نبي الرحمة ﷺ فإن أبا دجانة يجعل نفسه مسئولا عن استخدامه أدبيا وأخلاقيا فأبو دجانة قد أخذ السيف بحقه وإذا كان المشركون يفقدون هذا الذوق الراقيَ ويكرمون سيوفهم بضرب النساء فنحن ربانا نبي الرحمة ﷺ تربية خاصةً في كل جوانب الحياة.

---

(١) البخاري رقم ٤٠٦٣.

إن للمرأة قصة في محبة نبي الرحمة ﷺ، محبة تدفع إلى هذه التضحيات الجسيمة والمرأة الأخرى (امرأة من بني دينار) عندما ينعى لها أبوها وأخوها وزوجها يكون تعليقها أثناء هول الصدمة (ما فعل رسول الله ﷺ) قالوا خيرا يا أم فلان هو –بحمد الله– كما تحبين (قالوا خيرا) وهذا جواب قد يكون كافيا ولكن الصحابة رضي الله عنهم أتبعوه بجواب آخر مطمئن (هو بحمد الله كما تحبين) وكأنهم يقولون إن كان لا يطمئنك على نبي الرحمة ﷺ هذا الجواب الإجمالي (قالوا خيرا) فإنا نفسر هذا الخير الذي عبرنا عنه إجمالا بمفهومك أنتِ للخير (هو بحمد الله كما تحبين) فأنت لك وضعية خاصة إذ نُعِيَ لك أبوك وأخوك وزوجك ولكن الشيء الذي يشغل بالكِ هو السؤال عن نبي الرحمة ﷺ وهو بحمد الله بخير كما تحبين ولكن المرأة لا تكتفي بهذين الجوابين ولذلك (قالت أرونيهِ حتى أنظر إليه فأشير إليها حتى إذا رأته قالت كل مصيبة بعدك يا رسول الله جلل) أي صغيرة عندما تأكدت بالوسائل السمعية والبصرية من سلامة نبي الرحمة ﷺ بدأت تتحدث عن مصيبتها الشخصية وكأنها تقول يا رسول الله قبل أن أطمئن على سلامتك لا أستطيع أن أصدر موقفا فيما يتعلق بمصيبتي الخاصة أما الآن وقد تأكدت من سلامتك فإن كل مصيبة بعدك ولو تمثلت في أقرب الناس إلي كقتل أبي وأخي فإنها صغيرة وبسيطة ما دمت قد تأكدت من سلامتك.

و(جاءت إليه أم سعد تعدو) وأم سعد لا يمكن أن تعيش على هامش الأحداث إذ ابنها سيد الأوس وهو من ألصق الناس بنبي الرحمة ﷺ ومواقفه الرسمية والعملية في بدر معروفة (والله لن نقول لك كما قالت بنو إسرائيل.. إلخ)، وهو من تشرف بحراسة النبي ﷺ التي فيها يقول البدوي الشنقيطي رحمه الله:

وابـــن معـــاذ مبتنـــي العريـــش وحـــارس النـــبي مـــن قريـــش

وهو الآن آخذ بلجام فرس النبي ﷺ مما يدل على القرب من نبي الرحمة ﷺ .

وابنها الآخر عمرو بن معاذ قتل شهيدا في هذا اليوم فقال يا رسول الله (أمي) وكأن سعدا ﷺ يريد أن يعرِّف نبي الرحمة ﷺ على هذه السيدة التي فقدت فلذة كبدها فيكون رده ﷺ (مرحبا بها)، ووقف لها (فلما دنت عزّاها بابنها) إنه يرحِّبُ بهذه السيدةِ ويَقِفُ –على عظم مكانته– لها ويقدمُ التَّعزيةَ لها (فقالت أما إذ رأيتك سالما فقد اشتويت المصيبة) أي استقللتها وكأنها تقول: أنا لي عاطفة الأمومة الفطرية ولا أستطيع أن أتنكر لها ولا أن أتنصل منها وابني عمرو له مكانة خاصة في القلب ومنزلة عميقة في النفس ولكن لما رأيتك سالما هانت عندي تلك المصيبة العظيمة فاستقللتها وكان السرور بسلامتك أكبر عامل تثبيت على تحمل مصيبتي في ابني عمرو.

(ثم دعا ﷺ لأهل من قتل بأحد وقال **يا أم سعد أبشري وبشري أهلهم أن قتلاهم ترافقوا في الجنة جميعا وقد شفعوا في أهلهم جميعا** قالت رضينا يا رسول الله ومن يبكي عليهم بعد هذا) إن القلوب المؤمنة عندما تذكر بنعيم الجنة يهون عندها في سبيل ذلك الهدف النبيل كل شيء وبعد دعوته ﷺ لأهل قتلى أحد الذين قتلوا مقبلين غير مدبرين مدافعين عن دينهم ونبيهم يخص أم سعد بخطاب مؤلف من جزئين الأول: (أبشري) والثاني يريد منها أن تبلغه لغيرها (وبشري أهلهم أن قتلاهم ترافقوا في الجنة..إلخ) إنها كلمات نبوية عجيبة لها وقعها المؤثر فكأنه يريد منها أن تبلغ ذوي الشهداء رسالة تقضي على آثار صدمة المصيبة (أبشري) يا أم سعد بأن ابنك القتيل عمرا من بين الذين ترافقوا في الجنة وله ميزة أخرى وهي شفاعته في أهله وأمُّ سعد من أول المستفيدين من شفاعة ابنها عمرو–إن شاء الله– (قالت رضينا يا رسول الله، ومن يبكي عليهم بعد هذا) وكأن أم سعد تقول إن مصيبة قتل ابني عمرو كبيرة ولكن لما

رأيتك يا رسول الله سالما استقللتها وهانت عندي ثم إن سروري بسلامتك وفرحي بنجاتك بدد آثار الحزن وزادني فرحا حديثك يا رسول الله عن مستقبل هؤلاء القتلى وتصويرك لحالهم في الجنة وشفاعتهم في أهلهم مما جعلني أرضى كل الرضا باعتباري مؤمنة أبحث عن كل وسيلة تقربني إلى الجنة وبعد حديثك عن مكانة هؤلاء الشهداء (من يبكي عليهم بعد هذا) المقام العظيم والمنزلة الرفيعة إن محبة نبي الرحمة ﷺ قد خالطت شغاف قلوب ذلك الجيل الفريد بكل فئاته وأطيافه.

وهذه أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان رضي الله عنها لها قصة أيضا-كما أسلفنا-.

من المعروف أن رسول الله ﷺ أبرم صلح الحديبية مع قريش على بنود معروفة ثم نقضت قريش هذا الاتفاق بنقضها لأحد بنوده ثم شعرت بعد ذلك بعواقب هذا النقض وآثاره الوخيمة فأرسلت قائدها وزعيمها أبا سفيان بن حرب ليشد العقد ويزيد في المدة فقدم أبو سفيان المدينة فدخل على ابنته رملة(أم حبيبة) رضي الله عنها -وأن ينزل الرجل عند ابنته أمر طبعي- (فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته) إنه موقف يبرز مكانة المرأة المؤمنة الصادقة إن هذا الموقف الجريء لم يصدر عن أم حبيبة باعتبارها زوجة للنبي ﷺ بقدر ما صدر عنها باعتبارها مؤمنة صادقة ومجاهدة مهاجرة اختارت الفرار بدينها إذ هاجرت إلى الحبشة مع زوجها عبيد الله بن جحش ولم يخطر ببالها حسب ما يبدو أنها ستكون زوجة لرسول الله ﷺ .

اختارت هذه السيدة الهجرة من مكة وأبوها سيد مكة المطاع (فلما ذهب ليجلس على الفراش طوته عنه) وكأنها تقول: إنني أتخذ هذا الموقف باعتباري مؤمنة وأحب نبي الرحمة ﷺ باعتباره نبيا وهاديا إلى سبيل النجاة ومنقذا من الضلال قبل أن يكون زوجا فالمنهج الذي اتبعته وهاجرت من بين يديك يا أبي من أجله هو الذي حملني على هذا

التصرف إكراما لجناب عظمة نبي الرحمة ﷺ وأعرف أنك أبي وأعرف أنك سيد أهل مكة ولكن محاولة جلوسك على فراش نبي الرحمة ﷺ يعد خطا أحمر وعقيدتي التي خرجت من أجلها مهاجرة من مكة إلى الحبشة هاجرت من مكة إلى ما وراء البحار تمنعني من المجاملة التي تتناقض معها، والاقتراب من الخطوط الحُمْرِ لا يمكن وما دمت حريصا يا أبي على معرفة السبب الذي جعلني أطوي عنك فراش رسول الله (أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني) فإني مضطرة للصراحة معك (بل هو فراش رسول الله وأنت رجل مشرك نجس) ولكن هذه اللغة الصريحة والنبرة الإيمانية القوية سببت لأبي سفيان صدمة مفاجئة ولهذا كان رده القاصر عن فهم ما يفعله الإيمان في النفوس وعن مكانة نبي الرحمة ﷺ في قلوب هؤلاء الاتباع (لقد أصابك بعدي شر) رد بهذه العبارات السطحية البعيدة عن سبب الموقف ودوافعه الحقيقية إن حب نبي الرحمة ﷺ تمكن من قلوب هؤلاء الأصحاب وامتزج بمشاعرهم وامتلأت منه عواطفهم إنه الإيمان بهذا الدين العظيم ونبيه الكريم هذا الإيمان هو الذي جعل هذه السيدة(أم حبيبة) تهاجر من أجله وتخرج عن سيطرة سيد مكة المطاع أبيها (أبي سفيان) وكأنها تقول إن المجاملة لا يمكن أن تكون على حساب أي شيء يتعلق بمكانة النبي ﷺ حتى الفراش مادام يضاف إليه ﷺ ويجلس عليه فإن له خصوصية لقداسةِ صاحبه ﷺ وكأنها تقول له أيضاً يا أبي: إن أبا دجانة يوم أحد –وقد كنتَ قائداً لتلك المعركة!!– رفع سيفه على شخص من جيشك ليقتله فولول فعرف أنه امرأة فلم يضربه بسيفه وقال: أكرم سيف رسول الله ﷺ عن أن أضرب به امرأة –والمرأة هي أمي (هند)!!– فإني كذلك أكرم فراش رسول الله ﷺ وأطويه مخافة أن يجلس عليه مشرك نجس ولو كان أبي!!

فمحبة نبي الرحمة ﷺ عارمة ووده شامل تبدأ من شخصه الشريف وتمتد فروعها وأغصانها إلى كل ما يتعلق به ﷺ ولو كان جمادا كالحديد وغيره!!

إن للمرأة لقصة في محبة نبي الرحمة ﷺ وقد اقتصرنا على هذه النماذج الأربعة من النساء خوف الإطالة .

سادسا: أجد ريح الجنة وقل لقومي الأنصار:

ذكر ابن القيم في زاد المعاد:

(قال زيدُ بنُ ثابت: بعثنى رسُولُ اللهِ ﷺ يوم أُحُدٍ أطلُب سعدَ بنَ الرَّبيعِ ، فقال لي: ((**إنْ رَأَيْتَهُ فأقرئه منِّى السَّلاَمَ وقُلْ لهُ: ((يقولُ لَكَ رسُولُ الله ﷺ: كَيْفَ تَجِدُكَ))؟** قالَ: فجعلتُ أطوفُ بَيْنَ القَتْلَى، فأتيتُه وهو بآخِرِ رَمَق، وفيه سبعونَ ضربةً ما بين طعنةٍ برُمح، وضربةٍ بسيف، ورميةٍ بسهم فقلت: يا سعدُ إنَّ رسولَ الله ﷺ يقرأ عليكَ السَّلامَ، ويقول لك: أخبرني كيف تَجِدُكَ؟ فقال: وَعَلى رَسُولِ الله ﷺ السلامُ، قل له: يا رسُولَ اللهِ أَجِدُ ريحَ الجنة، وقل لقومي الأنصار: لا عُذْرَ لكم عند الله إن خُلِصَ إلى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وفيكم عَيْنٌ تَطْرِفُ، وفاضَتْ نفسُهُ مِنْ وَقْتِهِ) [1]

تحليل وتعليق: (لا عذر لكم)

(إن رأيته فأقرئه مني السلام وقل له يقول لك رسول الله ﷺ كيف تجدك؟) إن زيد بن ثابت يحمل رسالة مكونة من شقين الأول فأقرئه مني السلام والثاني كيف تجدك فأجاب على الشق الاول بقوله (وعلى رسول الله ﷺ السلام) وأما الشق الثاني فقل له يارسول

(١) الحاكم في المستدرك رقم ٤٨٩٤ والبيهقي رقم ١١٠٤ وزاد المعاد الجزء ٢ ص٩٩.

الله ﷺ (أجد ريح الجنة) ثم حمَّله رسالة إلى قومه (وقل لقومي الأنصار لا عذر لكم إن خلص إلى رسول الله ﷺ) وفي رواية أنه لم يجبه إلا بعد أن ذكر له رسول الله ﷺ لأنه كان في آخر رمق وكأنه يقول: يا رسول الله لقد أصابني ما أصابني سبعون ضربة ما بين طعنة برمح وضربة بسيف ورمية بسهم ومع ذلك فإنني مسرور بما حدث ودليل ذلك يا رسول الله أني (أجد ريح الجنة) وأحملك يا زيد هذه الرسالة الخاصة وأنت من النجباء وأرجوك أن توصلها بنصها (وقل لقومي الأنصار: لا عذر لكم إن خلص إلى رسول الله ﷺ وفيكم عين تطرف) وكأن لسان حاله يقول له أنا دافعت عن ديني ونبيي حتى وصلت إلى هذه المرحلة التي تراها وأنا راض كل الرضا عما حصل لا أسف ولا قلق ولا انزعاج لأني (أجد ريح الجنة) وإن آثار الضرب التي تراها يا زيد على جسدي وما ينتج عن ذلك من الآلام عادة يقابله سرور لا حدود له وراحة نفسية لا نظير لها ونشوة شاملة لا مثيل لها وباختصار فإني (أجد ريح الجنة!!!)

(وقل لقومي) وعبر بالقوم وكأنه استعطاف لهم ثم اختار الاسم الذي اختاره الله لهم ورسوله(الأنصار) ولم يقل الأوس والخزرج! وإنما اختار الاسم الذي يستطيع من خلاله أن يحملهم المسؤولية(قومي الأنصار)أخصكم بهذه الصفة باعتباركم قد بايعتم نبي الرحمة ﷺ البيعة التاريخية و من أهم بنودها أنكم تحمونه وتدافعون عنه فـ(لا عذر لكم إن خلص إلى رسول الله وفيكم عين تطرف) أما إن قتلتم جميعا أو صرتم مثلي (أجد ريح الجنة) فحينئذ –فقط– يقبل العذر.

إن سعد بن الربيع ﷺ يمثل النموذج النادر في صدق الجهاد وتضحية الفداء ومحبة العاطفة الجياشة لنبي الرحمة ﷺ فهو من جهة يحول الألم إلى أمل بل يحوله إلى واقع يعيشه ويتذوقه (أجد ريح الجنة).

ومن جهة أخرى يدعو إلى الدفاع عن نبي الرحمة ﷺ بعد رحيله إلى الدار الأخرى وكأنه بهذه الكلمات يحمل البندقية دفاعا عن نبي الرحمة ﷺ وهو بين القتلى رضي الله عنه!!(أجد ريح الجنة) يقول الراوي وفاضت نفسه من وقته مما يبرهن على أن سعدا رضي الله عنه دافع عن نبي الرحمة ﷺ حتى وصل المرحلة التي عبر عنها بقوله (أجد ريح الجنة)إنها المحبة الصادقة والتضحية الفريدة من هؤلاء الأصحاب رضي الله عنهم.

سابعا: أخشى أن لا أراك في الجنة

ذكر ابنُ كثير في تفسيره قالت عائشة رضي الله عنها (جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله والله إنك لأحب إلي من نفسي وإنك لأحب إلي من أهلي وأحب إلي من ولدي وإني أكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين وإني إذا دخلت الجنة خشيت أن لا أراك فلم يردَّ عليه النبي ﷺ حتى نزل جبريل بهذه الآية: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩ ﴾[1]وذكر الطبري بسنده قال جاء رجل من الأنصار إلى النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ يا فلان مالي أراك محزونا فقال يا رسول الله شيء فكرت فيه قال فما هو؟ قال نحن نغدو عليك ونروح ننظر إلى وجهك ونجالسك وغدا ترفع مع النبيين فلا نصل إليك فلم يرد النبي ﷺ شيئا فأتاه جبريل بهذه الآية ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ

(١) النساء: ٦٩ تفسير ابن كثير جـ ٢ صـ٣٥٤

﴿أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾[1] وفي هذا السياق ثبت أن الرسول ﷺ سُئِل عن الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم فقال (**الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**)[2] قال أنس رضي الله عنه فما فرح المسلمون مثل فرحهم بهذا الحديث وفي رواية عن أنس أنه قال (**فَأَنَا أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِأَعْمَالِهِمْ**)[3].

ويقول ﷺ: (**مَنْ أَحَبَّنِى كَانَ مَعِى فِى الْجَنَّةِ**)[4]

تحليل وتعليق: (جاء رجل) ألا ترى أن الرجل لم يلق النبي ﷺ مصادفة؟ وإنما جاء ليبوح بشيء شغل باله وأسر خياله ومهد لهذا الشيء بمقدمة جميلة (يا رسول الله) ﷺ استخدم هذا النداء امتثالا لقوله تعالى: ﴿**لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا**﴾[5] (والله إنك لأحب إلي من نفسي) استخدم مجموعة من المؤكدات أولها القسم (والله) وثانيها نون التوكيد (إن) وثالثها لام التوكيد (لأحب) واستخدم ياء المتكلم في اللفظين (إلي) (نفسي) وحشد هذه المؤكدات كلها للدلالة على أن نبي الرحمة ﷺ أحب إليه من كل مخلوق على وجه الأرض فهو أحب إليه من نفسه التي بين جنبيه والرجل يقسم على هذه الحقيقة وهو يعرف كامل المعرفة ما يترتب على ذلك لأنه يخاطب نبيا قد أرسله من لا تخفى عليه خافية وهو علام الغيوب–جل جلاله– ولسان حال الرجل ما عبر عنه كعب بن مالك رضي الله عنه بعد غزوة تبوك (إِنِّي وَاللَّهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ

(١) النساء: ٦٩ تفسير الطبري جـ ٨ صـ٥٣٤

(٢) البخاري رقم ٦١٦٨ واللفظ له ومسلم رقم ٦٨٨٨.

(٣) البخاري رقم ٣٤١٢ ومسلم رقم ٤٧٧٥ واللفظ له.

(٤) رواه الترمذي رقم ٢٨٩٤.

(٥) النور: ٦٣

غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنْ سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ، وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلاً وَلَكِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ...[1]) فالجيل المؤمن الصادق يعلم أن الوحي مرآة تكشف كل ما خفي وتبرز كل ما استتر وبناء على ذلك فإنهم لا يقولون شيئا إلا ويعلمون أن علام الغيوب مطلع عليه (لأحب إلي من نفسي) بدأ بالنفس لأنها أعز المذكورات وأغلاها عنده وعند غيره من بني البشر ولهذا نجد القرآن الكريم اقتصر على النفس في قوله تعالى: ﴿ **ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ** ﴾[2] ولم يذكر الأولاد أو الأهل لأنهما من باب أولى (لأحب إلي من نفسي) التي أمامك وأعرف أن الوحي يلاحق أسرار النفوس وخفايا القلوب ثم انتقل إلى الدائرتين الأهل والأولاد (وإنك لأحب إلي من أهلي وأحب إلي من ولدي) وكأنه يقول: يا رسول الله إن جذور محبتك متأصلة في نفسي ومشاعري تجسيدا لقولك (**لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**) [3] ومما يبرهن على هذه الحقيقة ما يلي: (إني أكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك) (أكون في البيت) مع الأهل والأولاد أقوم بتربيتهم وخدمتهم ولكني أثناء ذلك (فأذكرك) ومن شدة المحبة لك وكامل الشوق إليك (فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك) وكأنه يقول: عندما أكون في المنزل عند الأهل والأولاد أجد وحشة وأشعر بسآمة وأحاول أن أصبر نفسي على شؤون البيت اليومية ولكني لا أستطيع مقاومة جاذبية

(١) البخاري رقم ٤٤١٨.

(٢) الأحزاب: ٦

(٣) البخاري رقم ١٥.

غَلاَّبة (فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك) ولسان حاله يقول عندما أكون في المنزل (أذكرك) فتحصل لي نشوة (فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك) حتى أجمع بين الخاصية الذهنية والرؤية البصرية ولكن هذه المتعة وتلك النشوة يعكر صفوها ما يلي:

(وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين) وكأنه يقول: هذه المحبة التي جعلتني (لا أصبر حتى آتيك فأنظر إليك) لا تصادم لب التوحيد وجوهر العقيدة (وإذا ذكرت موتي وموتك) بناء على بشريتك –عليك السلام–والمصير الملازم لها: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾[1] ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[2] ثم يبوح لنبي الرحمة ﷺ بما يخشاه حيث يقول: (عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين وإني إذا دخلت الجنة خشيت ألا أراك) والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾[3]ولكن الرجل ذاق متعة رؤية النبي ﷺ، وعرف نعمة مجالسته ﷺ وحاله في الدنيا كما أخبر عن نفسه (فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك) وهو يخشى من أن يحرم هذه النعمة للاعتبارات التي ذكرها فهو يرى أن النعيم لا يكتمل إلا بحصوله على هذه النعمة التي ذاقها في الدنيا وكأنه يريد أن تكون نعمة رؤيته ﷺ في الجنة ضمن قوله تعالى: ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ﴾[4]

(١) آل عمران: ١٨٥

(٢) الزمر: ٣٠

(٣) آل عمران: ١٨٥

(٤) الزخرف: ٧١

فلم يرد عليه النبي ﷺ حتى نزل جبريل بهذه الآية: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾[1]

(جاء رجل من الأنصار إلى النبي ﷺ فقال له يا فلان مالي أراك محزونا) إنها الرحمة الجِبِلِّيَّة والرأفة الفطرية التي فُطِرَ عليها ﷺ توازيهما خصائص القيادة الفريدة التي تتابع كل فرد وحالاته النفسية وترصد بصمات وجه كل شخص من الاتباع (مالي أراك محزونا) بمعنى أنك لست على الحالة المألوفة التي تكون عليها دائما وبالتالي فلابد من بحث عن الأسباب التي تكمن وراء هذا العرض الطارئ الخارجي ليتمكن ﷺ من علاج هذه الظاهرة الجديدة فإن كان الرجل مصابا: عزاه في مصيبته وإن كان مدينا عمل معه على قضاء دينه فنبي الرحمة ﷺ عندما تظهر مرآة الوجه شيئا جديدا لأي فرد من الاتباع لابد أن يبحث عن الأسباب(فقال يا رسول الله شيء فكرت فيه فقال ما هو؟؟ فقال نحن نغدو عليك ونروح ننظر إلى وجهك ونجالسك وغدا ترفع مع النبيين فلا نصل إليك) وكأنه يقول هذا الحزن الذي يظهر على وجهي له أسباب باطنية وتأملات ذهنية. كانت تعمل عملها في خفايا النفس وخبايا التفكير لأننا (نغدو عليك ونروح ننظر إلى وجهك ونجالسك) وكأنه يقول: أنا أخاطبك يا نبي الرحمة ﷺ بنون الجمع (نغدو) ولا أخاطبك بهمزة المتكلم (أغدو) لأن الشيء الذي فكرت فيه كثيرا وشغل بالي طويلا يشغل تفكير كثير من الأصحاب، ولسان حاله يقول إننا في نعمة عظيمة (نغدو عليك ونروح وننظر إلى وجهك) الشريف ننظر إلى هذا الوجه الذي يسجل القرآن الكريم حركته ويحقق الله

(١) النساء: ٦٩

لصاحبه ما يرضاه بمجرد هذه الحركة قال تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ ﴾(١)

بالإضافة إلى متعة عظيمة أخرى (ونجالسك) ونسمع حديثك وبالرؤية والمجالسة تستمتِع كل من حاستي السمع، والبصر فتغذيان العاطفة الروحية ولكن الإشكال الذي يشغل تفكيرنا ويؤلمنا ويزيد حزننا أنك يا نبي الرحمة ﷺ غدا ترفع مع النبيين لأسباب نعلمها فأنت إمام الأنبياء والمرسلين والإمام دائما يكون في المقدمة وأنا وأمثالي يحزننا أنك إذا رفعت مع النبيين –وهذا ما يناسب مكانتك الشريفة– (فلا نصل إليك) حتى نغدو إليك ونروح وننظر إليك ونجالسك وكأنه يقول: نحن ذقنا هذه المتعة وتلك النعمة في الدنيا وعرفنا قيمتها الحقيقية ونخاف أن نحرمها في الجنة وهذا الهاجس هو الذي جعلني أفكر في هذا الشيء كثيرا وهذا ما سبب لي الحزن الذي كنت أخفيه فإن وجدت ما يطمئنني فسيتحول الحزن إلى سرور والأسى إلى فرح (فلم يرد عليه النبي ﷺ حتى جاء جبريل بهذه الآية) ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾(٢)

وما قدمناه يدل على أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا قمة في محبة النبي ﷺ في حياته، وسأقتصر على نموذجين يدل كل منهما على كامل المحبة وخالص الود للنبي ﷺ بعد وفاته:

(١) البقرة: ١٤٤

(٢) النساء: ٦٩

أولا: ذكر القاضي عياض في الشفاء والقرطبي في تفسيرِه قالا: (خَرَجَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، لَيْلَةً يَحْرُسُ فَرَأَى مِصْبَاحًا فِي بَيْتٍ، فَدَنَا مِنْهُ، فَإِذَا عَجُوزٌ تَطْرُقُ شَعَرًا لَهَا لِتَغْزِلَهُ، أَيْ تَنْفُشُهُ بِقَدَحٍ لَهَا، وَهِيَ تَقُولُ:

عَلَى مُحَمَّدٍ صَلاَةُ الأَبْرَارْ صَلَّى عَلَيْهِ الطَّيِّبُونَ الأَخْيَارْ

قَدْ كُنْتَ قَوَّاماً بُكاً بِالأَسْحَارْ يَا لَيْتَ شِعْرِي وَالمَنَايَا أَطْوَارْ

هَلْ تَجْمَعَنِّي وَحَبِيبِيَ الدَّارْ

تَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ، فَجَلَسَ عُمَرُ رضي الله عنه يَبْكِي)[1] وذكر بعض العلماء أنها عجوز من الأنصار.

ثانيا: ذكر ابن عساكر في تاريخ دمشق قال: (رأى بلالٌ رضي الله عنه—وهو بالشام- في منامه النبي ﷺ بعد وفاته وهو يقول له: ما هذه الجفوة يا بلال؟ أما آن لك أن تزورني يا بلال؟ فانتبه حزينا وركب راحلته وقصد المدينة فأتى قبر النبي ﷺ فجعل يبكي عنده ويمرغ وجهه عليه وأقبل الحسن والحسين فجعل يضمهما ويقبلهما فقالا له يا بلال نشتهي نسمع أذانك الذي كنت تؤذنه لرسول الله ﷺ في السحر ففعل وعلا سطح المسجد ووقف موقفه الذي كان يقف فيه فلما أن قال الله أكبر الله أكبر ارتجت المدينة فلما أن قال أشهد أن لا إله إلا الله ازدادت رجتها فلما أن قال أشهد أن محمدا رسول الله خرج العواتق من خدورهن فقالوا: أبعث رسول الله؟! فما رئي يوم أكثر باكيا ولا باكية بعد رسول الله ﷺ من ذلك اليوم) [2]

(١) الزهد لابن المبارك صـ ٣٦٣ والقرطبي في تفسيره جـ ١٣صـ ١٤٦، والشفا الجزء٢صـ٢٢..

(٢) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ج٧ص١٣٧

إنها محبة جعلت من رآه ﷺ يكون محزونا مشغول الفكر مهموم القلب يخشى ألا يراه في الجنة محبة شاملة فقد سمع الصحابة رضي الله عنهم ورأوا الجمادات وهي تشاركهم هذه المحبة الفريدة معبرة عنها بأساليب متنوعة ولغات مختلفة قال عليٌّ رضي الله عنه (عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ قَالَ كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ بِمَكَّةَ فَخَرَجْنَا فِي بَعْضِ نَوَاحِيهَا فَمَا اسْتَقْبَلَهُ جَبَلٌ وَلاَ شَجَرٌ إِلاَّ وَهُوَ يَقُولُ السَّلاَمُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ.(١)

وعن جابر بن سمرة ﷺ أنه ﷺ قال: (**إِنِّي لأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ إِنِّي لأَعْرِفُهُ الآنَ**)(٢) وذكر صاحب الشفاء أن أنين الجذع خبره منتشر ومتواتر رواه من الصحابة بضعة عشر منهم أبي بن كعب وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وسهل بن سعد وأبو سعيد الخدري وبريدة وأم سلمة والمطلب بن أبي وداعة قال جابر بن عبد الله (كَانَ الْمَسْجِدُ مَسْقُوفًا عَلَى جُذُوعٍ مِنْ نَخْلٍ فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا خَطَبَ يَقُومُ إِلَى جِذْعٍ مِنْهَا فَلَمَّا صُنِعَ لَهُ الْمِنْبَرُ، وَكَانَ عَلَيْهِ فَسَمِعْنَا لِذَلِكَ الْجِذْعِ صَوْتًا كَصَوْتِ الْعِشَارِ حَتَّى جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهَا فَسَكَنَتْ)(٣) وفي رواية أنس: (حتى ارتج المسجد بخُوارِه) وفي رواية (وكثر بكاء الناس لما رأوا ما به) وفي رواية المطلب وأُبَي (حتى تصدع وانشق حتى جاء النبي ﷺ فوضع يده عليه فسكت) ثم يقول صاحب الشفاء فكان الحسن إذا حدث بهذا بكى وقال يا عباد الله

(١) الترمذي رقم ٣٩٨٦.

(٢) مسلم رقم ٦٠٧٨.

(٣) البخاري رقم ٣٥٨٥.

الخشبة تحن إلى رسول الله ﷺ شوقا إليه لمكانه فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى لقائه[1] كما يقول الشاعر مولود عبد الجواد:

والجذع إذ حنَّ سجع النيب من ولهٍ لولا الْتِزامُكَه لم يقض تحنانه[2]

قلت: إذا كان الجذع قد عبر عن حبه للنبي ﷺ بالحنين فإن الصخور القاسية قد أحبته ﷺ وبادلها الحب وفاءً حيث يقول ﷺ مخبرا عن جبل أحد: (**أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ**)[3]!.

هذه نماذج من محبة هذه الجمادات لنبي الرحمة ﷺ وانسجامها معه معبرة تارة بالسلام وتارة بالحنين وتارة بالمحبة.

وإذا عدنا إلى بني الإنسان فإننا نجد محبته ﷺ مقرونة بمحبة الله في الآيات والأحاديث منها على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾[4] فأنت تلاحظ أن الله تعالى ربط بين محبته جل جلاله وبين محبة نبيه ﷺ في هذه الآية (أحب إليكم من الله ورسوله) وقد أخبر ﷺ بأن حلاوة الإيمان التي هي مطلب كل مؤمن تنال بعدة خصال يقول ﷺ (**ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ**

(١) الشفا جـ١صـ٣٠٥.

(٢) الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ص١٩٩.

(٣) الموطأ رقم ١٥٧٦ والبخاري رقم ١٤٨٢واللفظ له.

(٤) التوبة: ٢٤

الإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا)..إلخ[1] وهذا رجل يأتي إلى النبي ﷺ فيقول: (مَتَى السَّاعَةُ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ **مَا أَعْدَدْتَ لَهَا** قَالَ مَا أَعْدَدْتُ لَهَا مِنْ كَثِيرِ صَلاَةٍ، وَلاَ صَوْمٍ، وَلاَ صَدَقَةٍ وَلَكِنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ قَالَ: **أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ)**[2] بل إن هناك رجلا جيء به يوما فجُلِد فقال رجل من القوم اللهم العنه! ما أكثر ما يؤتى به فقال ﷺ **(لاَ تَلْعَنُوهُ فَوَ اللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِلَّا أَنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَه)**[3] إن المتأمل لكتاب الله العظيم وسنة نبيه الكريم يجد الحديث تارة عن حب الله سبحانه وتعالى وحده كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾[4] ويجد الحديث تارة أخرى عن حب الله جل جلاله وحب نبيه ﷺ معاً كما أسلفنا (أحب إليكم من الله ورسوله)، (أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما) ويجد الحديث تارة عن حب النبي ﷺ وحده كقوله ﷺ: **(لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)**[5] ويجد الحديث أيضا عن الاتِّباع كما في قوله تعالى: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ ﴾[6] وتجد النقاش حادا بين أهل المنهج الواحد كل يمسك بطرف ولا يبحثون عما يجمعهم على الحق ويرضي ربهم سبحانه وتعالى. وأظن أننا نحن المسلمين متفقون على أننا نبحث عما يرضي الله جل وعلا

(١) رواه البخاري رقم ١٥ واللفظ له ومسلم رقم ٦٠.

(٢) رواه البخاري رقم ٦١٧١.

(٣) رواه البخاري رقم ٦٧٨٠ من رواية عمر بن الخطاب رضي الله عنه!.

(٤)المائدة: ٥٤

(٥) البخاري : رقم ١٥.

(٦)آل عمران: ٣١

وربنا هو الذي أمرنا بحبه جل جلاله وحب رسولهﷺ كما تقدم وجمع لنا بين حبه وحب نبيه ونعلم أن الله سبحانه وتعالى قد أحالنا إلى طاعة نبيه ﷺ باعتبارها معبرة عن طاعة الله سبحانه وتعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[1] وهو الذي قال –بأبي هو وأمي– **(لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)**[2]، فالهدف الذي يسعى إليه المسلم هو مرضاة الله ثم إن المحبة تدعو إلى الاتِّباع وينبغي أن نفهم أن المسلم في صورته المثالية يجمع بين الحب العاطفي والاتباع السلوكي، وكل تقصير في أحد الجانبين له خطورته، إذ لا يريد الإسلام أفعالا مجردة من الذوق العاطفي ولا يريد كذلك عاطفة لا يوازيها عمل بل يريدهما معاً .

ولعل في هذا محاولة للإجابة عن (الجدلية) التي تعوَّد الناس على النقاش حولها وهي: هل المطلوب الحب، أم الاتباع ؟وأيهما أولى؟ لقد انشغل كثير من المسلمين من أهل السنة والجماعة بالاتهامات المتبادلة–وللأسف–! ترى بعضهم يتهم بعضاً بعدم محبة النبي ﷺ وهي تهمة خطيرة ولا بد لها من برهان ولا أظن أن مسلما سويا يرضى بأن يوصف أو يتصف بهذه الصفة الشَّنيعة، وترى بعضهم الآخر يتهم غيره بجريمة عدم الاتِّباع وهذه تهمة خطيرة جدا كذلك ولابد لها من دليل.

إننا نحتاج إلى أرضية مشتركة ومنهج وسط نستطيع أن نناقش من خلالهما جميع أمورنا فنعمل على تنمية ما عندنا من الخير ونعمل كذلك برفق وحكمة على إزالة ما عندنا من السلبيات مستخدمين أسلوب الود ومنهج الشفقة وأن يبتعد كل طرف منا عن المثالية المفرطة لنفسه في مقابل إقصائية مطلقة لغيره وأن نرفع دائماً شعارَ ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ

(١)النساء: ٨٠

(٢) البخاري : رقم ١٥.

أَنفُسَكُمْ﴾[1] وأن نقتدي بنبي الرحمة ﷺ في شؤون الحياة كلها ونتأسى به في رحمته ﷺ بالمؤمنين وشفقته بالإنسانية جمعاء.

وما قدمناه في هذا الفصل يدل بعمومه على قمة المحبة وروح التضحية وعظيم الفداء تجاهه ﷺ وهذه المحبة الفريدة هي التي تقود إلى الاتِّباع وفعل الطاعات وتقدم معنا الحديث عن نماذج من أصحاب السبق في المحبة التي تقود إلى التضحية والفداء وعندما نعود إلى تاريخ هؤلاء فإننا نجد استباقهم إلى الخيرات ومسارعتهم إلى الطاعات موازية لهذه المحبة فأبو بكر الصديق رضي الله عنه لما ضربته قريش وأغمي عليه وتكلم آخر النهار كانت أول كلمة يقولها (ما فعل رسول الله)؟

أبو بكر هذا هو الذي أنفق أكثر ماله لتحرير العبيد من أيدي الطغاة الذين يفتنونهم عن الدين وهو الذي أنفق ماله كله في سبيل الله في بعض المناسبات وهو الذي سجل القرآن الكريم بعض مواقفه الخالدة قال تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾[2] وسبب نزولها كما يقول المفسرون أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه لما أعتق بلالا قالت قريش كان لبلال عنده يدٌ أي نعمة فنفى الله قولهم ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ وهو استثناء منقطع الاتصال أي لكن ابتغاء وجه ربه

﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ وعدٌ بأن يرضيه الله تعالى في الأخرى وأبو طلحة الذي ترجم محبته تضحية وفداءً(نحري دون نحرك)هو الذي يستجيب منقادا للقرآن الكريم عندما

(١) النجم: ٣٢

(٢) الليل: ١٧ – ٢١

تتحدث آياته عن التكافل الاجتماعي لما نزل قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ﴾[1] قال أبو طلحة كما روى البخاري ومسلم من رواية أنس رضي الله عنه(**يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءَ فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الأَقْرَبِينَ فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللهِ فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ**)[2] ويقول بعض الفقهاء إن مزرعة بيرحاء هي أول وقف أهلي في الإسلام وسعد بن الربيع الذي يجيب رسول الله يوم أحد (أجد ريح الجنة وقل لقومي الأنصار لا عذر لكم إن خلص إلى رسول الله وفيكم عين تطرف) هو الذي قال لعبد الرحمن بن عوف ﷺ عندما آخى النبي ﷺ بينهما قال: (إِنِّي أَكْثَرُ الأَنْصَارِ مَالاً فَأَقْسِمُ مَالِي نِصْفَيْنِ وَلِي امْرَأَتَانِ فَانْظُرْ أَعْجَبَهُمَا إِلَيْكَ فَسَمِّهَا لِي أُطَلِّقْهَا فَإِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهَا فَتَزَوَّجْهَا قَالَ بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ أَيْنَ سُوقُكُمْ فَدَلُّوهُ عَلَى سُوقِ بَنِي قَيْنُقَاعَ..إلخ)[3].

(١) آل عمران: ٩٢

(٢) البخاري رقم ١٤٦١.

(٣) رواه البخاري رقم ٣٧٨٠.

محبته باقية في هذه الأمة

أخبر ﷺ أنه سيكون في أمته من لو خير بين رؤيته ﷺ وأهله وماله لاختار رؤيته ولو لحظة واحدة يقول ﷺ : (**مِنْ أَشَدِّ أُمَّتِى لِى حُبًّا نَاسٌ يَكُونُونَ بَعْدِى يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ رَآنِى بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ**) (١)

كما أنه من اللازم علينا أن نزرع هذه المحبة في نفوس الأبناء وجميع فئات المسلمين ، ينبغي أن نربيهم على محبته صلى الله وسلم عليه وعلى محبة آله الأطهار وأصحابه الأخيار من المهاجرين والأنصار ونتأمل ما يلي:

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾

(**أَمَّا بَعْدُ أَلاَ أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِىَ رَسُولُ رَبِّى فَأُجِيبَ وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ فَخُذُوا بِكِتَابِ اللَّهِ وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ** ». **فَحَثَّ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَرَغَّبَ فِيهِ ثُمَّ قَالَ: « وَأَهْلُ بَيْتِى أُذَكِّرُكُمُ اللَّهَ فِى أَهْلِ بَيْتِى أُذَكِّرُكُمُ اللَّهَ فِى أَهْلِ بَيْتِى أُذَكِّرُكُمُ اللَّهَ فِى أَهْلِ بَيْتِى** ».(٢)

(**لا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَه**(٣))

(١) مسلم رقم ٧٣٢٣.

(٢) مسلم رقم ٦٣٧٨.

(٣) البخاري رقم(٣٦٧٣)

(قَالَ عَلِيٌّ: وَالَّذِى فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ إِنَّهُ لَعَهْدُ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ –صلى الله عليه وسلم– إِلَىَّ أَنْ لاَ يُحِبَّنِى إِلاَّ مُؤْمِنٌ وَلاَ يُبْغِضَنِى إِلاَّ مُنَافِقٌ[1])

(قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْأَنْصَارُ لَا يُحِبُّهُمْ إِلَّا مُؤْمِنٌ وَلَا يُبْغِضُهُمْ إِلَّا مُنَافِقٌ فَمَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ اللَّهُ وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ اللَّهُ[2]) **فتأمل...**

ثامنا: ما كنت أطيق أن أملأ عيني من رسول الله ﷺ إجلالا له!!

أ_يقول عمرو بن العاص ﷺ : (مَا كَانَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَىَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– وَلاَ أَجَلَّ فِى عَيْنِى مِنْهُ وَمَا كُنْتُ أُطِيقُ أَنْ أَمْلأَ عَيْنَىَّ مِنْهُ إِجْلاَلاً لَهُ وَلَوْ سُئِلْتُ أَنْ أَصِفَهُ مَا أَطَقْتُ) [3]

تحليل وتعليق: (ولو سئلت أن أصفه اليوم ما أطقت)

إن عَمْرَو بن العاص وهو داهية العرب كان يعادي هذا الدين العظيم ونبيه الكريم وكان يتفنن في أذية أهله حتى إنه صار يلاحق من فر بدينه من مكة من أتباع نبي الرحمة ﷺ وقصة مناظرته مع جعفر رضي الله عنه أمام النجاشي معروفة وكان أسلوبه أثناء المناظرة يوهم الرأي العام بأنه يلاحق مجموعة إرهابية خارجة عن القانون ثم يريد الله له الهداية بعد هذه المواقف فيذهب إلى المدينة برفقة رجلين عظيمين وهما خالد بن الوليد وعثمان بن طلحة وبعد تلك المعاداة للنبي ﷺ يكون موقفه ما عبَّر عنه بنفسه (والله ما كان أحدٌ أحب إلي من رسول الله ﷺ...إلخ) فهو ﷺ بعد هذا التحول يقسم على أمر

(١) مسلم رقم(٢٤٩)

(٢) البخاري رقم(٣٧٨٣)

(٣) رواه مسلم رقم ٣٣٦.

تقدم الحديث عنه وهو شدة محبة الصحابة للنبي ﷺ لكن عمراً رضي الله عنه يحدث عن واقعه الشخصي فيبوح بهذه الحقائق: أولها أن محبة النبي ﷺ تفوق محبة كل مخلوق، ولهذا لا أحد أجل في عينه منه ودليل ذلك (والله ما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالا) ونتيجةً لذلك (ولو سئلت أن أصفه اليوم ما أطقت).

إنها العظمة الفريدة في قلوب هؤلاء الاتباع وعقولهم والمكانة السامقة في عيونهم ونفوسهم إنها محبةٌ بعد تاريخ مليء بالعداء ولكن الإيمان بنبي الرحمة ﷺ والاقتراب منه كفيلان بتوفيق الله بالقضاء على تلك الجراثيم الفتاكة والأوبئة الخطيرة التي يحملها أولئك الشاردون عن دين الله العظيم وهدي نبيه الكريم وتعجب عندما ترى أَلَدَّ أعداء الأمس يتحول إلى هذه الصفة وبهذه الطريقة كان بالأمس يطارد الفارين بدينهم مستخدما طاقته الفريدة في إقناع النجاشي بأن وجود هذه الفئة في الحبشة يعد خطرا دينيا على أهل الحبشة مقدما له بعض الهدايا المناسبة عند أهل ذلك البلد ليتعاون الدهاء والهدية على تحقيق مهمة الداهية!! لكن عبقرية عمرو تنهار أمام الحقائق التي قدمها الناطق الرسمي للمجموعة (جعفر رضي الله عنه) وتمر الأيام وتتغير القناعات ويحل الهدى محل الضلال والإيمان محل الكفر وإذا بعمرو يصرح بهذه الحقائق (والله ما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالا)إنه موقف يذكرنا بقوله ﷺ في غزوة أحد (من يردهم عنا وله الجنة..إلخ) ونحن نعلم أن عمْراً كان موجودا مع المشركين يوم أحد وكأن لسان الحال يقول من يردهم عنا حتى يتحول عمرو وفكره ودهاؤه إلى هذه الحالة التي عبر عنها بنفسه (والله ما كان أحد أحب إلي من رسول الله ﷺ ولا أجل في عيني منه)

تاسعا: أنشدك الله

قال ابن هشام:(أَمّا زَيْدُ بْنُ الدّثِنّة فَابْتَاعَهُ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيّةَ لِيَقْتُلَهُ بِأَبِيهِ أُمَيّةَ بْنِ خَلَفٍ ، وَبَعَثَ بِهِ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيّةَ مَعَ مَوْلًى لَهُ يُقَالُ لَهُ نِسْطَاسُ إلَى التّنْعِيمِ ، وَأَخْرَجُوهُ مِنْ الْحَرَمِ لِيَقْتُلُوهُ وَاجْتَمَعَ رَهْطٌ مِنْ قُرَيْشٍ ، فِيهِمْ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ فَقَالَ لَهُ أَبُو سُفْيَانَ حِينَ قَدِمَ لِيُقْتَلَ أَنْشُدُك اللّهَ يَا زَيْدُ أَتُحِبّ أَنّ مُحَمّدًا عِنْدَنَا الآنَ فِي مَكَانِك نَضْرِبُ عُنُقَهُ وَأَنّك فِي أَهْلِك ؟ قَالَ وَاَللّهِ مَا أُحِبّ أَنّ مُحَمّدًا الآنَ فِي مَكَانِهِ الّذِي هُوَ فِيهِ تُصِيبُهُ شَوْكَةٌ تُؤْذِيهِ وَأَنّي جَالِسٌ فِي أَهْلِي قَالَ يَقُولُ أَبُو سُفْيَانَ مَا رَأَيْت مِنْ النّاسِ أَحَدًا يُحِبّ أَحَدًا كَحُبّ أَصْحَابِ مُحَمّدٍ مُحَمّدًا)[1]

تحليل وتعليق: ما رأيت أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا

هذه القصة التي ذكرها ابن هشام وعزاها لزيد بن الدثنة ذكرها ابن كثير عن خبيب بن عدي والرجلان قد أُخذا في سرية واحدة وأدخلا إلى مكة وقتلا بها والقصة بنصها وفحواها تدل على عظمة نبي الرحمة ﷺ في قلوب هؤلاء الأصحاب قال أبو سفيان (أنشدك الله يا زيد) بدأ بهذه المقدمة وكأنه يريد منه أن يبوح له بالصدق ويصرح له بالحقيقة (أتحب أن محمدا. عندنا الآن في مكانك وأنك في أهلك)بمعنى: أنت الآن بعيد عن قائدك ويراد قتلك ولا شك أن متابعتك له هي التي سببت لك هذا الموقف وأنت الآن تنتظر قطع رأسك ثم إن إيمانك بمحمد ﷺ سيكون ثمنه هذا المصير وما دام اتِّباعه كلفك هذا الثمن الباهظ _في نظر أبي سفيان_ فلا أقل من أن تصرح لي

(١) الروض الأنف على سيرة ابن هشام للسهيلي جـ٣ صـ٣٦٥ وذكر ابن كثير نفس القصة عن خبيب بن عدي جـ ٣ ص:١٣١.

بانطباعك الشخصي عن قائدك (قال ما أحب أن محمدا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه) كان الجواب صريحا لا لبس فيه حسب رغبة السائل وكأنه رضي الله عنه يقول إن محبة نبي الرحمة ﷺ في القلب ومكانته في النفس تجعلاني تلقائيا وبناء على سؤالك أصرح بأني لا أحب أن يصيبه ما هو أقل مما ذكرت، (لا أحب أن تصيبه شوكة في مكانه الذي هو فيه) ولو في مقابل أن أكون(في أهلي)وكأنه يعلن لأبي سفيان ما يلي: إنني مستعد لتحمل تبعات المبدإ الذي اتبعته عن قناعة ومنهجي في ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ ﴾[1] إن محبة النبي ﷺ عبادة واجبة فكيف يحمل قلبي ما يتنافى مع هذه العبادة العظيمة ويتنافى مع خلْقِهِ وخُلُقِهِ إذ اجتمعت فيه ﷺ جميع العوامل التي تجعله محبباً وكونك يا أبا سفيان لم ينكشف عنك ستار الجاهلية وظلامها فهذا شأنك!!أما أنا فقد عرفت الحقيقة ولن أحيد عنها-إن شاء الله-ولو كنت مهددا بقطع رأسي لأنني أتعامل مع الذي يعلم السر وأخفى وأحمل شعار ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ ﴾ ثم يكون تعليق أبي سفيان بعد هذا الجواب الصريح (والله ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا) بدأ أبو سفيان شهادته معلقا على الذي سمعه بالقسم (والله) مبينا أنه ما رأى أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمداً ولاشك أن ذاكرة أبي سفيان ستحتفظ بهذا الموقف لتضيفه إلى موقف ابنته أم حبيبة رضي الله عنها فيما بعد -كما أسلفناه- عندما جاءها وأراد الجلوس على فراش رسول الله ﷺ فطوته عنه ثم إن شهادة أبي سفيان لها قيمتها في قاموس السياسة فهو

(١)التوبة: ٥٢

سيد داهية حصيف وقد انفرد بالسيادة والزعامة على أهل مكة بعد قتل معظم سادة مكة في غزوة بدر فلم يبق له منافس بعد قتل أبي جهل وأمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط والعاص بن وائل وعتبة وشيبة ابني ربيعة وغيرهم وهذا ما أعطاه فرصة لمحاولة سد هذا الفراغ وبرهن على ذلك بقيادته وتزعمه لمعركة أحد وبالتالي فإن سؤاله ليس بريئا واستفساره ليس سطحيا وإنما يبحث من خلاله عن حجم مكانة خصمه في قلوب أتباعه وقد يقرأ أبو سفيان هذا الموقف قراءة أخرى مقارنا بين نبي الرحمة ﷺ في المدينة ومواقف أتباعه وبين مكانته هو كسيد لقريش في مكة ومواقف أتباعه ليقول في نفسه هذا الرجل الذي سيقطع رأسه الآن ليس قرشيا وهذه مواقفه من النبي ﷺ قبل أن يقتل بقليل وأنا سيد مكة وبين قريش هل أتمتع بهذه المكانة بين أهلي وأقاربي وأنا سيدهم؟وقد أجاب أبو سفيان على هذا الإشكال بشكل غير مباشر (والله ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمداً!!)

عاشرا: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله

(وفي غزوة الحديبية كما يقول ابن القيم أرسل النبي ﷺ عثمان بن عفان رضي الله عنه برسالة إلى قريش (أخبرهم أنّا لم نأت لقتال وإنما جئنا عمَّارا) ثم أمره أن يأتي رجالا مؤمنين ونساء مؤمنات فيدخل عليهم ويبشرهم بالفتح ويخبرهم أن الله عز وجل مظهر دينه حتى لا يُسْتَخْفى فيها من الإيمان) [1]

(١)زاد المعاد جـ١ ص٣٨١

قال ابن هشام :(فَانْطَلَقَ عُثْمَانُ حَتّى أَتَى أَبَا سُفْيَانَ وَعُظَمَاءَ قُرَيْشٍ، فَبَلّغَهُمْ عَنْ رَسُولِ اللّهِ ﷺ وَمَا أَرْسَلَهُ بِهِ فَقَالُوا لِعُثْمَانِ حِينَ فَرَغَ مِنْ رِسَالَةِ رَسُولِ اللّهِ ﷺ إلَيْهِمْ إنْ شِئْت أَنْ تَطُوفَ بِالْبَيْتِ فَطُفْ فَقَالَ مَا كُنْت لِأَفْعَل حَتّى يَطُوفَ بِهِ رَسُولُ اللّهِ ﷺ}(١).

ويقول ابن هشام وغيرُه: (ثُمّ بَعَثُوا إلَى رَسُولِ اللّهِ ﷺ عُرْوَةَ بْنَ مَسْعُودٍ الثّقَفِيّ؛ فَخَرَجَ حَتّى أَتَى رَسُولَ اللّهِ ﷺ فَجَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ ثُمّ قَالَ يَا مُحَمّدُ أَجَمَعْت أَوْشَابَ النّاسِ (أخلاط) ثُمّ جِئْت بِهِمْ إلَى بَيْضَتِك لِتَفُضّهَا بِهِمْ (تكسرها) إنّهَا قُرَيْشٌ قَدْ خَرَجَتْ مَعَهَا الْعُوذُ الْمَطَافِيلُ (النساء الكريمات) قَدْ لَبِسُوا جُلُودَ النّمُورِ يُعَاهِدُونَ اللّهَ لَا تَدْخُلُهَا عَلَيْهِمْ عَنْوَةً أَبَدًا وَايْمُ اللّهِ لَكَأَنّي بِهَؤُلَاءِ قَدْ انْكَشَفُوا عَنْك غَدًا. قَالَ وَأَبُو بَكْرٍ الصّدّيقُ خَلْفَ رَسُولِ اللّهِ ﷺ قَاعِدٌ فَقَالَ امْصُصْ بَظْرَ اللاّتِ، أَنَحْنُ نَتَكَشّفُ عَنْهُ؟ قَالَ مَنْ هَذَا يَا مُحَمّدُ؟ قَالَ هَذَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ، قَالَ أَمَا وَاَللّهِ لَوْلا يَدٌ كَانَتْ لَك عِنْدِي لَكَافَأْتُك بِهَا، وَلَكِنّ هَذِهِ بِهَا، قَالَ ثُمّ جَعَلَ يَتَنَاوَلُ لِحْيَةَ رَسُولِ اللّهِ ﷺ وَهُوَ يُكَلّمُهُ قَالَ وَالْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ وَاقِفٌ عَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللّهِ ﷺ فِي الْحَدِيدِ. قَالَ فَجَعَلَ يَقْرَعُ يَدَهُ إذَا تَنَاوَلَ لِحْيَةَ رَسُولِ اللّهِ ﷺ وَيَقُولُ اُكْفُفْ يَدَك عَنْ وَجْهِ رَسُولِ اللّهِ ﷺ قَبْلَ أَنْ لَا تَصِلَ إلَيْك، قَالَ فَيَقُولُ عُرْوَةُ وَيْحَك مَا أَفَظّك وَأَغْلَظَك قَالَ فَتَبَسّمَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ فَقَالَ لَهُ عُرْوَةُ مَنْ هَذَا يَا مُحَمّدُ؟ قَالَ "هَذَا ابْنُ أَخِيك! الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ".

فَقَامَ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللّهِ ﷺ وَقَدْ رَأَى مَا يَصْنَعُ بِهِ أَصْحَابُهُ لَا يَتَوَضّأُ إلّا ابْتَدَرُوا وَضُوءَهُ وَلَا يَبْصُقُ بُصَاقًا إلّا ابْتَدَرُوهُ وَلَا يَسْقُطُ مِنْ شَعْرِهِ شَيْءٌ إلّا أَخَذُوهُ فَرَجَعَ إلَى

(١)ابن هشام جـ ص٣١٥

قُرَيْشٍ، فَقَالَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ إِنِّي قَدْ جِئْت كِسْرَى فِي مُلْكِهِ، وَقَيْصَرَ فِي مُلْكِهِ وَالنّجَاشِيّ فِي مُلْكِهِ وَإِنِّي وَاَللّهِ مَا رَأَيْت مَلِكًا فِي قَوْمٍ قَطّ مِثْلَ مُحَمّدٍ فِي أَصْحَابِهِ وَلَقَدْ رَأَيْت قَوْمًا لَا يُسْلِمُونَهُ لِشَيْءٍ أَبَدًا، فَرُوا رَأْيَكُمْ)[1].

تحليل وتعليق: ذهب عثمان ﷺ إلى مكة وجاء إلى قريش وبلغ الرسالة بطرفيها الطرف الذي يخص قريشا والطرف الذي يخص المؤمنين والمؤمنات وقد حبسه أهل مكة مدة ولهذا السبب صدرت بعض الشائعات تقول إن عثمان رضي الله عنه قتل فبايع الصحابة ﷺ نبي الرحمة ﷺ على القتال وهي بيعة الرضوان كما يقول البدوي:

وبايعوه بيعة الرضوان إذ قيل قد عدوا على عثمانِ

ثم تبين بعد ذلك عدم صحة الخبر فلم يحصل قتال ونال المسلمون رضوان الله تعالى بمجرد هذا العزم والتصميم والاستعداد للجهاد قال تعالى: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾[2] ولما أنجز عثمان ﷺ المهمة قال له سادة مكة (إن شئت أن تطوف بالبيت فطف) وكأن البيت في قاموس هؤلاء مائدة يدعون إليها من شاءوا ويمنعونها من شاءوا وعثمان رضي الله عنه معروف بالعبادة وعهده بالبيت قديم لأنه هاجر إلى الحبشة مدة زمنية وتضاف إليها مدة وجوده في المدينة من الهجرة إلى هذا التاريخ وهذه المدة الطويلة تجعله يشتاق إلى البيت و الطواف به اشتياقا عظيما ولكن جواب عثمان رضي الله عنه يحمل كثيرا من الدلالات والإيحآت في قاموس الانضباط وقانون الجندية (ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله) وكأنه يقول أنا سمعت منكم

(١)الروض الأنف للسهيلي جـ٤ صـ٤٥. وأصل القصة في صحيح البخاري رقم ٢٧٣١.

(٢)الفتح: ١٨

هذا العرض وهو محبب إلى نفسي لأنني أحب الطواف بهذا البيت الذي تربيت في جواره ولي معه ذكريات لا تنسى كنت أطوف به وأنا صغير كنت أطوف به كمظهر من مظاهر تعظيمه في الجاهلية أما الآن وقد أسلمتُ واتبعتُ منهج نبي الرحمة ﷺ فإن حبي لهذا البيت قد ازداد لأن قدوتي يحبه حبا عظيما ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾[1] فإني كذلك أحبه حبا عظيما ولكن مادام قدوتي وإمامي ممنوعا من الطواف به فإني (ما كنت لأفعل حتى يطوف به) إنني جندي مبعوث بمهمة وكل معروف يسدى إليَّ ولو طاعة في الظاهر فإن قدوتي وقائدي أولى بهذا المعروف !!

إن موقفه رضي الله عنه يحمل كثيرا من الدلالات ويمكن أن يقرأ عدة قراءات منها أن هذا العمل وإن كان ظاهره طاعة وطوافا بالبيت لكن قريشا قد توظفه لصالحها توظيفا خطيرا كأن تصدر شائعات وتقول إن عثمان قد أثَّرنا عليه والدليل على ذلك أنه يطوف بالبيت وقائده ممنوع من الطواف به ولسان حال عثمان يقول وسدا لأي ذريعة ومنعاً لأي احتمال فإن محبة نبي الرحمة ﷺ تجعلني أتخذ هذا الموقف (ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ) إذ الوضع الطبيعي أن يطوف قدوتي وأسوتي بالبيت وأطوف تبعاً له إنني مربوط دينياً وعقائدياً بقائدي ولهذا فقد انقطعت علاقتي بالتوجه إلى هذا البيت مدة من الزمن كنا تبعا لإمامنا نتوجه معه إلى بيت المقدس ولكن إمامنا كان يرغب في التوجه إلى هذا البيت فحقق الله له ما يحبه ويرضاه فاتجه إليه واتجهنا إليه تبعا له بأمر من الله ونحن في المدينة وقد وصلنا الخبر أثناء الصلاة فتحولنا تلقائيا مما يدل على

(١) البقرة: ١٤٤

الانضباط وسرعة تنفيذ الأوامر وبناء على ذلك فإنه: لا يعرف قيمة هذا البيت إلا قدوتنا ﷺ وأتباعه ولهذا (ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ).

وقبل إبرام صلح الحديبية جاء عروة بن مسعود يعرض خدماته على قريش باعتباره سيد ثقيف وهو أحد الرجلين الذين رأت قريش أن نزول الوحي على أحدهما أولى من نزوله على سيدنا محمد ﷺ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾[1] يعنون بالقريتين مكة والطائف ويقصدون بالرجلين: الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود يقول ابن هشام (فخرج عروة حتى أتى رسول الله ﷺ وجلس بين يديه)؛ لأنه يريد حوارا مباشرا وبعد ندائه لنبينا محمد ﷺ قال أجمعت أوشاب الناس..إلخ إن خطاب عروة خطاب تكتيكي الفقرة الأولى منه خصصها لاستعطافه ﷺ (أجمعت أوشاب الناس ثم جئت إلى بيضتك لتفضها بهم)، وكأنه يعترف للنبي ﷺ بإمكان سيطرته على مكة إن أراد ذلك ولكنه يستعطفه بهذه العبارات(جئت إلى بيضتك) مستخدما كاف الخطاب مضيفا إليه البيضة وكأن عروة يقول: هذه مكة وهي رمز قريش وعزها ثم إن مكانتك حسبا ونسبا ينبغي أن تمنعك من اقتحامها عنوة لا سيما إن كانت عملية الاقتحام تتم بواسطة (أوشاب) أي أخلاط (من الناس) لا تجمعهم قبيلة ولا يربطهم نسب وهذا مخالف للقوانين المعروفة عندهم إذ المعروف عادة أن القبيلة تواجه القبيلة وأن القبيلة كذلك لها خصوصيتها الدينية فقريش-على سبيل المثال- لها هبل وثقيف لها اللات ودوس لها ذو الخلصة..إلخ أما أن تأتينا بهذه (الأوشاب) التي لا يجمعها نسب أو قبيلة

(١)الزخرف: ٣١

ويجمعها في نفس الوقت دين واحد وقيادة واحدة فهذا مخالف للقوانين العرفية المعمول بها، إنها أو شابٌ تجمع كل الطيف الاجتماعي:

أبو بكر القرشي، سعد بن عبادة الخزرجي، محمد بن مسلمة الأوسي، أبو ذر الغفاري، سلمان الفارسي، بلال الحبشي، صهيب الرومي، عبد الله بن مسعود الهذلي، فإننا لم نعهد هذا الخليط في الجزيرة العربية والمشكلة أنهم أوشاب إن دخلت بهم مكة عنوة لا يمكن أن نتعامل معهم على أساس القبيلة لأن كل فرد من هؤلاء ليست قبيلته مسؤولة عنه ولا عن تصرفاته لأنهم جميعا ذابوا في بوتقة الإسلام:

أبي الاسلامُ لا أبَ لِي سِواهُ إِذَا افْتَخَرُوا بقَيْسٍ أَو تَمِيمِ[1]

(إنها قريش قد خرجت..إلخ) خصص عروة الفقرة الثانية من خطابه لما يسمى بـ(الحرب النفسية)

وبدأ بـ(إن) المؤكدة (إنها قريش)ثم ذكر أوصافا معبرة عن استعداد قريش الكامل للدفاع عن مكة (قد خرجت معها العوذ المطافيل ..إلخ)ثم استخدم مصطلحا دينيا (و أيم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدا!!)إن خطاب عروة –كما أسلفت– مكون من شقين الأول: استعطافي والثاني: تهديدي (والله لكأني...إلخ) وذكر هذا الاحتمال إما لمجرد الحرب النفسية –كما أسلفت– وإما باعتبار أنهم –كما يرى–(أوشاب) لا تجمعهم قبيلة وسادة القبائل لا يستوعبون أن يقاوم الفرد ويصبر إلا دفاعا عن القبيلة وحمية لها وتحت رايتها وإما أنه قال هذا الكلام قبل أن تظهر له الصورة الحقيقية لهؤلاء الاتباع الكرام الذين يسميهم (أوشاباً) ويقوي هذا الاحتمال ما شاهده من مواقف

١ المستطرف للشهاب الأبشيهي صـ٢٩٠ والكامل للمبرد صـ١٣٣وعزاه الأبشيهي لسلمان الفارسي رضي الله عنه.

التضحية والفداء (قال وأبو بكر خلف رسول الله ﷺ فقال: امصص بظر اللات أنحن ننكشف عنه؟؟ فقال من هذا يا محمد؟ فقال ابن أبي قحافة..إلخ) إن أبا بكر رضي الله عنه معروف بالهدوء واللين ولكن الجزء الأخير من خطاب عروة تجاوز الخطوط الحمراء وبالتالي فلا بد له من رد قوي وكأنه يقول له هذا رسول الله وهؤلاء أتباعه من المهاجرين والأنصار وقد برهنوا على كامل المحبة وأروع التضحية وأصدق الفداء دفاعا عنه ومواقفهم في هذا المجال معروفة وهم يَفدونه ﷺ بأنفسهم وقد تركوا أموالهم وأوطانهم حبا لله ورسوله وأنت تراهم محدقين به الآن ثم تتهمهم بهذا الاتهام الخطير؟! فلا أرى لجوابك أقل من هذه العبارات القاسية (امصص بظر اللات) جملة فعلية واحدة لكنها تحمل الكثير والكثير.. فهي من جهة تعطيه تنبيها وتلقنه درسا حول الخلاف الجوهري والهدف المتباين بين عروة وبين من يتهمهم بالانكشاف عن نبي الرحمة ﷺ بمعنى أن هؤلاء رضوا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا وبرهنوا على أنهم مستعدون لدفع ثمن هذه القناعة وذلك المبدإ في مواطن كثيرة ومع هذا تتهمهم بالتخلي عن نبي الرحمة ﷺ وهم قد بايعوه على السمع والطاعة في المنشط والمكره والعسر واليسر. وقد يكون لكلمات الصديق قراءة أخرى وكأنه يقول له إنك تخاطب رسول الله ﷺ باعتبارك مندوبا وناطقا رسميا عن قريش ونبي الرحمة ﷺ قرشي ومعه أتباعه الكرام ولا يوجد بطن من بطون قريش إلا ومع النبي ﷺ منه أفراد فإن كان دافعك لما تقوم به القرابة فهم ليسوا أقرب إليك منا وإن كان غير ذلك فلماذا تقحم نفسك في شأن لا ناقة لك فيه ولا جمل والأولى بك أن تذهب إلى الطائف حيث توجد اللات وتوجد ثقيف وتخلي بيننا وبين قومنا أو يكون لك موقف يتسم بالتوازن والاعتدال لا أن تجعل نفسك خصما وتخاطب رسول الله بهذا الأسلوب الاستفزازي واستخدم الصديق الاستفهام الاستنكاري (أنحن ننكشف عنه؟!!) لمناسبته أسلوب عروة!.

بعد تلقيه هذا الدرس القاسي (امصص بظر اللات) دار الحوار التالي:

(من هذا يا محمد؟) ..

(قال ابن أبي قحافة) ..

(قال أما والله لولا يد كانت عندي لكافأتك بها ولكن هذه بها) ..

من الواضح أن كلمات الصديق سببت لعروة صدمة نفسية قوية ولهذا سأل (من هذا يا محمد؟) فهو يخاطب النبي ﷺ ويناديه باسمه مجردا هروبا من الاعتراف برسالته ﷺ وتشبعا بثقافة مناوئة هذا الدين العظيم ونبيه الكريم (قال ابن أبي قحافة) قال: (لولا يد كانت لك عندي لكافأتك بها ولكن هذه بها) من المعروف أن أبا بكر رضي الله عنه تاجر مرموق ونسابة مثقف ورجل اجتماعي يألف ويُألَف وفضله يتجاوز حدود مكة وأفراد قريش بل يمتد إلى ثقيف في الطائف وغيرها (لكافأتك بها) وهذا دليل على أنها عبارات قاسية اقتضاها الموقف وفرضها الواقع (ولكن هذه بها) وكأن عروة يقول إن إحسانك إلي في السابق يحرجني بل يلجمني عن جوابك لاعتبارات معروفة أشار الشاعر إلى بعضها

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسان إحسان

وإحسان أبي بكر أسكت الخصم وأحرج المعاند وأظهر فضل الصديق وهذا درس مهم للدعاة والمصلحين في السعي في زرع المعروف وبذر الفضائل في كل مناسبة أو موقف يقتضيه الحال والمقام (**لاَ تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ**)(1).

(ثم جعل يتناول لحية رسول الله ﷺ وهو يكلمه والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله ﷺ في الحديد قال فجعل يقرع يده إذا تناول لحية رسول الله ﷺ ويقول اكفف يدك عن وجه رسول الله ﷺ قبل أن لاتصل إليك فيقول عروة ويحك ما أفظك وأغلظك قال فتبسم رسول الله ﷺ فقال له عروة من هذا يا محمد؟ قال هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة)

(١) البخاري رقم ٦٨٥٧.

جعل يتناول لحيته ﷺ وهو يكلمه قد يكون عروة ممن تعود على هذا الأسلوب أثناء حديثه مع الأفراد (والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله ﷺ في الحديد) بمعنى أنه يقوم بواجب حراسة القيادة النبوية (فجعل يقرع يده .إلخ) وهذا تحذير فعلي ثم وازاه بتحذير قولي (اكفف يدك عن وجه رسول الله ﷺ قبل أن لا تصل إليك فقال عروة ويحك ما أفظك وأغلظك) يبدو أن عروة كان يفعل هذا وكأنه أسلوب أقرب إلى المداعبة أو رفع الكلفة (ويحك ما أفظك وأغلظك) يقصد أن القضية في نظره لا تصل إلى هذه المرحلة التي يصل التهديد فيها إلى قطع اليد ولكن الجانب الاعتباري المعنوي لجناب النبي ﷺ السامي ورتبته العالية هو الذي جعل المغيرة يحذره تحذيرا مقرونا بتنبيه عملي(فجعل يقرع يده! فتبسم رسول الله ﷺ) وفتحت هذه الابتسامة الشريفة لعروة المجال ليسأل عن هذا الشخص الذي يهدده بهذه الصرامة ثم تكون المفاجأة وبجرسها القوي (قال هذا ابن أخيك!!!المغيرة بن شعبة) لا شك أن عروة سيسائل نفسه قائلا أنا سيد ثقيف المطاع ذهبت لأفاوض عن قريش وإذا بي أمام مواقف صعبة ما بين المحرج والمخجل فابن أخي يقرع يدي ويقول: (اكفف يدك عن وجه رسول الله ﷺ) مهددا (قبل أن لا تصل إليك) وأبو بكر يقول (امصص بظر اللات) ولا أستطيع الرد عليه بسبب معروفه السابق الذي لم أكافئه عليه حتى الآن وهذا يعد في قاموس العرب نقطة ضعف، ثم إن الفقرة الاستعطافية الأولى من خطاب عروة أجابه رسول الله ﷺ عليها بأنهم إنما جاءوا للعمرة فقط لا للحرب وأما الفقرة الأخرى التهديدية فقد أجابه عليها أبو بكر ولقنه درسا قاسيا وازداد الأمر صعوبة على عروة عندما عرف أن الذي يهدده بقطع اليد إن رفعها إلى وجه رسول الله ﷺ هو ابن أخيه ويبدو أن عروة أثناء هذه المفاوضات كان يراقب عن كثب علاقة الجنود بقائدهم واكتشف ما يتمتع به نبي الرحمة ﷺ من مكانة سامقة ورتبة فائقة ومحبة صادقة فقرر الانسحاب بأقل الخسائر ولهذا نقل لقريش مظاهر العظمة العامة التي يتبوأها رسول

الله بين الاتباع المحبين ولم يذكر المواقف الشخصية المحرجة التي تعرض لها (امصص بظر اللات)، (اكفف يدك عن وجه رسول الله قبل أن لا تصل إليك)، (فقام من عند رسول الله ﷺ ورجع إلى قريش وقال: (أي قوم لقد وفدت على الملوك، على قيصر وكسرى والنجاشي والله ما رأيت ملكا يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدا إذا أمرهم ابتدروا أمره وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ولا يحدون النظر إليه تعظيما له) فعروة أعطاهم صورة عامة وفكرة شاملة عن هذه العظمة وهذا الموقف بعيد جدا عن الموقف السابق.

(وأيم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدا) عروة في موقفه النهائي يرد على نفسه بنفسه فقد تكون هذه المواقف التي شاهدها عروة بن مسعود من بين الأسباب التي جعلته يسلم قبل قومه أهل الطائف فقد أسلم رضي الله عنه وكان في المدينة وأراد الذهاب إلى قومه لدعوتهم إلى الإسلام فقال له الرسول ﷺ فإنهم سيقتلونك وظن أن مكانته فيهم تمنعهم من ذلك فقرر الذهاب إليهم فقتلوه رضي الله عنه كما أخبر نبي الرحمة ﷺ.

اخترنا هذه العناوين العشرة للدلالة على التفاني في المحبة والفداء من هؤلاء الأصحاب لنبي الرحمة ﷺ نرى فيها صوراً عجيبة تعبر عن صادق المحبة وخالص الود.

وهي نماذج للمثال لا الحصر.

الخاتمة

من خلال هذا البحث عشت نعمة لا توصف، إذ عشت فكريا وشعوريا وعاطفيا برهة من الزمن مع السراج المنير نبي الرحمة ﷺ بدْأً بالحديث عن مكانته العظمى كما يصورها القرآن الكريم مروراً برحمته بالمؤمنين وشفقته على الإنسانية وما يسر الله من الدروس والعبر المستفادة من بعض مواقفه الشريفة وانتهاءً بالحديث عن قمة التضحية والفداء من الصحابة الكرام بدافع المحبة وكامل الود وتوصلت إلى ما يلي:

لقد أبهرني بشكل عجيب وصف القرآن الكريم لعظمة نبي الرحمة ﷺ وكيف خلد ذكره، مرة يتحدث عن بصره الشريف ومرة عن فؤاده المطهر ومرة عن نطقه المزكي ومرة عن وجهه الأغر، وجبينه الأزهر، ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾[1] ومرة عن عمره المبارك، ومرة عن كماله الأخلاقي العظيم ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾[2]

وأبهرتني كذلك هذه الإحالة القرآنية العجيبة ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾[3]

وأذهلتني هذه العظمة الفريدة بين المؤمنين ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾[4]، ﴿ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾[5]

---

(١)البقرة: ١٤٤

(٢)القلم: ٤

(٣)النساء: ٨٠

(٤)الأحزاب: ٦

(٥)التوبة: ١٢٠.

ولفت نظري-كذلك- حديث القرآن الكريم عن شفقة نبي الرحمة ﷺ مع مَن تفنَّنَ في أذيته ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ ﴾[1] ، ﴿ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ ﴾[2] ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ ﴾[3] وعجبت كذلك من رحمته بمن لم يولد من أبناء الأعداء!!(**بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا**) شفقة مع من لم يولد ممن خياراته الانتقامية تجاهه ﷺ ﴿ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ ﴾[4]!! وتعجبت كذلك أنه لما تحقق الخيار الثالث ولكن بغير الطريقة التي يريدونها!،رصدوا جائزة مغرية وهي مائة من الإبل لمن يأتي به حيا أو ميتا وتكون المحاولة من سراقة بن مالك للحصول على الجائزة ثم تبوء بالفشل، وبعد ثمان سنين من هذا التاريخ، تتغير الموازين وتتبدل الأحوال،-والتاريخ وعاء للمواقف وهو لا يرحم- فإذا بنبي الرحمة ﷺ أمامه أعداء الأمس يعطي كل فرد من السادة مائة من الإبل، يعطي من بقي حيا بعد بدر، مائة من الإبل بل يزيد عليها يعطي لأحد السادة مائة فيقول ابني فيعطيه مائة فيقول ابني فيعطيه مائة!!أذهلني-أيضاً- حفاظ التاريخ على رمزية هذه المائة ليتبين لهم ولنا-فيما بعد- أن نبي الرحمة ﷺ يتبوأ قمة الكرم، وذروة الجود، وسنام الصفح.

(١) الكهف: ٦

(٢) فاطر: ٨

(٣)الزمر: ١٩

(٤)الأنفال: ٣٠

وغمرتني الدهشة و تملكني العجب من هذه العظمة التي خص الله بها السراج المنير ﷺ عظمة تجعل أبا بكر الصديق بعد أن ضرب عقوبة لاتِّباعه لنبي الرحمة ﷺ ويفقد الوعي جراء هذا الضرب وعندما تعود إليه الذاكرة تسيطر المحبة على مشاعره بشكل كامل فيكون أول ما ينطق به (ما فعل رسول الله؟) وهو نفسه الذي يسد الغار بجزء من جسمه مخافة أن يخرج منه ما يؤذي نبي الرحمة ﷺ ويلدغ ولا يتحرك مخافة أن يستيقظ رسول الله ﷺ، عظمة تجعل الغلام يحمل هذا الهدف النبيل قائلا (أخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ والله إن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا) عظمة ومحبة تجعلان أحدهم يقول: (هلم إلى من يقي نفس محمد بنفسه) عظمة تجعل أحدهم -وهو في آخر رمق- يقول (وقل لقومي الأنصار لا عذر لكم! إن خلص إلى رسول الله ﷺ وفيكم عين تطرف) وتجعل الآخر يقول(نحري دون نحرك) عظمة ومحبة تجعلان المرأة -عندما ينعى لها أبوها وأخوها وزوجها-تقول (ما فعل رسول الله ﷺ) وعندما تأكدت من سلامته بالنظر والسمع يكون تعليقها(كل مصيبة دونك جلل) عظمة ومحبة تجعلان أحدهم يعيش مشكلة نفسية وعندما يُسأَلُ عن السبب يكون جوابه لنبي الرحمة ﷺ (أخشى ألا أراك في الجنة!!)عظمة تجعل أحدهم لا يطيق أن يملأ عينيه من نبي الرحمة ﷺ (والله ما كان أحد أحبَّ إليّ من رسول الله ﷺ ولا أجل في عيني منه والله ما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً ولو سئلت أن أصفه اليوم ما أطقت).

إنها نماذج فريدة تعبر عن عظمة نبي الرحمة ﷺ في قلوب ونفوس الصحابة الكرام رضي الله عنهم وقد عبروا عن هذه المحبة كما أسلفنا بأساليب متنوعة إلا أن قانون التوازن وميثاق الاعتدال ومنهاج الوسط بين الإفراط والتفريط والغلو والجفاء كان يحكم كل تصرفاتهم ومواقفهم.

توصلوا رضي الله عنهم إلى قناعة مشتركة بينهم وهي السعي الحثيث في ما يرضاه الله ويحبه تطلعا إلى مقام ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ وأملا وبحثا عن الوسيلة التي تجعلهم يتذوقون حلاوة الإيمان (**ثلاثة من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما**) ويخافون كذلك على إيمانهم (**لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**)[1] ويقدمون-في نفس الوقت- البرهان القاطع والدليل الساطع على حبهم لله تعالى: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ** ﴾[2] وبما أني أسعى -بإذن الله تعالى- إلى أن يكون هذا البحث محل إجماع عند السواد الأعظم من الأمة الإسلامية أحببت أن نختم الخاتمة بالفقرة التالية والتي نرجو أن يكون فيها ما يرضي ربنا ويجمع شملنا وإليك عنوانها وبنودها:

(١) البخاري : رقم ١٥.

(٢)آل عمران: ٣١

مُصـــالحةٌ نتمنَّـــاها

أخانا (زيدا).. إن عملك الشعائريَّ الذي تمارسه لا بد أن يصحبه عملٌ باطنيٌّ من حبٍ لله ﷻ ورسوله ﷺ وإخلاصٍ ومراقبةٍ ...إلخ كما أن عملَ الأَخِ (عمروٍ) الباطنيَّ مِنْ حُبٍّ للهِ ورَسُولِهِ وإخلاص ومراقبة ..إلخ لا بُدَّ أن يصحبه -كذلكَ- عملٌ ظاهري سلوكيٌّ حتى يقترن جمال الباطن بجمال الظاهر لِكلٍّ منكُما ، ولا شك أن كلاًّ منكما سيتجنب -إن شاء الله- الآثامَ الظاهرةَ كالغيبةِ والنميمةِ ، والآثامَ الباطنةَ كالحسدِ والكبرِ والعجبِ ..إلخ امتثالا منكما لقوله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ﴾[1] وعندما يعمل كلٌ منكما بظاهر الطاعات وباطنها ويتجنب ظاهر الآثام وباطنها عندئذ ستنعمان بلذة العبادة ونعمة الطاعة وستشعرانِ بالآصرة الإسلامية والأخوة الإيمانية وستتذكران شفقة نبيكما ﷺ ورحمته التي كاد من أجلها يُهلكُ نفسه على آثار قومٍ لم يقبلوا هدى الله ولم يؤمنوا بهذا القرآن الكريم ﴿ فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾[2] وإذا كان قدوتكما قد وصل إلى هذه المرحلة أسفا على عدم إيمانِ هؤلاء بهذا القرآن فستعلمان أن محاولة إخراج كل منكما صاحبَه من الدين باتهامك يا(عمرو) (زيدا) بكراهية النبي ﷺ واتهامك يا (زيدُ) (عمراً) بعدم الاتِّباع أمر مخالف لمنهج قدوتكما إذ يخبر عنه ربه ﷻ... ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾[3]!! أما أنتما فكأن كلاً منكما يحاولُ إكراه أخيه المؤمن على الكفر

(١) الأنعام: ١٢٠

(٢) الكهف: ٦

(٣) يونس: ٩٩

إما بدعوى كراهية النبي ﷺ وإما بدعوى عدم الاتِّباع المطلق أما الآن فستكتشفان أن القواسم المشتركة بينكما كثيرة جداً وأن البحث عن رضا الله والذي أعظمُ أسبَابِه حبُّ الله ورسولِه واتِّباع ما أمر الله به ورسولُه أول هذه القواسم المشتركة وعمودها الفقري، وستنشغلان –بعد ترسخ هذه القناعة– بالإنتاجية والبناء وستنقلان تجربتكما لأبناء الأمة وتوَرِّثان لأفراد المجتمع المسلم المنهجَ الإسلاميَّ الناصعَ الشاملَ ومن خلال التزامكما بهذا المنهج فستجدان من يسير يمين الطريق ومن يسير يساره. ووجودكما في وسط الطريق يمكِّنُكما من إرشاد الطرفين لوجودكما وسطهما وتتفهمان أثناء السير في الطريق الحكمة من وجودكما وسطه ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾[1] وتقتضي هذه الوسطية وذلك العمق إنتاجا أكثر وأداء أفضل.

إن الأطراف التي تسير على ميمنة الطريق وميسرتها قد لا تبادر لأول وهلة إلى التزام الطريق الوسط لكنها في النهاية ستجد الطريق الفرعي مسدودا أو تذهب به إلى طرق عشوائية وستعود تلقائيا إلى الطريق الوسط والدرب المستقيم والصراط النافذ إن شاء الله تعالى نسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم الموصل إلى جنات النعيم.

وصلى الله وسلم وبارك على عظيم القدر سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه.

وكتبه الفقير إلى عفو ربه: المصطفى السالك بن الطالب الشنقيطي.

يوم الثلاثاء ١٤٣١/٦/١١هـ ، المملكة العربية السعودية، الخبر.

(١) البقرة: ١٤٣.

فهرس

تقريظ العلامة ابين بن بيان الشنقيطي..... ٣

كلمة د. سامر سليمان حماد..... ٤

تقريظ الشيخ/ محمد فاضل ولد الطاهر الأنصاري ٥

المقدمة..... ٦

سبب التأليف..... ١٣

الفصل الأول ٢٢

الآية الأولى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾..... ٢٨

الآية الثانية ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾..... ٣١

الآية الثالثة ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ﴾..... ٣٢

الآية الربعة ﴿ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ۝٤ ﴾..... ٣٦

الآية الخامسة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ ٣٩

الآية السادسة ﴿ قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَا ﴾..... ٤٢

الآية السابعة ﴿ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾..... ٤٥

الآية الثامنة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾..... ٤٨

الآية التاسعة ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾..... ٥١

الآية العاشرة ﴿ مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ ﴾... ٥٣

سراج في الهداية وقمر في الجمال..... ٥٦

نماذج من عظمته صلى الله عليه وسلم على ألسنة الشعراء..... ٥٩

الفصل الثاني ٦٦
الآية الأولى ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ ﴾..... ٦٧
الآية الثانية ﴿ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ ﴾ ٧٠
الآية الثالثة ﴿ لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ ﴾..... ٧٤
الآية الرابعة ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ ﴾..... ٧٨
رحمته وشفقته على مصير المؤمنين الأخروي..... ٨٧
رحمته بالصبية والأمهات والأبناء..... ٩٢
رحمته بالصغار وتفهمه لميلهم الفطري وحرصهم على اللعب..... ٩٤
رحمته النساء..... ٩٨
رحمته بمن يحاول ممارسة الغلو في العبادة..... ١٠٠
رحمته بمن ابتلي من أمته بمكروه..... ١٠٢
رحمته بمن لم يولد من أبناء المسلمين وحرصه على رفاهيتهم وكرامتهم..... ١٠٣
رحمته باليتيم..... ١٠٥
رحمته بالكبير..... ١٠٦
رحمته المجسدة في حرصه على بر وصلة الوالدين ولو كانوا كفارا أو أمواتا..... ١٠٩
رحمته بمن يريد الإقدام على سنة الحياة (الزواج)..... ١١٢
رحمته بالمسلم نفسيا وشعوريا..... ١١٣
رحمته بأصحاب الفاقة والمحاويج..... ١١٤
رحمته بالعبيد والإماء والخدم..... ١١٨
الفصل الثالث ١٢٤

الآية الأولى ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ ١٢٥
الآية الثانية ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾..... ١٢٦
الآية الثالثة﴿ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ ﴾..... ١٢٧
الآية الرابعة ﴿ أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴾..... ١٢٩
الآية الخامسة ﴿ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ﴾ ١٣١
الآية السادسة ﴿ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾..... ١٣٢
الآية السابعة ﴿ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴾..... ١٣٣
الآية الثامنة ﴿ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾..... ١٣٥
الآية التاسعة ﴿ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴾ ١٣٩
الآية العاشرة ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ ﴾..... ١٤٢
وفي الختام ١٥١
الفصل الرابع ١٦٢
الموقف الأول (هذا الأمين رضيناه) ١٦٣
الموقف الثاني (أتختار العبودية على أبيك وأمك)..... ١٦٥
الموقف الثالث (ياعم والله لو وضعوا الشمس)..... ١٦٦
الموقف الرابع (بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم)..... ١٦٧
الموقف الخامس (لايتحدث الناس)..... ١٧٠
الموقف السادس (كيف بك يا سراقة) ، (الله أكبر فتحت ...)..... ١٧٧
الموقف السابع (اذهبوا فأنت الطلقاء)(فمازال يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلي) ١٨٥
الفصل الخامس..... ١٩٤

العنوان الأول : (لله علي ألا أذوق طعاما ولا أشرب شرابا)..... ١٩٥
الثاني : (والله لا تدخله حتى أدخله قبلك فإن كان فيه شيء...)..... ١٩٩
الثالث : (يا عم أتعرف أبا جهل؟)..... ٢٠١
الرابع : (فتقدم رجل من الأنصار)..... ٢٠٥
الخامس : (وللمرأة قصة في المحبة)..... ٢١٣
السادس : (أجد ريح الجنة وقل لقومي الأنصار)..... ٢٢١
السابع : (أخشى ألا أراك في الجنة)..... ٢٢٣
الثامن : (ولو سئلت أن أصفه اليوم ما أطقت)..... ٢٣٧
التاسع : (أنشدك الله يا زيد)..... ٢٣٩
العاشر : (ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله صلى الله عليه وسلم)..... ٢٤١
الخاتمة : ٢٥١
مصالحة نتمناها..... ٢٥٥
الفهرس..... ٢٥٧
أهم المراجع..... ٢٦١

أهم المراجع

القرآن الكريم.

التفاسير

١. جامع البيان في تفسير القرآن للطبري،
٢. الجامع لأحكام القرآن للقرطبي،
٣. تفسير القرآن العظيم لابن كثير،
٤. زاد المسير لابن الجوزي،
٥. تفسير القشيري،
٦. التسهيل لمعالم التنزيل ابن جزيء،
٧. مفاتيح الغيب للرازي،
٨. الكشاف، للزمخشري
٩. تفسير:روح المعاني للألوسي
١٠. معالم التنزيل للبغوي
١١. البحر المحيط لأبي حيان
١٢. المحرر الوجيز لابن عطية
١٣. أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي
١٤. مدارك التنزيل وحقائق التأويل، للنسفي
١٥. السراج المنير للخطيب الشربيني
١٦. البحر المديد لابن عجيبة
١٧. الدر المنثور في التأويل بالمأثور
١٨. إرشاد العقل السليم إلى مزيا الكتاب الكريم ،لأبي السعود

١٩. لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن.
٢٠. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان السعدي
٢١. في ظلال القرآن ، لسيد قطب
٢٢. التحرير والتنوير، لابن عاشور

كتب الحديث الشريف

٢٣. صحيح البخاري
٢٤. صحيح مسلم
٢٥. الموطأ
٢٦. سنن أبي داود
٢٧. سنن الترمذي
٢٨. سنن ابن ماجه
٢٩. سنن النسائي
٣٠. مسند الإمام أحمد.
٣١. المستدرك للحاكم
٣٢. السنن الكبرى للبيهقي
٣٣. دلائل النبوة للبيهقي.
٣٤. شعب الإيمان، للبيهقي
٣٥. حلية الأولياء،لأبي نعيم
٣٦. مسند أبي يعلى
٣٧. سنن الدارمي
٣٨. الطبراني
٣٩. الأدب المفرد

٤٠. تهذيب الآثار

كتب السيرة.

٤١. السيرة النبوية لابن كثير

٤٢. السيرة النبوية لابن هشام

٤٣. إمتاع الأسماع للمقريزي تقي الدين أحمد بن علي تصحيح وشرح محمود محمد شاكر.

٤٤. الرحيق المختوم للمباركفوري

٤٥. زاد المعاد لابن القيم.

٤٦. نظم المغازي للشيخ أحمد البدوي الشنقيطي.

من المراجع العامة

٤٧. بداية السول في تفضيل الرسول للعز بن عبد السلام تحقيق الشيخ الألباني.

٤٨. التبيان في أقسام القرآن لابن القيم.

٤٩. الرسالة للإمام الشافعي.

٥٠. ديوان حسان بن ثابت رضي الله عنه.

٥١. الوسيط في تراجم أدباء شنقيط.

٥٢. المديح النبوي عند شعراء الصحراء المغربية بحث لنيل الدكتوراه إعداد المداح محمد المختار.

٥٣. المستطرف في كل فن مستظرف لشهاب الدين أحمد الابشيهي.

٥٤. الكامل في اللغة والأدب للمبرد.

٥٥. تاريخ الشام لابن عساكر.

٥٦. سير أعلام النبلاء.

٥٧. تهذيب سير أعلام النبلاء.